



هيثم موسى

انْتَرَوْ بُو فَا جِيَا

رواية

ليست لأصحاب القلوب الضعيفة

مكتبة فريق_متميزون

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمه:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم الى الجروب](#)

[انضم الى القناة](#)

انتروبوفاجيا

(رواية)

ليست لأصحاب القلوب الضعيفة

هيثم موسى

عن الرواية..

أَنْتَ عَلَى أَغْتَابِ أَسْوَأِ فِتْرَةٍ فِي تَارِيخِ الْبِلَادِ، الْحَقْبَةُ الْمُظْلِمَةُ الَّتِي كَانَتْ تُقَادِ بِدَافِعٍ وَاحِدٍ لَا ثَانٍ لَهُ.. وَهُوَ الْجُوعُ، فَأَكَلَ الْمَصْرِبُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ، لِيُلْعَنَ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا، وَيَعِثُ الْفَسَادُ طِيلَةَ سَنَعِ سَنَوَاتٍ يَهَا.

لِيُخْطَفَ الْأَطْفَالُ مِنْ عُقْرِ دِيَارِهَا..

وَيُرْهَقَ الْأَرْوَاحُ لِتَذْهَبَ لِبَارِئِهَا دُونَ أَيِّ ذَنْبٍ لَهَا..

فَيُؤْكَلُ السَّائِرُ عَلَى الْأَرْضِ وَالْمَدْفُونُ فِي جَوْفِهَا. سِنَوَاتُ طَوَالٍ مِنَ الزُّعْبِ وَالْأَهْوَالِ قَدْ مَرَّتْ عَلَى الْبِلَادِ، لَمْ يَعْشُ غَالِيَّةٌ أَصْحَابَ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ لِيَرَوْوَهَا..

لَزَيْمًا يَكُونُ قَدْ وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِ الْبَعْضِ مِنْكُمْ الْقَلِيلَ عَنْ تِلْكَ الشَّدَّةِ، وَلَزَيْمًا يَكُونُ الْبَعْضُ الْآخِرَ عَلَى عِلْمٍ بِالْكَثِيرِ عَنْهَا، وَلَكِنَّكُمْ حَتْمًا لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا عَمَّا سَوْفَ أَقْضُهُ عَلَيْكُمْ الْآنَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"وَتَقَتْ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى مَدَارِ الْأَزْمَنِ بِمُخْتَلَفِ حَضَارَاتِهَا وَثَقَافَاتِهَا، ظَهَرَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ الَّتِي تَوْجَدُ بَيْنَنَا، وَتَعِيشُ فِي عَالِمِنَا هَذَا، وَوَضَعَتْ الْبَشَرِيَّةُ بَعْضَ التَّصْنِيفَاتِ لِتِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي عِلْمٍ يَخْتَصُّ بِدِرَاسَتِهِمْ، وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ "دِيمَنُولُجِي".

وَبِمَرُورِ الْأَزْمَنِ وَتَفَاوُتِهَا، اسْتَطَاعَتْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتُ إِخْفَاءَ أَيْ أَثَرِ لَهَا، وَتَظْهَرُ أَبْسَطُ الدَّلَائِلِ الَّتِي تُؤَكِّدُ وَتَدُلُّ عَلَى وَجُودِهَا، خِلَالِ كُلِّ حِقْبَةٍ مِنَ الْأَعْوَامِ لِتَأْتِيَ ثَلَاثُ حَوَادِثَ فِي وَقْتٍ لَيْسَ بِالْقَرِيبِ، لِتُلْقِيَ الضَّوْءَ وَتُسَلِّطُهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى.

نشرت جريدة "كولشست الإنجليزية" عام 1969 الإعلان عن ثلاث حوادث قتلٍ
مربعة، لم يُعثر على قاتِلهم، على أيِّ أثرٍ!

لتأتي شاهدةٌ تقفُ على كلِّ ما حدث؛ لتصفِ الفاعلَ بجملةٍ واحدةٍ: "مخلوق
لم تطأ قدماه عالمَ البشرِ"!

وإليكُم القصةُ الكاملةُ حولَ حقيقةِ ما حدثَ في مقاطعةِ إسكس عام 1969.

تحتوي الرواية على أكثر من عشرين مرجع علمي في علوم شتى مثل:

علم الامراض النفسية والعصبية

• الفلسفة.

• الأدب العالمي.

• التاريخ والجغرافيا.

• علم الأساطير.

• علم الشياطين.

• الكيمياء.

أشرف على المحتوى العلمي للرواية الطبيب/ محمد رضا الفقي أستاذ
ورئيس قسم الامراض النفسية بالأكاديمية الطبية العسكرية بجمهورية مصر

العربية.



إهداء الي المرحوم

الأستاذ/محمد عبد الحي القاضي

الي الغائب عن العين والحاضر في القلب.

الي من لم يمت في العقول والنفوس.

لازلت حيًا بين أحبائك بذكراك.

لازالت الناس ترى أثرك الطيب في ابنائك وزوجتك.

لازالت روحك الطيبة وسيرتك العطيرة تملأ المكان.

رحمة الله على أب لن يُعوّضه الزمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الانْتِزُوبُوقَاجِيا ¹. تلك الظَّاهِرة التي تجعل الإنسان يفقد أبعاده العديدة التي يتميَّز بها عن الحيوانات التي يحكمها الأُفُق البيولوجي، إذ تُمَحَى أبعاده الثقافية والحضارية لِيتَّيَدِنَى إلى وَضْعٍ حَيَوَانِيٍّ مُتَّوَحِّشٍ، ويتحول بذلك من الوضع الإنساني إلى الوضع الحيواني البَحْتِ، وتصبح الحاجة والغرائز هما المُحَدِّدَانِ الحَقِيقِيَانِ في كل العلاقات البشرية.

أما بالنسبة لحرمة المَوْتِ والخشية من المَوْتِ، فهذان لا يَعْذُوان أن يُصْبِحَا ذَكَرَى عَقَا عليها النسيان وتوارت بعيدًا في اللاوعي البشري، وبطِوال أَمَدِ المجاعة وعُنُقَهَا سيتحرك المُتَّصِرُّون الأحياء لِيَسْعَوْا للنجاة ما أمكن من أمر، والقيام بردود أفعالٍ تتفاوت في قوتها وفَعَالِيَّتِهَا ².

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المقدمة

قد يُعاد تَسطير التاريخ على يدٍ من لم يُعاصروا أحداثه، لربما يُخَيَّل إليكم أن ما سأقُصُّه عليكم هو مُجرد صَرَبٍ من الخيال، ولكن يبقى هنالك الكثير من المآسي والمعاناة اللتين لم تُرويا بعد، فلم يَعِشْ أَحَدٌ لِيَرَوِيها عن لِسَانِ الأموات، لقد عاصر أولئك الناس من الفظائع والأهوال ما لم تشهدْ (مصر) مثلها من قبل على مَدَارِ التاريخ.

فلا تتعجل عزيزي القارئ في مُطالعة صفحات ما حدث بزقاق (أُترجة الشاهد)، ذلك الزُّقاق الذي تجاوزت به الديار، لِيَتَجَاوَرَ قصص وحيوات من عاشوا فيه.

فما أقدمه لكم الآن بين أيديكم، هي قصص أناسٍ مَرَّتْ عليهم سبعُ سنواتٍ عجاف، يُقال بأنها أشدَّ بأسًا من السبعِ العِجاف التي عانت منها (مصر) في زمن سيدنا (يوسف عليه السلام).. إليكم أحداث الشِّدَّة المُسْتَنْصِرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ومضة

لقد أقدم أخيراً على فِعْلة دام تَرُدُّدُها في نفسه منذ وقتٍ طويل، لم يعتدَّ التَّحرك يوماً بمفرده دون قَطِيعه، ولكن بات من تَبَقَّى منهم هزِيلاً يُنازع المَوْت جَوْعاً، لم يَكُنْ أفضلهم حالاً بالفعل، ولكن كان عليه التَّصرف كي لا يموت، ويموت معه أولئك الذين يَتعلَّقون في رقبته، فقرر النزوح نحو تلك المدينة المُقفرة، كان الأمر قبل ذلك مستحيلاً خيفة أن يقوم البشر بقتله إن صادفوه، أو أن يُلاقي تلك الكلاب خاستهم فتهاجمه وتفتك به، ولكن الآن بات المكان مُوحِش كالصحراء التي يعيش بها، خاوٍ تلوح به ظلال المَوْت في كل مكان، فقاده حينئذٍ الجُوع في التَّهَيَّاة لاستكشاف ذلك المكان للمرة الأولى.

تحرك الصَّبُع داخل المدينة في حَذِرٍ منه يَتَحَسَّسُ بأنفه الطريق من أمامه، كانت رائحة الدِّماء تُعَبِّق المكان، فكاد عقله أن يُجن في شهوةٍ منه ليحاول تَتَبُّع آثارها، ولكن كانت أثار الرائحة تنتهي دَوْماً خلف أحد الأبواب المُوصدة لإحدى ديار هذا المكان، فَيُعَاود حينها التَّحرك مرةً أخرى في الجِوار بحثاً عن مُرادِهِ، حتى توانت أمامه أخيراً فرصة سانحة، فقد تَسَرَّبت إلى أنفه رائحة دماء أتت من دارٍ تَوَارَب بابه دون إحكام عَلقه، فتقدم بخطواتٍ بطيئة حتى جاورت أنفه الباب، لتغزو الرائحة أنفه ويصرخ الجُوع بعقله مطالباً، لِيَدْفَع الباب برأسه وينزاح جانباً في رفق، لِيَدْلِف إلى الداخل بخطواتٍ حذرة، شاخصاً بصره نحو أصحاب الدَّار.

التفت الرَّجُل وزوجته نحو زائريهما فور إدراكه.. لِيَتَمَلَّك الخَوْف من قَلْبَيْهِمَا وهما ينظران نحو ذلك الصَّبُع من أمامهما، بينما أطلال الأخير النَّظر إليهما في

تَرْقُبُ، لِيَقَعَ بصره على قطعة اللحم التي تسيل الدِّماء منها، والقابضة فوق طاولة خشبية من خلفهما، بينما تُوقَد النَّيران أسفل إحدى الأواني الساخنة استعدادًا لطهيها، ليزداد سُعار الجُوع به ويُزجر مُكشَّرًا عن أنيابه مُنْتَوِبًا اقْتِنَاصِها، ولكن باغته حينها تَقْلُبُثُ طفلٍ صغيرٍ في فراشه لِيَلْتَفِتَ إليه على الفور، ذاك الفراش الذي كان بجواره ولم ينتبه لِتَواجُدٍ من يعلوه، فقرر حين ذاك الطَّفر بقطعة اللحم تلك.

استيقظ الطُّفل في صُراخٍ جَرَّاءٍ شعوره بألمٍ رهيبٍ إثر انغراز أنياب الصَّبُع في إحدى قدميه، لِيَطْبِقَ الأخير عليها بِفَكِّهِ ويجذبها في قوَّةٍ لِيُوقِعَ بالطُّفل أرضًا ويبدأ في سحبه للخارج، لا أحد يدري سبب تَسْمُرٍ والديه دون حَرَائِ منهما بينما يُشاهدان وَلَدَهُما وهو على وشك أن يُؤْكَلَ حَيًّا، لربما يعود سبب ذلك إلى حالة الهَزَل الشديد التي أصابتهما فلا يقويان على دَرءِ الخطر عن صغيرهما، ولربما شَلَّ الخَوْفُ عَقْلَيْهِمَا عن التَّفكير وَالْجَمَّ جَسَدَيْهِمَا عن الحَرَائِ، فظلا مُتَسَمِرَيْنِ في مكانهما يترقبان الموقف من أمامهما دون أي ردة فعلٍ منهما³. حينئذٍ انفجرت مَثَاةُ الطُّفل خَوْفًا لَتَبْلُلَ ملبسته، بينما تَشَبَّثَ بيَدَيْهِ في إحدى قوائم الفراش صارخًا في قَرَعٍ، في حين ارْدَادَتِ شراسة الصَّبُع الغاضب وأخذ يُطِيحُ بِقَدَمِ الطُّفل بين فَكِّهِ يَمِينًا ويسارًا في محاولةٍ منه لِجَذْبِهِ، لِثَبَاغَتِهِ صَرِيَّةُ غاشمة هَوَتْ على فَكِّهِ وأطاحت بوجهه بعيدًا عن قدمِ فريستِهِ.

أخرج الصَّبُعُ عواءً عاليًا من شِدَّةِ الألم الذي أحاق به، لِيَنْتَبِهَ سريعًا لذلك الرَّجُل الذي أتى مُسْرِعًا من الخارج لِإِغاثتهم، لِيُحَدِّقَ في غضبٍ نحو ذلك الرَّجُل الذي غزا الشَّيْبَ رأسه وهو يجذب الطُّفل بعيدًا عنه ويدفع به نحو

والديه، لِيَقِفَ حائلاً بينه وبين صَحِيَّتِهِ، في تلك اللحظة رَمَجَرَ الصَّبْعُ بِقُوَّةٍ وغضب بصَوْتٍ أشبه بضحكٍ قَمِيءٍ⁴. بينما أخذ يقترب نحوهم في حَذَرٍ.

نظر الرَّجُلُ حينئِذٍ نحو ذلك الحيوان ذي الأضلع الناحلة بأثدائها المُتدلية من أسفلٍ منها، لِيُدْرِكَ على الفور أن ذلك الوحش من أمامه ما هو إلا مُجرد أنثى صَبْعٍ حديثة الوضع، تبحث عن موردٍ ما لثُطْعَم أطفالها، أنثى شَرِيسَةٍ لن تتراجع عن هجومها أو يُثنيها شيءٌ عن تَيْلٍ ما جاءت من أجله، لِيَسْتَلِ الرَّجُلُ الْأَشْيَبَ خَنْجَرَهُ من غمده وهو يُوقِنُ في قرارة نفسه أن القادم هو الأسوأ لا مَحَالَةٍ.

عَلَتْ رَمَجَرَةٌ أنثى الصَّبْعِ عالياً، بينما اقتربت بِفَكِّيَّهَا في محاولةٍ منها لَتَيْلٍ إحدى قَدَمَيِّ الرَّجُلِ من أمامها، فأخذ يُطَيِّح بِخَنْجَرِهِ في وجهها في محاولاتٍ مُصْنِيَةٍ للدفاع عن نفسه، حتى أصابت إحدى بطشات تَصْلِهِ وجهها، فتراجعت بضع خطواتٍ وهي تُشِيخُ بوجهها جانباً في ألم، ثم ما لَيْثَتْ أن عاودَت الهجوم بصَّراوةٍ.. لَتَيْبٍ في غضبٍ نحو صَدْرِ الرَّجُلِ فتطرحه أرضاً وتعتليه.

كان فَكَّاها ينهشان الهواء من أمام وجه الرَّجُلِ الذي كان يُبَاعِدُهُما عنه بِشِقِّ الأنفُسِ، في حين يدفع رَقَبَتَهَا بيديه بعيداً عنه بكل ما أوتي من قُوَّةٍ وَعَزْمٍ، كان مُمَسِكاً بِخَنْجَرِهِ وقتئِذٍ في إحدى قَبْصَتَيْهِ دون القدرة على استخدامه، فلم يَقُوْهُ على طَعْنِهَا في رَقَبَتها خِشْيَةً أن تَصْغُفَ يده الأخرى عن المقاومة فثَبَّاعته أنثى الصَّبْعِ تلك، وتندفع بِفَكِّيَّهَا نحو وجهه قبل أن يتمكن من قَتْلِهَا، فأعدَلَ عن نَبِيِّهِ تلك في اللحظة الأخيرة، وظل يدفع برقبته بعيداً في يَأْسٍ منه، وهو يجهل ما عليه فَعَلَهُ في تلك اللحظة تجاه ذاك المَوْتِ الذي كاد أن يطوله.

وفجأة أتى له العَوْتُ بعد لحظاتٍ قليلة من يأسه، لِيُطِيحَ صاحب الدَّار حينها بإناء ماءٍ مغليٍّ من جِواره، فتعالى عِواءُ أنثى الصَّبُعِ إثر حَرَقِ الماءِ المُلْتَهَبِ الذي قد نال من ظَهْرِها؛ لَتَخْبُو قوة اندفاعها نحو وجه الرَّجُلِ، فُتَّاحٌ له فرصةٌ وحيدةٌ أخيرةٌ في غفلةٍ منها، لِيَحْكُمَ قبضته على خَنْجَرِهِ ويدفعه لِيَنغرز في رقبتها، فحظَّت عيناها حينئذٍ من الألم الذي سَكَنَ بها، فسارع الرَّجُلُ بدفع يده الأخرى لِرَقَبَتِها في قوةٍ نحو تَصَلُّ خَنْجَرِهِ ليزيد من عَزَزِ طعنته داخل رقبتها أكثر، لتمر الثواني ويَهْمِدُ ذلك الجسد الذي جثا فوقه في سكونٍ أخير.

قام الرَّجُلُ بعد ذلك بدفع تلك الجُثَّةِ الهامدة بعيدًا عنه، ثم عاود الوقوف مرةً أخرى بينما لا زالت فرائسُهُ ترتعد جرَّاء الحدث الأخير، أخذ يتأمل ذلك الجسد النَّافِقَ من أمامه في صَمْتٍ، وقد أُرْهِقَت الحياة منه، بينما كان ذنبه الوحيد هو محاولة تَلْيِيَةِ إحدى غرائزه الرئيسية...

غريزة البقاء على قيد الحياة.



الفصل الأول

أحوال العباد

في عام 457 هـ، أَطَلَّتْ شمس شهر (شعبان) بِأَشْغَتْهَا الحارة وقت الظَّهيرة على رؤوسِ العباد داخل أحد أسواق (الفسطاط) المزدحمة، والتي تستضيف العامة⁵ من كل حَدْبٍ وَصَوْبٍ، تَخْتَلِفُ الملائس مع اختلاف الجِنسيات⁶ والكُلِّ لسببٍ واحدٍ آتٍ، تتراصَّف الدكاكين والحوانيت ببضائعها المعروضة في رَواجٍ واضح ذلك اليوم، يَبْشُدُو المكان يَهْمَهَمَةَ الْمُتَجَوِّلِينَ يعلوها صَوْتُ الباعة والمُنَادِينَ، منهم من تفترش أقمشته الأرض بينما تتخاطفُها أيادي النساء، ومنهم من ينادي لِبَيْعِ أباريق وصلت لِتَوَّها من (بلاد الشام)، يغمر المكان نسماثُ الصَّيْفِ العليل، لَتُخَلَّقَ بها طيورُ النورس فوق سَواري السُّفُن التي تتراصف على الصَّفَّة المُطلَّة على السُّوق، بينما يَكِدُّ العُمال في إنزال البضائع منها إلى الباعة، والكل منشغلٌ في أمره ومَسْعاها.

ومن وَسَطِ زحام العباد، تَوَاجَدَ رَجُلٌ هزيلُ المظهرٍ أَشْعَثُ الشعرِ، تُنَازِعُ ملبسُه لَفَحَاتِ الشمسِ التي بَهَّتْ ألوانها، لا يعبأُ للعالم هَمًّا سِوَى أمرٍ واحدٍ، لقد كان "عبد الرازق" يمشي في السُّوق بعيَّيْنِ ترصَّدان المكان بحثًا عن فرصةٍ لِكَسْبِ رِزْقِ يَوْمِهِ، فكل يومٍ بالنسبة له بمثابة فُرصة عملٍ جديدةٍ، فعلى الرُّغم من عدم امتلاكه لِعَمَلٍ ثابتٍ أو حرفةٍ تعوله، إلا أن ذلك لم يُثْنِ من عزمته يومًا، فَحِرْفَتُهُ كانت تتجلى في ذكائه وفطنته في إيجاد قوتِ يَوْمِهِ من أَبْسَطِ الفُرص، فتارة يُتَّيَحُّ له القَدَرُ رِزْقُهُ من خلال حَمْلِ البضائع للباعة مع الحَمَّالِينَ، وتارة يَجِدُ رِزْقَهُ من مُسَاعَدَةِ أحد الصباغين، واليوم هو يومٌ جديدٌ له

وفُرصة أخرى لِكَسْب الرِّزْق، فأخذ يتجول هائمًا في السُّوق.. حتى تراءت
لعيَّته فرصة سانحة.

أُسرع الخُطى نحو رجلٍ يعتلي بَعْلته وتبدو عليه مظاهر تَفُوق السَّتر، كانت
البَغلة تَسْلُك دربًا مزدحمًا يَعُوق سَيْرَهَا بينما يتأفف صَاحِبها بنفسِ مُتعالية،
فتحرك "عبد الرازق" من أمامه سريعًا وهو يَصيح في الخَلْق لِيُفْسِحُوا للبَغلة
طريقًا لِلتَّحَرُّك، صاح في رياءٍ واضح بينما يُعْلي من شأن الرَّجُل، يدفع الناس
من أمام البَغلة في حماسٍ وهميةٍ من أمره، التفت سريعًا لِيَلْمَح علامات الرِّضا
والرَّهْو في تَفْسِ الرَّجُل، وكأنها بمثابة إشارة من الرَّجُل لكي يستمر "عبد
الرازق" في ريائه ومدحه الرَّائف، ابتسم في سعادةٍ وهو يكمل ما بدأه بتفانٍ،
الأمر الذي أَسْفَرَ في نهايته عن بضعة دراهم ألقاها له الرَّجُل في نهاية
مَسِيرته عبر السُّوق، فالتقطتها "عبد الرازق" في سعادةٍ غامرة وقد أتت
فعلته بثمارها.

أخذ يُحدق النظر بها في يده وهو يُعيد إحصاءها أثناء طريق عَوْدَتِهِ لداره،
لربما يَكْفِيه ما في الدَّار من قوتِ اليوم فيوفرها للغدِ أو ليومٍ بائر، أو لربما
يَسْعِفُه الحظُّ يومًا في توفير بعض المال الكافي لِيبدأ عمله الخاص بتجارةٍ
صغيرة، ولكن باقترابه من الدَّار قاطع شرود ذهنه صَوْتُ طرقاتٍ قوية أتت
على أحد أبواب الدِّيار المُجاورة له، فرفع رأسه المُنْكَفئ نحو يده وهو يدرك
الأمر الموشِك على الحدوث.

جاءت قطعة مسرعةً من خلفه على غفلةٍ منه لتَعْبُر من بين قَدَمَيْهِ، بينما يَلْحَق
بها أحد الكلاب اللاهثة من خلفها لِيَرْتطم بِقَدَمِ "عبد الرازق"، فَيَجْزَع وَتَسْقُط
الدَّراهم من يده لتتناثر على الأرض، فانحنى لالتقاطها الواحد تلو الآخر في

غضبٍ منه، ليرفع رأسه بعد ذلك ويتابعهما يتّظّره ولسانه يلعن تلك الحيوانات التي أُبْئلي بها رُقاق (أترجة).

ركض الكلب سريعًا خلف القِطّة المُسرعة أيضًا، ولكن ليس لمطاردتها أو القنك بها، فكلاهما أتى مُسرعًا نحو صَوْتِ الطَّرْقِ الذي اعتادا سماعه كل يومٍ ويُميّزانه جيدًا، ليَقفا أمام باب الدَّارِ المنشود، وقف الكلبُ يلهثُ بينما يُداعب دَيْلُه الهواء في سعادة، ناظرًا نحو تلك السيّدة العجوز التي تقفُ قُبالتها أمام عتبة دارها، ابتسمت "أم البراء" نحوه وهي لا زالت تطرق بيدها على البابِ الحَشَبِيِّ دون هَوانٍ، استمرت في فِعْلَتِها لبعض الوقت حتى اصْطَفَّ أمام دارها عددٌ لا بأس به من الكلابِ والقَطَطِ الضالة، قَدِموا من الأَرَقَّةِ والحواري المُجاورة فور سَماعهم للطَّرْقِ غير عابئين بأمرٍ سيواه.

حينئذٍ فتحت باب دارها لئُخْرِج بعض الصُّحُون القديمة وتُفَرِّقها على الأرض، ثم عادت لتَصْطَحِبَ إناءً كبيرًا مُمتلئًا بالطَّعام، لتبدأ في توزيع ما يَحْتويه في تلك الصُّحُون، نظرت وقتها بسعادةٍ نحو تلك الأفواه الجائعة التي انْكَفَأَ كُلُّ منها يَنْهَم طعَامَه دون خوفٍ أو تشاحٍ بينها، فقد كان الكل يَنْعَم بالسَّلام في حَضَرَتِها.

كانت "أم البراء" امرأةً عجوزٍ أحنى الزمن ظهرها وسَكَن ملامحها الهادئة، كادت صدمة فُقدان زوجها منذ سنواتٍ أن تُفقدَها عقلها، لولا أن وجدت هدفًا يؤنس وُحْدَتَها الطويلة، فلطالما اعتبرت الحيوانات الصَّالة بمثابة أبنائها الذين لم تَحْظُ بهم يومًا، كانت تستيقظ من أجلها وتَحْمِلُهم قُوَّتِها، فتذهب إلى السُّوق كل يومٍ لتقوم ببيع دجاجاتها بعزيمة شابٍ يافعٍ يسعى ويَكِدُّ لإطعام أسرته.

انتظرت حتى فرغت الصُّحون وامتلأت البطون، فانحنت لالتقاطها وسط
تلاؤس الحيوانات لها من حولها في سعادةٍ وامتنان، ولكن لم يَلَيْث وأن انْقَضَّ
الجَمْع من حولها جَرَّاء نُباحٍ قوي عَلا من الحظيرة المُلاصِقة لِدَارِها، لِيَظْهَر
كلُّبُ قوي البنية من الداخل، ومن ورائه لاحت ظلالُ أخرى تَتَوَارى خَلْفَه، وقد
لم تَعُدَّ مُقاربة أحدًا من بني جنسها سوى رفيقها، إنه (جَبَلِيّ) وبصحبتة (زرقاء اللّيل).

لقد كانا الكلبان الخاصان بتلك السَّيدة العجوز، فهما آخر ما تبقى من ذكرياتٍ
جمعتها مع زوجها الراحل، فقد أتى يومًا بجروين صغيرين كان قد عَثَرَ عليهما
أثناء رحلة سفره، لِيَعْقِدَا العزم على الاحتفاظ بهما وتبنيهما كفردين من
الأسرة، وقتئذٍ قرر الزوج تسمية الجَرَّو الذَّكر باسم (جَبَلِيّ) لبأس ملامحه
المُفْغِرة، بينما قَرَّرَت هي أن تُسمي الأنثى بـ (زرقاء اللّيل)، فهو أول اسم قد
حَطر على ذهنها حين رأت عينيَّها للوهلة الأولى، وقد تلوتنا بِرُزْقَةِ اللّيل الذي
ينيره ضوء القمر السَّاطع.

دَلَقَت العجوز إلى داخل الحظيرة لِتَضَعَ الطعام في صَحْتَيْهِما، وهنا أتت
زمجرةٌ عاليةٌ من (جَبَلِيّ) لِيَنبَح نحو إحدى الدجاجات التي خرجت لِتُهِيم على
وجهها خارج الحظيرة، تحركت العجوز لتلحق بالدَّجاجة للإمساك بها، لِتُرْفِرَ
في الهواء مُبتعدة عن مُتناول يَدَيْها، فتحرَّكت نحوها سريعًا في تأفٍّ لتعاود
المُحاولة فتبوء بالفشل مجددًا، بينما بدأت الدَّجاجة في الابتعاد عنها، حتى
أتت قَبْضة أحدهم لِيحكم الإمساك بها في قوةٍ ويحملها عائداً إلى العجوز.

- "هل حاولت الهرب منك مجددًا؟".

ابتسمت "أم البراء" في ارتياحٍ لانتهاءِ معاناتها، ليتحرك "بيجاد" إلى الحظيرة ويعيد الدّجاجة إلى مَسْكِنِها، بينما رافقته وهي تُحدّثه مازحة:

- " لقد سَيِّمْتُ من تلك الدّجاجة المارقة، وكأنها تُطالب بأن يحين دورها وتُعجّل من أَجْلِها".

ضحك الشّاب بينما يمر وسط الحشد الذي بدأ في التّفرق ليعود من حيثما أتى، ليقف على عتبةِ الحظيرة مُحدّقًا النّظر نحو الكلب الذي يعترض بابَ الحظيرة ويبرِّمقه بنظراتٍ يحكمها الجمود، ليقف الشاب في حيرةٍ من أمره سائلًا إياها:

- "هل ينوي الإفساح لي أم ماذا؟".

- "لا أظن ذلك".

قالتها العجوز ضاحكة وهي تأخذ منه الدّجاجة وتدلّف من جِوار الكلب إلى الدّاخل في هدوء.

فتحرك الشّاب بضع خطواتٍ جانبًا لينظر نحوها ويَهْمُ بإكمال حديثه لولا أن قاطعته زمجره متوعدة من الكلب، ليتّسمّر في مَوْضِعِهِ بنظراتٍ مَبْنِيَّةٍ نحو (جَبَلِيّ) مُحدّثًا نفسه في هَمِّهَمَة:

- "لا أعلم سبب خَشْيَتِي من هذا الكلبِ دون غيره".

كانت "أم البراء" تفهم جيداً المقصِد من وراء مقولته تلك، فقد كان (جَبَلِيّ) هجِيئاً غريباً لا أحد يعلم شيئاً عن أصوله التي أسْقَرَت عن ملامحٍ ممتزجةٍ لِفَصَائِلِ صحراويةٍ عِدَّةٍ، تَنَجَّ عنها وجهٌ دميم، زاغ البَصَر عن إحدى عَيْنَيْهِ، يمتلك جسداً عَتِيّاً مُغَطًى بشعرٍ أَسْوَدَ كَاللَّيْلِ الحالك يُنذِر بالخَوْف لمن تقع عيناه عليه، مليءٌ بندوبٍ عديدةٍ لماضي لا يَعْلَمه أحدٌ سواه قبل أن يأتي به سيِّدُهُ وَيَخْتَصِمُهُ في كَتِفِهِ.

لَتَخْرُج بعد ذلك تَنِفِضُ الأتربة عن ملابسِها وهي تُحدِّثه:

- "لا تُعِرْ هَمَّا لـ (جَبَلِيّ)، فهو على عكس ما يَظُن الجميع من هيئته، فإنه يمتلك قلباً من دَهَبٍ، كما أن قلبي يحمل له حُبّاً جَمّاً، فإنه آخر ما ترك زوجي من أثر، كل ما في الأمر إنه لم يَعُدْ صُحْبَةَ البشر يوماً".

مَرَّت الدقائقُ لِيَتَنَهَيَ الحديثُ بينهما وتَدَلَّفَ العجوزُ إلى دارِها وبعَاوُدُ "بيجاد" التَّحَرَّكَ نحو السُّوقِ، لِيَصِلَ إليه متوغلاً بين الجموع قاصداً وجهته حتى وصل إليها، تخطى حين ذاك بعض الشُّسوة اللاتي وَقَفْنَ بجوار أحدِ الدكاكين، يَنْظُرْنَ نحوه وهُنَّ يَتَحَدَّثْنَ بصَوْتٍ مُبْهِمٍ من خلف أُحْمِرَتِهِنَّ الرقيقة، الأمر الذي أشْعَرَهُ بحرجٍ وهو يَدَلِّفُ إلى الدُّكَّانِ الذي لا يهدأ صليل الحديد به، لِيَقِفَ بجانب صاحب الدُّكَّانِ الذي كان مُنْشَغَلاً في الطَّرْقِ على إحدى الأواني دون كللٍ أو مَلَلٍ.

- "صباح الخير يا والِدِي".

لم يُعِره الرَّجُلَ اهتمامًا واستمر في عمله، فَتَحَرَّكَ "بيجاد" على استحياءٍ ليأخذ منه المِطْرَقةَ وَيُكْمِلَ العملَ بدلًا منه، فَتَنَحَّى والدُه جانبًا لِيُجْلِسَ جسده المُرْهَقَ على كرسِيَّه الخشبيَّة مُحدِّثًا إياه:

- "لقد أتيت متأخرًا كعادتك".

- "فَلتَعْفِرْ لي تَأخري اليوم، لقد زارني أحدُ أصدقائي من جيش المُستنصر⁷ لِيُزِفَ لي أمرًا جليلاً بعثَ الحُزنُ بداخلي".

تَظَرَّ إليه والده وقد استرعى الحديثُ اهتمامه... لِيُكْمِلَ ولدُه حديثه:

- "إن الأوضاع لا تُبَشِّرُ بخيرٍ على الإطلاق، فلقد تَشَبَّ العِراك منذ بضعة أيامٍ بين أطرافِ الجيشِ الفاطمي، فَقَتَلَ قَصيل الأتراك أحدَ أبناء السودان أثناء نزاعٍ احتدَّ بينهما⁸. وقد نال الخِلافُ اهتمام أفراد القصر لخطوة كل فريقٍ منهما بتأييدٍ مختلفٍ بين الملك ووالدته".

- "وفيما يُعْنِيكَ الأمر؟".

فأجابه "بيجاد" وهو مُنْصَب الهمة في الطَّرْقِ على الآنيَّة:

- "سوف تُخلف تلك الأزمة عائقًا كبيرًا أمام تَقَدُّمي للانضمام للفصيل التركي في الجيش، فسوف يَتَطَلَّب الوَضْع الكثير من الوقت لِيَهْدَأ، فالكُل منشغلٌ في أمره وكل ما يُعْنِيه شأته دون غيره الآن".

نظر إليه والدُه معاتبًا إياه:

- "لا أعلم سبب رُعْبَتِكَ في الانضمام لجيش المستنصر دون أن تحمل عن والدك عبء هذا العمل الشاق".

كاد "بيجاد" أن يُجيب والده لولا أن اعترضهما صَوْتُ أَنْثَوِي:

- "هل سيَطول انتظارنا؟".

نظر الرَّجُلُ العجوز إلى المرأة التي حَدَّثَتْهُ من أمام عتبة الدُّكَّانِ، ثم التَّفَتَ إلى "بيجاد" على الفور والذي سَارَعَ بالحديث:

- "لقد انتهيت".

ثم تحرك في عَجَالَةٍ إلى المرأة لِيُناولها الْآيَةَ مُبْتَسِمًا، فأخذتها منه في حين أطالت النظر إلى وجهه ناصع البياض لثوانٍ، فبدا حينها على "بيجاد" الحرج إثر ذلك ليرتدي رداء الصمت منتظرًا أجره، فتركت المال في يده بابتسامةٍ حَجَلٍ أَطَلَّتْ على وجهها، بعد أن أَطَلَقَتْ صديقاتها من خلفها صَحِكَاتٍ خافتة فَصَحَّتْ أَمْرَهَا، فَأَسْرَعَتْ عائدةً إِلَيْهِنَّ لَتَنْغِزَ إحداهن في كَتِفِهَا لِيَسْتَمَرَّرْنَ بِالصَّحِكِ وَيَخَافَقْنَ في الحديث عائداتٍ من حيثما أَتَيْنَ.

فعاد "بيجاد" إلى والده الذي كان يُشاهد الموقف بابتسامةٍ ساخرة ارتسمت على وجهه لِيُحَدِّثَ فَتَاهُ:

- "ألا تَتَوَى الزَّوْاجَ يا "بيجاد"؟ أخشى أن يَأْتِيَ اليوم الذي تتقدم فيه إحداهن لطلب خِطْبَتِكَ مِنِّي".

ضحك "بيجاد" على ما يُحدِّثه والده به، وأكْمَل السَّيْر نحو بعض الأواني الكبيرة التي لاحظ صدور بعض الأصوات قادمة من خلفها حينما دَلَف للدُّكان منذ قليل، ثم وقف بجوارها وهو يُحدِّثه:

- "إن أمر الرِّجّة لا يشغلني همًّا يا والدي العزيز، ففي الوقت الراهن لا يشغلني سوى أمرَيْن، أحدهما الالتحاق بفرقة الأتراك في الجيش الفاطمي، بينما الآخر هو الاهتمام بهذين المشاغِبَيْن".

ثم التفت سريعًا للوراء وانقضَّ بيديَّه على من يختبئان وراء الأواني، لِيَلْتَقِطَ طفلَيْن صغيرَيْن فيحملهما على كَتِفِهِ ويدور بهما حول نفسه، وهما يصرخان من الضحك مُكْمِلًا حديثه:

- "هل تظنان أيها المشاغبان أني لم ألحظ غيابكما؟ لا زلتما صغيرَيْن على إغفال أخيكما الأكبر".

ثم أنزلهما أرضًا بعد ذلك، فجلس أصغرهما على الأرض.. بينما حاول الثاني الوقوف مُتَزَيِّدًا من الدوار وهو يضحك.

فحدَّثه والده وهو ينظر نحوهما:

- "لقد أفسدت خطتهما في إخافتِك، وجعلتها تضيع هباءً".

جلس "بيجاد" بجوار أخويه وهو يُداعِب شعر أحدهما لِيُحدِّث والده:

- "كيف أفكر يومًا في ترك هذين الصغيرَيْن دون رعايةٍ مني؟ لربما يحين وقت زواجي حينما يَشْتَدَّ عودهما فلا أحمل لهما هَمًّا".

كان "بيجاد" عاقد العزم في قرارة نفسه منذ اليوم الذي رحلت فيه والدتهم عن الدنيا على أن يكون أخواه الصغيران هما شاغله الشاغل، فقد أتت والدته بأخيه الصغير للدنيا لثُبُلَى بحمل أخيه الأصغر على الفور، الأمر الذي لم يَسْتَطِع جسدها الواهن تَحْمُلُهُ ففَارَقَت الحياة أثناء ولادته، لتترك طفلَيْن في رقبة أبيه العجوز، وقد لم يَتَجَاوَز أكبرهما الخمسة أعوام، وبذلك لم يعرف أخواه معنى الأمومة يومًا، فكان لهما الأخ والحنان والعَوَض.

أتى صَوْتُ مجددًا من الخارج مُطالِبًا، فتحرك الصَّغير نحو الخارج في فضول، لِيُمسِكَ به "بيجاد" سريعًا ويُجلسه في حِجْر والده وهو يتنسم قائلاً:

- "لم يَحِنْ أوانك بعد لاستلام العمل بدلًا مِنِّي".

ثم تحرك إلى الخارج مُلِيًّا نداء الغريب..

- "مرحبًا ببيجاد".

أومأ "بيجاد" برأسه مُرَحَّبًا بِالرَّجُل من أمامه:

- "صباح الخير يا قُصِيٍّ، كيف أَسْتَطِيع خدمتك؟".

- "لقد جئت من أجل استلام حَذْوَةِ بغلة سيدي الناصري، هل جُهِزَتْ بعد؟".

تحرك "بيجاد" لداخل الدُّكَّانَ لِيَعْبَثَ ببعض الأغراض، ثم ما لَيْثَ وأن عاد بمَطلبه، فأعطاه "قُصَيِّ" أَجْرَهُ مُوَدَّعًا إِيَّاهُ، لِيُسْرِعَ الحُطَى عَائِدًا لِسَيِّدِهِ الذي كان يقف على مَبْعَدَةٍ منه عند أحد القَصَّايين⁹. وأثناء سَيْرِهِ صَاحَبَهُ من ورائه بخطواتٍ قليلة بضعة أطفالٍ مُشاغِبون يَتَلَمَّزون وَيَتَغَامَزون فلم يُعْزِهِم اهتمامًا، حتى تردد على مسامِعه ما قد اعتاد سماعه ولكنه لم يَعْتَدُ تقبله يومًا، فقد أتى صَوْتُ أحد الأطفال من وسط ضحكاتِ أصدقائه لِيَصِيحَ بصَوْتٍ عالٍ:

- "قُصَيِّ.. العبد الخَصِيّ".

استدار "قُصَيِّ" للخلفِ صائحًا بهم في عَصَبٍ.. فلاذوا بالفرار سريعًا ضاحكين حتى اختفوا وسط الحشود السائرة، فالتفت عائداً، لِيُواصل طريقه حينها بِصَدْرٍ يملأه الحَقَق.

"قُصَيِّ، العبد الخَصِيّ".. إنه الوَصْف الذي اعتادَ سماعه من بين تهاجمات النَّاس في الخفاء من حوله، فقد كان مالِكُهُ "الناصرى" لا يتوانى عن الحديث أمام كل من يعرفه منذ يوم شرائه بأنه عبدٌ خَصِيّ، بَدَل الكثير من الأموال من أجل الحصول عليه للتباهي بامتلاكه لأحد العبيد الخَصِيَّان¹⁰. شَرَدَ ذهنه فيما حَدَثَ لَتَوهُ عابراً المارة حتى وقف بجوار العبد الآخر الذي يُدعى "يوساب"، والذي كان يقف مُمسكاً ببغلة سيِّدهما.

لقد كان كلاهما زميلَيْن في العبودية تحت إمرة "الناصرى"¹¹. وإن كان القدر قد أَحَسَّنَ إلى "يوساب" عن رفيقه، ذلك العبدُ الحَبَشى مَفْتول العضلات الذي اشتراه مالِكُهُما ليرعى ويحرس شأته وأملاكه، بينما كان من نصيب "قُصَيِّ" المعاناة والشقاء كخادمٍ لِأَمْرِ مالِكِهِ وأُسْرَتِهِ.

- "لقد انتهى الحَدَّاد من عمله".

قالها "قُصِيّ" إلى رفيقه وهو يُعطي الحَدَّوَة له، فأخذها الأخير ليَصْعَها في سِرَج البَغْلَة لِيَقِفَ يَنْظُرَ نحو سَيِّدِهِ مُنْتَظِرًا إِيَّاهُ، فَتَظَرَّ "قُصِيّ" هو الآخر نحو مالِكهما "الناصري" الذي كان يقف على مَقْرِبَةٍ مِنْهُمَا يَتَشَاحَنُ في الحديثِ مع القَصَّابِ.

- "علامَ كل هذا الانتظار؟".

فأجابه "يوساب" في هدوء:

- " يبدو أن القَصَّاب غير راضٍ عن بَيْعَةِ اليوم".

ثم صَمَتَ الاثنان في محاولةٍ لاستِرْقاقي سَمْعَ الجِدال الذي علا صَدَاهُ بين مالِكهما والقَصَّابِ، فقد كان "الناصري" قد قرر رَفْعَ سِعْرِ الماشية التي يبيعها للقَصَّابِ عن السعر المُتَّفَقِ عليه في الأيام المُنْصَرِمة، كان "الناصري" يعلم بأمر ازدياد الأسعار فيما هو مُقْبِل، فقد وَصَلَتْهُ الأَخْبَارُ المُتَنَاقِضة بين أَلْسِنَةِ سَكَّانِ (القاهرة) عن المشاكل والتَّشَاخُضات التي حَلَّتْ بالقصر والذي أَوْشَكَ أن يقع صداها على العامة في الأيام القادمة، فانتَهز فرصة كَوْنِهِ تاجر البهائم الوحيد في نِطاق مَعِيشَتِهِ لِيُحْكِمَ قَبْضَتَهُ على رِقَابِ القَصَّابِينَ في تلك المُجَاوِرَة.

استمر الجِدالُ بينهما حتى أُسْفِرَ عن انصِياع القَصَّابِ لأمر "الناصري"، الذي تحرَّك مُبْتَعِدًا وهو يضع سُرَرَ الدنانير في عِباءَتِهِ بينما تَعْتَلِي وجهه نشوة الظَّفَرِ

بحصوله على مبتغاه، تاركًا من خلفه القَصَابَ يَرمِقه شزْرًا بينما يَسُب ويَلْعَن إياه مُهَمِّمًا.

تحرك "قُصِي" سريعًا لكي يُهيئ من أمر السَّرَجِ لِيَعْتَلِيه سَيِّدُهُ ويعاودوا التَّرحال، كانت الأموال تهتز في عباءة سَيِّدِهِمَا طيلة الطَّرِيق ومعها تهتز الأفكار في رأسه، فكان "الناصرى" عاقِد العَزْم على توسيع تجارته وإحكام قبضته على تجارة (الفسطاط) بأكملها، ربما ليس اليوم أو غدًا ولكنه سوف يكون عن قريب.

أُسْفَرَت تلك الأفكار عن ابتسامة زهوّ وتعالٍ على وجهه طوال الوقت، ولم يُعَكِّرْ صَفْوُ تلك الأفكار سوى اقتراحه من أحد الأَزَقَّة المؤدية إلى داره القايح في قلب الرُّقَاق الذي لا يُطِيق المُكوث فيه أكثر من ذلك.

إنه رُقَاق (أنترجة الشاهد) ¹².. ذلك الرُّقَاق العتيق الذي تتراصف به الديار وتتجاوَر معها أحوالها وشؤون سُكَّانها، يَسْكُنُه العامة الذين يَدُسُّون أُنْفَهُم فيما لا يُعْنِيهِم شأنًا، فقد وَرَثَ عن أبيه في هذا الرُّقَاق تلك الدَّار بحظيرة الماشية التي تكاد تفوق داره حجمًا، لقد طال الانتظار فيما يُريد، ولكنه قد قارب على الوصول إلى مُبتغاه وشِراء دار في (القاهرة) بعيدًا عن حُشود الطبقة المتوسطة التي تنتمي إليها عائلته، لقد أوشك على جَمْع ما يَكْفِي من المال من أجل القيام بذلك، وقد صار الوقت الذي سَيَتِمُكن فيه من العَيْشِ كالأعيان ومُعَادَرَة ذلك المكان الذي يَدْفِن أطماحه وشيئًا.

توقفت البَغْلَة بغتَةً عن السَّيْرِ إثر مرور رَجُلٍ من أمامها، كان الرَّجُل يرتدي عباءة تُغطي جسده وتَعْمُرُ رأسه، ولا تكشف من ملامحه سوى أنفٍ مدببٍ

سَكَنَ فوق شَفْتَيْهِ اللَّتَيْنِ غمرهما الشيب، وَيَنسُدُّ شَعْرُ فَضِيٍّ طَوِيلٌ من جانبي عِباءة رَأْسِهِ، يَسِيرُ الحُطَى شَاخِصَ النَّظَرِ إِلَى الأسفل لِيَعْبُرَ قَاطِعًا طريقه دون أن يَعْبَأَ بِأَلَّا لأحد، الأمر الذي جعل "الناصري" يُوشِكُ على الوقوع من فوق بَغْلِيهِ إِثْرَ وقوفها المفاجئ.. فَتَنَشَّبَتْ بالسَّزَجِ سَريعًا حتَّى لا يَقَعَ في فِعْلَةٍ أَفقدته تلك الهَيْبَةُ التي تملأ نفسه، فنظر إلى الرَّجُل الذي استمر في تَحَرُّكِهِ دون أن يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ لِيَصِيحَ غَضَبًا:

- "اللَعْنَةُ عَلَيْكَ أَيُّهَا العجوز النكِد".

توقف الرَّجُل بعد سماعِهِ لحديثِ "الناصري"، الذي أَفاض في السُّباب مُكْمِلًا:

- "فوالله لولا خوفي من تَعَثُّرِ البَغْلَةِ لأمرتها باعْتِلَاءِ جَسَدِكَ وإزهاق روحِكَ البَحْسَةِ".

حينها التَقَّتِ الرَّجُلُ إِلَى "الناصري" وقد استند براحَةٍ يَدِهِ إِلَى خَنْجَرِهِ المُعَمَّدِ في جانِبِهِ، لِيُزِيحَ القليل من عِباءة رَأْسِهِ رافعًا هامَتَهُ نحو الرَّجُلِ، وهو يبتسم في صَمْتٍ معتبرًا ذلك التهديد بمثابةِ دعوةٍ يُرَحِّبُ بِهَا دَوْمًا، ترددت يَدُ العبدِ "يوساب" المُمسكة بِمِقْبَضِ السِّيفِ من جانِبِهِ، لِيُدرِكَ هو و"الناصري" ما قد تَوَرَّطَ بِهِ جَرَّاءُ لسانِ سَيِّدِهِ فور رؤيتهما لوجهِ الرَّجُلِ، فقد أدرك حينئِذٍ شَأْنُ من يتحدثون إِلَيْهِ.

ثوانٍ من الصَّمْتِ قد مَضَتْ، حتَّى تَحَدَّثَ "الناصري" إِلَى عَبْدِيهِ مُحَاوَلًا إخفاءَ تَوَثُّرِهِ الجَلِيِّ:

- "هيا أيها الحمقوان، فأنا لا أملك الوقت الكافي لهذا الهراء، فلدي تجارة أعتني بها وأفواه لأطعمها".

تحرك الرجل بينما يَلْكُز البَغْلَةَ لِيَسْتَمِر في التَّحْرُكِ وَيُعَجِّل من أمره، ومن خلفه تحرَّك العبدان في انصياعٍ لأوامره، مبتعدين عن الرجل الذي أعاد من تمَوُّع عباءة رأسه ليُكْمَل هو الآخر سَيْرَه، ليتحرك الأخير من خلال الأَرْقَّة والحواري حتى وصل إلى المكان الذي يُنْشِده.. دار (ابن مرزبان المُقامر) ¹³.

كان يَعُم المكان قهقهة السَّكَّارِ الْمُعَيَّين، تجلس النساء فوق حُجُورهم تتمايلن في أنوثَةٍ وَغَوَايَةٍ بينما تملأن المكان بصَحِكَاتِهِنَّ الرَّقِيعَةِ، في حين يَتَجَرَّع الرجال الحَمْرَ الْمُتَقَطَّرَ من رِقَائِهِنَّ، وَيَنْزَوِي أحد الرجال بإحداهن في شهوةٍ منه، بينما يَتَسَامَر الآخر مع أخرى للظَّفَر بقلبيها، دون علمٍ منه أنها كباقي عاهرات المكان تسعى للظَّفَر فقط بأمواله، مع وعودٍ منه بالعودة وبذل المزيد من أجلها، لِيَعْلُو المكان فوق كل ذلك صَوْتُ المقامرين في نشوةٍ رَائِفَةٍ منهم.

ومن وسط ضجيج السَّكَّارِ وَالْمُتَخَلِّياتِ عن عُذْرَيْتِهِنَّ، تحرك الرجل الأَسْبَب إلى مكانه المُعْتَاد في أحدِ أركان الحانة، لِيَجْلِس على مِنْضَدَةٍ تَبْعُد عن رفيقاتها، وما أن أتى الخمر إليه وقرر أن يُذْهِب عقله، حتى أتى ما يُعَكِّر صَفْوَ ذهنه، فقد تَنَامَى إلى مَسَامِعِهِ حَدِيثٌ جِدِّي بين رجلَيْن يبدوان أنهما لا يَنْتَمِيَان إلى المكان، لم يَأْلِفْهُمَا من قبل من بين الوجوه التي اعتاد رؤيتها هنا، فَعَلَا نقاشهما القَلِقَ لِيَسْمَعَ لَعْوُهُمَا على الرغم منه.

كان أحدهما قد أتى من (القاهرة) منذ بضعة أيام، وأخذ يتحدث مع صديقه وقد أصابه الارتباك لما يجري في شؤون البلاد.

- "لا أعلم.. فالأوضاع لا تُبشر بخيرٍ على الإطلاق، فتلك المرأة لا تدع أحدٌ يمكث في الحكم إلا لأيامٍ قليلةٍ لتُطيح به بعد ذلك ¹⁴".

فأجابه رفيقه الآخر بينما يتجرع الخمر من كأسه:

- "الجميع يعرف أن والدة المستنصر هي من تتولى شؤون البلاد وتتحكم في مقاليد كل شيء، وتُسيّر الأمور على أهوائها الشخصية، لعن الله تلك الجارية النوبية".

- "أيها الغبيان، أنتما تُؤرّقان المسامع بالحديث عن السياسة في مكانٍ ليس به شأنًا سوى الخمر والنساء".

التفت الاثنان إلى صوت الرجل الأشيب والذي صاحبه ارتطام كرسي قد أطاحه بقدميه نحوهما، ليصطدم بالكرسي الآخر الذي يجلس عليه الرجل القلق، فنهض رفيقه على الفور في حفيظةٍ منه لما حدث للتو، حينها أتت إحدى العاهرات على الفور من جوارهم لتضع يدها على كتفه مُحاولَةً دفع السكر عن نبرة حديثها قائلة:

- "العراك المسموح به هنا هو العراك على قلب إحدى الحسنات فقط".

ثم تمايلت على كتفه حتى أجلسته مرةً أخرى، بينما لا زال ينظر إلى الرجل صاحب عباءة الرأس بنظراتٍ مُتوعدة، لتحرك الفتاة نحو صاحب العباءة

تُجاهد للاتزان في خُطَاها حتى وصلت إليه، لتترك جسدها يتهاوى نحو صَدْرِهِ في أنوثَةٍ تَحَلَّى عنها الحياءُ منذ زمنٍ بعيد، ثم نظرت إليه وقد أُمالت رأسها على كَتِفِهِ لتنظر إلى وجهه وتبتسم، فأنت حينئذٍ بِفَعْلَةٍ لم تكن في الحُساب.

لقد أذهب الحَمْرُ عَقْلَهَا وَحَبَا وضوح قراراتها وأفعالها، فإذ بها تبتسم في مُشاكسةٍ منها لترفع عباءة رأس الرَّجُل على بَغْتَةٍ منه.

دفع الرَّجُل بالمرأة السِّكِّيرَة لتسقط أرضًا بينما أخذت تُقَهِّقُه ضاحكة على ما حدث، ليعاود من تمَوُّضِ العباءة فوق رأسه في عُجالة، لحظاتٍ قليلةٍ قد مَرَّت وهو عاري الرأس، لحظاتٍ كانت كافية لِيَتَبَيَّنَ الرَّجُل الآخر ملامحه، بينما كان لا زال شاخِص البصر نحوه في غضبٍ طيلة الوقت مُتابعًا إياه.

حينئذٍ قام رفيقُ الرَّجُل بينما يضحك ساخِرًا، لينظر إلى صديقه ويُمازحه:

- "هل رأيت وجهه؟!".

ثم اقترب نحو الرَّجُل الأشيب وهو يُكْمِل:

- "وأنا الذي كنت أخشى صَرْب من يُتَاهَز والدي سنًا، ولو كان به...".

أنت لكمة قوية من الأشيب صاحبت نهوضه المفاجئ لتسكن أسفل فك الرَّجُل وتُطيح بقدميه في الهواء ليسقط أرضًا ويمسك بِفَكِّهِ مُتململاً.

عَمَّ الصَّمْتُ للحظاتٍ على المكان، وحينها سارع صديقُه للعون، ولكن قبل أن يتمكن من توجيه صَرْبَتِهِ للأشيب كان من نصيبه رَكْلَةٌ صَدَمَت مُنْقَرِجَه؛ لِيُخِر

ساجِدًا وقد صُج احمرارًا وانتفضت عروقُ وجهه، بينما يُنازع آلامًا مُبرحة
أفقدته القدرة على التُّطق أو حتى التأوُّه من شدَّة الألم.

ترك الأَشْيَب الرَّجُل الأخير، ثم عاد لِيَلْتَفِت إلى صديقِه المطروح أرضًا لِيَجْثُو
فوقه، وقد بدأ يُكَيِّل اللكمات لوجهه.. الواحدة تلو الأُخرى، منها ما أصابت
أسنانه فأنزفتها لِتُقَارِق بعضها البَقِيَّة وهو يجاهد لابتلاع لُعابه الدامي، وأُخرى
أصابت إحدى عَيْنَيْهِ فأورمتها ولم يَعِد يرى من أمامِه سوى خيالٍ من يعتليه،
ومنها ما أصابت أنفه فكسرتها دون أن يُدرك للألم الجديد من مَوْضِع، لكماتٍ
عِدَّة انهالت على وجه الرَّجُل بنهجٍ ثابتٍ وغضبٍ عارِم، جعلت الجَمْع المُلْتَف
حولهما لا يتجرؤون على إغاثة الرَّجُل ممن يَفْتَك به، فلم يتجرأ أحدٌ وقتها على
مقاطعة الأَشْيَب حتى لا ينوله جَزاءً هو الآخر.

كان صَوْتُ اللكمات المُوجهة لرأسِ الرَّجُل كصَوْتِ الرَّطْمِ الغاشِم، والآن بات
صَوْتُ اللكماتِ رَطْبًا، يَنزاح بعضها لِإِلاقِي الأرضِ إثر ملامسته للدماء اللزجة
التي عَطَّت وجه الرَّجُل كليًا، وبات على مقربةٍ من مُفارقة الحياة.

حينها قام الأَشْيَب بينما تتلاحق أنفاسه دون انتظام، لِيَتَحَرَّك إلى صُحْبَةِ القمار
ويُلْقِي بماله مُمسكًا بِقَصَّيِّ النرد ¹⁵ أملًا في أن يتحسن هذا اليوم ولا يُشابه ما
سبقوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضة

هوى طرقٍ شديدٌ على الباب، أيقظ صاحِبَه في قَرَعٍ من تَوَمُّها، لتَهْرَع إليه
وترى من الطَّارِق.

- "لقد جاءت البشارة".

ابتسمت المرأة للرجل المائل من أمامها، ثم هرولت مُسرعة لتأتي بأغراضها،
وتهم بالمغادرة لئلا يجبه في الطريق.

قَطَعَا الطريق وسط الديار النائمة في ليلٍ مُتأخِر حتى وَصَلَا لدار الرجل.

كان أنين ألم زوجته يلوح لمسامعهما فور اقترايهما من الباب، فسارع الرجل
للدُلوْف ومن ورائه أتت المرأة لتفترش أغراضها أرضًا وتُسرع في عمَلها.

جلس الرجل بجوار زوجته التي نظرت له بابتسامةٍ يشوبها الألم وهي تَجُرُّ
على شفيتها، قابضةً على يده بقوةٍ من قَرط مُعاناتها لألم الطَّلَق الذي يكاد
أن يُقسم ظهرها.

وقتٌ طويلٌ قد مَرَّ على تلك الدَّارِ بعد ذلك.. غَلا به صَوْتُ آلام ولادة تُطَقِّعُهما
الأولى، ليخبو رويدًا رويدًا صَوْتُ الألم، ويعلو عليه صَوْتُ بكاء مولودهما
المنتظر.

قَبْلَ الرجل جبين زوجته المُتصبب عَرَقًا، بينما أغمضت عينيها في استقبال
لحظات سكونٍ تآقت لها، ثم تهض لينظر إلى القابلةِ الجالسة عند مُنْفَرَجِ
زوجته في لهفةٍ منه لمعرفة جنس المولود، فإذا به يرى وجهها وقد اعتلته تَكْبَةٌ
جعلتها تَعَجَّرُ عن الحديث والمُباركة.

كانت القابلة تُمسك بطفلٍ صغيرٍ، يكسو الشَّيْبُ شعر رأسيه الكثيف، يتحرك
على هوانٍ بين يديها بينما يزال جِلده الرَّطِب يُضفي عليه التَّجاعيد، فبدا من

أمامها كشيخٍ عجوزٍ وُلِدَ لِتَوَه من رحم أمه.

أمسكت القابلة بالطِّفْل وناولته إلى والديه بترٍ، ثم سارعت في ترتيب أغراضها لثَّبارح المكان في عِجَالٍ دون أن تَنبِس بكلمة، وقد انقبض قلبها هَلَعًا مما رآته.

احتضن الرَّجُل وليدَه في حنانٍ دون أن يبالي بما وُلِدَ عليه، كان بُكاء ابنه غير المنقطع بمثابة لحنٍ يُشَشِّفُ أذنيه، فها هو يَحْتَضن بين يَدَيْه طفلاً اشتاق طويلاً لرؤياه.

التَّفت جانبًا لِيُناول صغيرَهما إلى زوجته طريحة الفراش، فإذا بها تُمسكه والحُزن والهمُّ يَعْتريانها، فقد أدركت ما سوف يُعانيه صغيرُها في كل ما هو قادم من حياتِه... لِتُحَدِّث زوجها مهمومةً في أمرِها:

- "لقد رزقنا الله بطفلٍ مُبْتَلًى.. فليُعينه الله على ما هو عليه".

جلسَ الرَّجُل مرةً أخرى بِجوار زوجته ليَحْنو عليها قائلاً:

- "فلندعو الله أن يُعيننا على تربيته تربيةً حسنة، وكل شاغلٍ آخر سوف يزول".

فأتت أول ابتسامه لزوجته نحو وليدها وهي تسأله:

- "إِذَا ما الاسم الذي سيناله في الدنيا؟".

تَمَهَّلَ الزَّوْجُ فِي الْحَدِيثِ لَثْوَانٍ بَيْنَمَا يُدَاعِبُ الشَّعْرَ الشَّائِبَ فِي رَأْسِ طِفْلِهِ،
لِيُجِيبَهَا بَعْدَ ذَلِكَ:

- "سَوْفَ يَنَالُهُ مِنَ الصَّبَا مَا يَكْفِيهِ طِيلَةُ عُمُرِهِ.. سَوْفَ اسْمِيهِ غَرِيرٌ" ¹⁶.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

وَلْتَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

وَلَّتْ الشُّهُورُ لُتِّتْ حَقِيقَةُ الشَّائِعَاتِ الَّتِي تَرَدَّدَتْ سَابِقًا فِي الْبِلَادِ وَتُنْذِرُ بِمَا هُوَ قَادِمٌ مِنْ قَفَرٍ، فَأُضْحَتْ لُقْمَةُ الْعَيْشِ صَعْبَةُ الْمَنَالِ، وَبَدَأَ الْحَالُ يَزْدَادُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ، فَبَاتَتِ الْأَيَّامُ ثِقَالًا عَلَى الْأَنْفُسِ، وَلَعَلَّ أَحْفَ الْأَيَّامِ ضِيقًا عَلَى الْعِبَادِ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ كُلِّ أَسْبُوعٍ شَقِيًّا يَمُرُّ عَلَيْهِمْ.

كَانَتْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ تُرِيحُ الْقَلْبَ وَتُزِيلُ مِنَ النَّفْسِ كُلَّ ضِيقٍ، فَيَسْعُدُ بِهَا كُلُّ مَهْمُومٍ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَسْعَدُ مِنْ "بِجَادٍ" بِذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ هَمًّا، فَمَعَ مَرُورُ الْأَشْهُرِ تَدْهُورَتِ الْأَحْوَالُ أَكْثَرَ وَبَاتَ الرِّزْقُ شُحًّا فِي الْبِلَادِ، تَحَرَّكَ "بِجَادٌ" بَاكِرًا عَنْ مَوْعِدِ الصَّلَاةِ إِلَى مَسْجِدِ (ابْنِ عَمْرُس) ¹⁷ الْمُلَاصِقِ لِرِزْقَاكٍ (أَتْرُجَةُ)، كَانَ يَنْوِي زِيَارَةَ صَدِيقِهِ الشَّيْخِ "صَالِحٍ"، أَحَدُ شُيُوخِ الْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ وَالْقَائِمِ عَلَى الْمَسْجِدِ، ذَلِكَ الْمَذْهَبُ الَّذِي تَرَكَ أَثْرِيَاءَ الْفَاطِمِيِّينَ لِلطَّبَقَةِ الْفَقِيرَةِ لِيَرْتَاعُوا هُمْ فِي مَسَاجِدِ الشَّيْعَةِ ¹⁸.

أَزَاحَ "بِجَادٌ" تَعْلِيَهُ عَنْ رَاحَةِ قَدَمَيْهِ لِيَتْرَكَهُمَا بِالْخَارِجِ وَيَذِلَّ إِلَى الْمَسْجِدِ الَّذِي لَمْ يَتَوَافَدَ عَلَيْهِ الْمَصْلُوكُونَ بَعْدَ، ذَهَبَ لِيَقْتَرِبَ وَيَجْلِسَ بِجَوَارِ الشَّيْخِ الَّذِي كَانَ مُنْكَفِفًا عَلَى قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ عَذْبٍ، مَرَّتْ دَقَائِقُ لَيْسَتْ بِالكَثِيرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُغْلِقَ الْمَصْحَفَ وَيَضَعَهُ جَانِبًا وَيَعْتَدِلَ فِي جَلْسَتِهِ نَاطِرًا إِلَى "بِجَادٍ" وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ رُؤْيَاهُ، فَبَادَرَهُ "بِجَادٌ" بِالْحَدِيثِ:

- "كيف حالك يا شيخي الفاضل؟".

- "نحمدُ الله على ما نحن فيه يا بُنَيَّ".

فأطبق "بيجاد" قَمَه عن الحديث بعد ذلك للحظات، قبل أن يسأله الشَّيْخ:

- "لم هذا التَّجَهُّم في يومٍ مُباركٍ كهذا؟".

لُجِبِه "بيجاد":

- "أَقَلَمَ يصبح هذا شأن الجميع؟".

ثم عاد لِيَسْتَطِرِد الحديث بوجهٍ يَعلوه القلق:

- "فمنذ أن تَمَرَّد الجنود السودانيون ومرجوا إلى صعيد مصر، وأهلكوا الأرض ومحاصيلها وهدموا قنوات الري، نِكَايَةً في المستنصر والأتراك الذين يُعاونونه في حُكْمِه ¹⁹. بارت الأراضي وهَلَك الحرث ومعها نَدَّرَت التَّجَارَة وشُحَّت الأقوات، وبات عَصِيًّا على المرء أن يأمن الغد وما يليه".

فحدثه الشَّيْخ مُطمئنًا إياه:

- "أَعْلَمُ أن الغلاء والبلاء قد طالا الجميع، وليُعِيننا الله على ما نحن مُقدمون عليه".

ثم أمسك بالمصحف من جواره وهو يُطِيل النَّظْرَ إليه مُكْمِلًا:

- "ولهذا ففي كتابِ الله العزيز الصبر والسُّلوان، قَالَجَا إِلِيهِ دَائِمًا، فَصَلَّاهُ القلب والعقل تَكْمُنُ فِي كَلِمَاتِهِ".

مَضَى وَقْتُ لَيْسَ بِقَلِيلٍ مِنْ حَدِيثِهِمَا مَعًا حَتَّى حَانَ وَقْتُ الظَّهْرِ، فَقَامَ "بِيْجَاد" مِنْ مَجْلِسِهِ لِيَتَحَرَّكَ نَحْوَ بَابِ الْمُنْذَنَةِ لِيَصْعَدَ السَّلَامَ الْمُؤَدِيَةَ لِلْأَعْلَى، لِيَسْرَحَ بِنَظَرِهِ مِنْ فَوْقِ الْمُنْذَنَةِ لَثَوَانٍ حَوْلَ الْأَرْقَةِ وَالْحَوَارِي الْمَجَاوِرَةِ، وَيَمْلَأَ رِئْتِيهِ بِالْهَوَاءِ لِيَصْدَحَ مِنْ فَوْقِ الْمُنْذَنَةِ بِالْأَذَانِ، بِإِذْلِ الْعِزْمِ فِي أَنْ يَصِلَ صَوْتُهُ إِلَى كُلِّ رَاغِبٍ وَبَاغٍ رِضًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

ثُمَّ عَادَ أَدْرَاجَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَجْلِسَ فِي الصَّفُوفِ الْأُولَى وَأُمْسَكَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَخَذَ يُطَالِعُهُ فِي صَمْتٍ مِنْهُ، وَمَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ بِالْمُصَلِّينَ لِيَصْعَدَ الشَّيْخُ وَيَبْدَأَ فِي خُطْبَتِهِ، حَائِثًا عِبَادَ اللَّهِ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَالِدَعْوَةِ بِأَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ مِنْ انْتِهَاءِ مَا أَصَابَ الْبِلَادَ.

انْتَهَتْ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ وَتَحَرَّكَ الْمُصَلُّونَ لِلخَارِجِ.. لِتَزْدَحِمَ عَتَبَةُ الْمَسْجِدِ بِهِمْ وَبِنَعَالِهِمْ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ كَانَ "بِيْجَاد" الَّذِي وَقَفَ مُسْتَنِدًّا عَلَى الْجِدَارِ الْحَجَرِيِّ لِلْمَسْجِدِ، لِيُجَاوِرَهُ شَخْصٌ آتٍ مِنَ الدَّخْلِ لَمْ تُبَارِحْ مَلَامَحَتُهُ عِلَامَاتِ النَّجْمِ وَالْحُزْنِ، فَالْتَقَتْ إِلَيْهِ "بِيْجَاد" مُبْتَسِمًا مُحَدِّثًا إِيَّاهُ:

- "جُمُعَةٌ مُبَارَكَةٌ عَلَيْكَ يَا عَبْدَ الرَّازِقِ".

بَدَأَ عَلَى الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَبِهْ لِحَدِيثِ "بِيْجَاد" إِلَيْهِ، فَبَدَأَ فِي ارْتِدَاءِ تَغْلِيهِ ثُمَّ تَحَرَّكَ لِلخَارِجِ مَعَ بَقِيَّةِ الْعِبَادِ.

كان "عبد الرازق" شارد الذَّهْن فيما هو مُبتلى به، تمنى لو كان سماع الخطبة قد أحدث أي أثرٍ أو صدئ في نفسه، فانشغال البال لا يُبارحه، وكيف يَهناً له بال، وهنالك تلك الرِّقاب الأخرى التي تتعلق في رقبتَه، رِقَاب أُسْرته التي بات عاجزاً عن تلبية أبسط مُتطلبات العيش لهم، تحرك في هَوَانٍ إلى الشُّوق أملاً في أن يُبدل الله الحال ويُسعفه حظه في العثور على قوتِ اليوم، تذكر مُحاولاته الفاشلة في الأيام السَّابقة، لقد أُمست حِيلَه وفِطنته لا جَدوى منهما أمام سُح الزمان، فباتت الأنفس عَكِرة لا تقبل الرِّياء أو الاستعطاف، وصارت الأموال لا تهون على مالكيها، فالجميع يحمل هم الغد جرّاء ذلك الغلاء الذي تفشى بالبلاذ.

أمضى وقتاً طويلاً في الشُّوق مُتجولاً بين الباعة، مُتفحصاً الرؤوس التي يُحلق فوقها الهَمّ والضيق، فالباعة يعرضون بضائعهم القديمة التي لا يملكون سواها بأسعارٍ باهظة على من يبتغيها، نظر إلى جواره نحو أحد دكاكين الخُضروات والفاكهة، ذلك الدُّكان الذي اعتاد رؤية بضائعه النَّضرة تستوي على طاوولاته، تصطف بعناية بمُختلف أنواعها، ولكن تَبَدَّل الحال ليحل محلها ثماراً وفاكهة ذابلة تتراكم فوق بعضها ككُمٍّ مُهْمَل، بينما أَعْلَقت بعض الحوانيت الأخرى أبوابها بعد أن قَسَل أصحابها في الحصول على السِّلَع لبيعها من الأساس.

فأكمل سَيْرَه في محاولةٍ منه لتَدبُّر أمره، ولكن باء مَسْعاَه بالفشل حينئذٍ في مُحاولَة الانضمام لحمالين البضائع من أحد الشُّفن الراسية في الميناء، حتى أن الباعة المُريدين كانوا يحملون بضائعهم بأنفسهم توفيراً للمال، وسط حراسة مُشَدَّدة من أصحاب الشُّفن خوفاً من السرقة التي أصبحت أمراً معهوداً يألفه الجميع.

تحرك "عبد الرازق" بجوار أحد البائعين وخادِمه، بينما يحملان البضائع اللازمة لدُكانِه عارِضًا المساعدة مُقابل أي ما يَجُود به الرَّجُل، فما كان من نصيبه سوى النهر والسُّباب، لِيَعُود هائِمًا على وجهه في السُّوق مرَّةً أُخرى، ولكن ابتسم الحظُّ للمرَّةِ الأولى منذ وقتٍ طويلٍ وهو يمر عابِرًا بجوار إحدى طاوِلات بائعي السَّمَك، وحينئذٍ تحرك أحدُ الصُّبية وراء صديقه في مُطاردةٍ لهُو، لِيَصْطدم صديقه بإحدى الطاوِلات وَيَطْرُح ما تحتويه أرضًا، فَتَحرك البائع من مَجْلِسِه في عُجالةٍ من أمرِه وهو يَسُب الفتى المُسرِع خلف صديقه.

لِيَبْدأ الرَّجُل في الانحناء والتقاطها قبل أن تَنسَئِلها يدُ أحدِ السارقين، وهنا سارع "عبد الرازق" في مُساعدة الرَّجُل في إعادة الأسماك إلى مَوْضِعِها.. كان البائع يَرْمق "عبد الرازق" المُنشغل فيما يفعلُه بنظراتٍ مُتشككة خِشية أن يسرق شيئًا مما يَلْمَلِمْه من الأرض، لَتَنْتصب قامة "عبد الرازق" بعد انتهائه من عمله، وهو لا يزال مُمسكًا بآخر سمكة التقطها دون أن يَضْعها فوق الطاولة، نظر البائع إلى السمكة التي كان لَحْمُها يَنازع العفونة، والتي يُمسكُ بها "عبد الرازق" في يَدِه، فَقَطِن إلى ما يرمي إليه، فكانت نظرات "عبد الرازق" المُستعطِفة إياه كافيةً بأن يفهم مَقْصِدَه.

تحرك الرَّجُل عائدًا لِيَجْلِس بجوار بضاعته دون أن يتحدث إليه أو يطالبه بإعادتها، وكأنها بمثابة موافقته على ما يَسْتَرِجِه منه، وهنا كانت سعادة "عبد الرازق" لا تُوصَف بما قد امتلكه للتو، فذهب لِيَنكَفئ نحو النهر في مُحاولَةٍ منه لإذهاب تلك الرائحة النَّقَّادَة التي لا تُبَارِح لَحْم السَّمكة العَفِن، ولكن أتى مَسْعاه دون جَدْوَى، فعاوَد الترحال قاصِدًا دارَه بنفسٍ خائبةٍ الرجاء، وأثناء عودته ومروره من أحد الأَرِقة اعتراه همٌّ أثقل ذِهْنه، فقد تبددت عَزيمَتُه في

العودة بذلك الطعام إلى أسرته، كان يخشى أن تسكن العلة جسد زوجته وولده إن تناولوا ذلك اللحم العفن.

فتراخت يده في حزنٍ لِيترك الطعام الفاسد يقع أرضًا ويكمل مسيرته، ولكن أتاه بعد عِدَّة خطوات من مسيرته صَوْتُ مُواءٍ لإحدى القِطَط الصَّالة التي انْقَصَّت على السَّمكة في تَهَمٍ، وأخذت تنهش في لَحْمِها، فأَتَتْ رؤيته للقطعة بخاطرةٍ ما، فتحرك سريعًا عائِدًا إلى رُقاق (أثرجة) قاصدًا وجهه دار السيدة العجوز.

بطرقاتٍ مُهَذَّبَةٍ أصابت باب دارها، خرجت العجوز لتتقدم بخطواتٍ للأمام وتنظر نحو قاصدها، فبادرها "عبد الرازق" بالحديث سريعًا:

- "إني أبتغي مُساعدتك في بَيْع الدَّجاج في السُّوق اليوم".

نظرت إليه دون أن تفهم سببًا لمطلبه، فقد حدث منذ حين أن تقدم بذلك الطَّلَب وقابلته بالرَّفْض، فحدثته بعد ذلك مُجيبة:

- "أنت تعلم أنني أقصد السُّوق بمفردي دون مُساعدة، كما أنني لا أحتمل نفقة مُساعدة أحدٍ لي في تلك الأيام الغابرة".

ثم عادت للوراء قليلًا لتجذب بابها وهي تنتوي إغلاقه في وجهه.

- "إن زوجتي تحمل في أحشائها طفلًا قارم".

توقفت السيدة عن إكمال علق الباب بعدما ألقى الرجل بكلماته على مسامعها، ليكمل حديثه:

- "لقد أتنا البشرى منذ بضعة أيام، وها أنا غير قادر على إطعامها ما يُعينها على ذلك الحمل، فأسرّتي تبيت منذ يومين على معدة خاوية، ولم يدق جوفها للزاد من طعم".

ثم اقترب بخطواتٍ منها مُرتجياً إياها:

- "إني أستحلفك بالله أن تُساعديني اليوم، وأقسم بأني لن أكرر صفوك بطلبي مجدداً.. إنه اليوم فقط دون غيره".

نظرت العجوز له ملياً قبل أن تتحرك للخارج إلى الحظيرة خاصتها، لتعود مُمسكةً بدجاجتين تُجاهدان للفرار من بين يديها الواهنتين، لتُعطيها له مُحدثّة إياه في جدية:

- "لا تتأخر في العودة إليّ بعد بيئعهما".

فأحكم "عبد الرازق" قبضتيه عليهما في سعادة، وهو يُحيبها:

- "لا تحملي بالاً، سأذهب سريعاً وأعود في الحال".

تحرك "عبد الرازق" بخطى مُسرّعة عائداً للسوق، بينما وقفت السيدة تنظر نحوه لثوانٍ وقد بدأ في الابتعاد، فأتت زمجرة من كليها بينما يخطو للأمام من داخل الحظيرة مُشخص البصر نحو مَوْضِع شخصٍ ما، فالتفتت سريعاً إلى

مَوْضِعَ نظره لِتَجِدَ شَخْصًا مَآرًا يَنسَابُ شَعْرُهُ الْأَشْيَبَ مِنْ جَانِبِي عِبَاءَةِ رَأْسِهِ
التي يَتَخَفَى وَجْهُهُ أَسْفَلَهَا كَعَادَتِهِ، تَوَقَّفَ الرَّجُلُ فِي مَكَانِهِ لِيَلْتَفِتَ نَحْوَ (جَبَلِيٍّ)
الذي تَبَحَّ بِقُوَّةٍ تَجَاهَهُ فَوْرَ مَرُورِهِ أَمَامَ الدَّارِ، لِيُقْرِصَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَرْضِ فَوْرَ
رُؤْيَاهُ بَيْنَمَا يَنْظُرُ نَحْوَهُ مُبْتَسِمًا، لِيَتْرِكَ (جَبَلِيٍّ) الْحَظِيرَةَ لِيَرَكُضَ بِقُوَّةٍ نَحْوَ
الرَّجُلِ مُزْمَجِرًا حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ، وَحِينَهَا تَخَلَّى عَنْ مَظَاهِرِ قُوَّتِهِ وَبَاتَ كَطِفْلِ
سَعِيدٍ بِمُقَابَلَةِ ضَيْفٍ لَهُ، فَأَخَذَ يَلْتَفُّ حَوْلَ الرَّجُلِ وَهُوَ يَتَلَمَّسُهُ بِجَسَدِهِ فِي
سَعَادَةٍ مِنْهُ، فَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ كِرَاهِيَةِ (جَبَلِيٍّ) لِلْبَشَرِ دُونَ مَالِكِيهِ، كَانَ "غَرِيرٌ"
هُوَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ غَيْرُهُمَا الَّذِي تَجْمَعُهُ بـ (جَبَلِيٍّ) عِلَاقَةٌ صَدَاقَةٍ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ
سَبَبَهَا.

فَدَاعَبَ "غَرِيرٌ" رَأْسَ (جَبَلِيٍّ) وَهُوَ يَبْتَسِمُ لِفِعْلَيْتِهِ:

- "كَيْفَ حَالُكَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ؟".

تَوَقَّفَ الْكَلْبُ بِجَانِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِلُ لَعْقَ إِحْدَى يَدَيْهِ، فَأَكْمَلَ "غَرِيرٌ" التَّمْلِيسَ عَلَى
ظَهْرِهِ مُتَحَسِّسًا النَّدُوبَ الَّتِي تَجَلَّتْ أَثَارَهَا عَلَى غَالِبِيَةِ جَسَدِهِ، فَتَمَلَّى النَّظَرَ
نَحْوَ وَجْهِ (جَبَلِيٍّ) الَّذِي أَذْهَبَ التَّعْذِيبَ الْبَصَرَ مِنْ إِحْدَى عَيْنَيْهِ لِيَبُوءَ الْبَيَاضَ
بِمَحْجَرِهَا، وَهُوَ يُكْمِلُ:

- "لَا تَحْزَنْ يَا صَدِيقِي، فَكَلَانَا حُكْمٌ عَلَيْهِ بِالْمَعَانَاةِ لِأَمْرِ لَيْسَ لَنَا ذَنْبًا بِهِ، فَكَلَانَا
أَدَانَةُ الْبَشَرِ بِسَبَبِ هَيْئَتِهِ، وَكَلَانَا يَمَقِّتُهُمْ جَرَّاءُ مَا عَانَيْنَاهُ مِنْهُمْ".

هَمَّهُمْ "غَرِيرٌ" ضَاحِكًا مِنْ نَظَرَةِ (جَبَلِيٍّ) الْبَلَهَاءِ لَهُ وَهُوَ لَا يَسْتَوْعِبُ مَا يُحَدِّثُهُ بِهِ،
لِيُكْمِلَ:

- "لربما كان هذا سبب صداقتنا.. فنحن نتشارك أمورًا عدة لا يعلم أحد الكثير عنها".

تحرك (جَبَلِيّ) برأسه وقت ذاك جانبًا لِيُزْمَجِرَ غاضِبًا، لِيبدأ بالتَّبَاحِ نحو رجلٍ يمر من جوارهما، فانزع الرَّجُلُ لِيَتَّعِدَ بخطواته عنهما ويُسرِعَ الخُطى في حَذِرٍ منه.

فضحك "غريِر" حينها لِيَقُمَ من جَثْوَتِهِ وهو يُرَبِّتُ على رأس (جَبَلِيّ) لِيُهدئ من روعه لِيَتْرِكَ الرَّجُلَ وشأنه، ثم بدأ بالتَّحَرُّكِ مرَّةً أخرى قاصدًا داره، ولكن صَاحَبَهُ (جَبَلِيّ) بضع خطواتٍ لِيبدأ في لَعَقِ يَدِهِ الأخرى والتي كانت تَدْمِي بالذَّماءِ جَرَّاءِ جرحٍ يَسْكُنُ راحتها، فانحنى لِيَدْفَعَ الكلبَ بعيدًا في رفقٍ وهو يُحدِّثُه:

- "لا تقلق أيها العجوز، إنه مجرد جرحٍ سطحي.. فإنني على ما يرام".

تحرك الكلب عائدًا للحظيرة بعد ذلك، بينما أكمل "غريِر" طريقه نحو داره بنفسٍ تَعَكَّرَ صَفْوُهَا من التفكير في التَّأْنِيبِ الذي ينتظره.

فتح "غريِر" باب داره لِيَجِدَ والدته العجوز جالسة على فراشها كعادتها دون أن تنظر نحوه أو أن تَنبِسَ بكلمة، فتَوَجَّهَ إليها لِيَأْتِيَ ببعض الدنانير من عِباءته ويضعها بجوارها، ثم تحرك مُبتعدًا نحو إبريقٍ من الماء لِيَصُبَ الماء على يده الدامية، ثم بَلَّلَ يده الأخرى لِيَعْتَصِرَ شَيْبَ لحيته الذي أفاض بالذَّماءِ التي تَقَطَّرَتْ من قِمِهِ لِيُخَصِّبَ جانبها، وهو يسألها:

- "أين والدي؟".

فأجابته:

- "لقد ذهب باكراً للحصول على قوت يومه".

فأكمل "غريب" غسل يده في صمت، ليتفاجأ بعد ذلك بالدنانير تُلقى نحوه على الأرض.

- "هل يمكنك إخباري من أين حصلت على ذلك المال في وقتٍ تشح فيه الأقوات؟".

فأجابها دون أن يلتفت تجاهها مُكمِّلاً غَسْلَ يده:

- "لقد سُحِّت الأموال أثناء سَعْيِ العِباد في الصَّبَاح، أما حياة اللَّيْلِ فلا تزال تُوفي الوعود بالمال".

ثم تحرك نحو قطعةٍ من القُماش ليُمزقها ويبدأ في تضميد يده في هدوء، فلم تمر ثوانٍ حتى سمع صَوْت والدته وهي تنتحب في حسرةٍ منها.

- "ليتني قتلتك في مهدك كي لا أشهدك من أشقياء اللَّيْلِ، فوالله ذلك هُم لا أستطيع مُعايشته".

تخلّى "غريب" عن هدوءه وتحرك سريعاً نحوها بينما لا زال مُعْتَمِراً عباءة رأسه، تلك العباءة التي لا تُبارح مَوْضِعَها طوال الوقت حتى أُنْسَ شعوره بها واعتاد الرؤية من ثنيتها فباتت جزءاً منه لا تُفارقه، وحينها أطاح بعباءة رأسه ليُحدثها مقترَباً بوجهه منها:

- "ليتكَ أزهقتِ رُوحِي في المهدِ يا أُمِّي، فلعلها كانت فِعْلة تُريحني من مَسَقَّةٍ ما قد أُبتليت به".

ثم تحرك مُبتعدًا قليلًا وهو يُشير إلى وجهه، ذلك الوجه ذو الملامحِ الشابة القَيِّية التي يُحاصرها الشَّيب من كل اتجاه، يَنسدل شعرُه فلا يُرى للسواد مَوْضِعًا، يُحيط ذقنه شعرٌ فضيٌّ لم يَتلون بِسِواه منذ كان صغيرًا، فبات الناس يُخطئونَه من بعيد، فيَظنون به الشَّيب وكِبَر السنِّ وما أن يتبينوا النظر إلى ما يُحيطُه هذا الشَّيب فيجدونه شابًا يافعًا، فتتردد الأنظار لِتُطِيلَ النظرَ إليه وتسوءه.

فأكمل حديثه في غضب:

- "ألا تتذكرين يوم مولدي؟ فأنا أتذكره جيدًا، فالألسُن لم تتوقف عن تناوُل الحديث لسنواتٍ طوال عما حدثهم به تلك القايلة، لقد أشاعت تلك اللعينة الخبر فور خروجها من الدَّار، لقد وُلدت عائلة كُردية طفلًا أشيب الرأس في المهد، لأصبح نذير شؤمٍ لكل نفسٍ تراني ²⁰".

فسارعت والدته لُجبيه:

- "لا ذنب لك فيما وُلدت عليه يا بني، إنها إرادة الله ونحن لها مؤمنون".

فأجابها مُستهزئًا:

- "لقد عانيت طيلة حياتي مما أنا عليه، فهل إرادة الله أن أُوصم طيلة حياتي؟".

ثم أخرج خَنْجَرَهُ من غَمَدِهِ وهو يُرِيهَا إِيَّاهُ:

- "لقد كُلَّ تَصَلٍّ هذا الخَنْجَرِ منذ أن كنت قَتِيًّا في حَصْدِ الشَّيْبِ من رأسي ولحيتي دون جَدْوَى، فكنت ولا زلت في نَظَرِ الناسِ نَذِيرِ السَّوْءِ الْأَشْيَبِ".

ثم أعاد خَنْجَرَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ لِيُحَدِّثَهَا والمرارة تملأه:

- "لَيْتَكَ كَتَمْتَ أَنْفَاسِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَأَرْحَتَنِي مِنْ تِلْكَ الْحَيَاةِ".

تحرك "غريـر" في عَجَالَةٍ من أمره لِيُعَاوِدَ الخُروجَ وهو يَـرْطِمُ بابَ الدَّارِ بِقُوَّةٍ مُتَجَاهِلًا صَوْتَ أُمِّهِ الْمُنَادِي إِيَّاهُ، لِيَعْتَمِرَ عِبَادَةَ رَأْسِهِ مَرَّةً أُخْرَى عَائِدًا مِنْ حَيْثُمَا أَتَى.

تحرك العبدان "قُصَيِّ" و"يوساب" ذلك الوقت على مقربةٍ من دارِ الْأَشْيَبِ، كانا يَهْـمَانِ بِالْتَّحَرُّكِ إِلَى السُّوقِ مُصْطَحِبَيْنِ إِحْدَى بَهَائِمِ "الناصرِي" لِيَتَّعِهَا، فترأى المشهد الأخير لهما دون أن يسترعى شَاغِلًا لـ "يوساب"، ليكن التَّقْيِيزُ من نصيب "قُصَيِّ"، فقد أثار رؤيته لشجارٍ عائلي مشاعر بداخله لا يعرف لها تمييز.

فالتفت وهو يصطحب البهيمة إلى رفيقه "يوساب" الذي كان يتقدمه بخطوات، يَتَبَخَّرُ كَعَادَتِهِ فِي ظَفْرِ مُبَالِغٍ وَالسَّيْفِ بِجَانِبِهِ كَجُنْدِيٍّ مُحَارِبٍ، ليحدثه:

- "هل عرفت أباك أو أمك يومًا؟".

فأجابه وهو يُكْمِل طريقه دون أن يُشغله الأمر:

- "مجرد ذكرياتٍ مُبْهَمَة تعود لأيام الصُّغر، فقد مَحَا الزمن ملامَحَهم والمواقف التي كانت تجمعنا معًا من عقلي منذ وقتٍ طويل".

فحدثه "قُصِيّ" بعَيْنَيْن زائغَتَيْن في الماضي البعيد:

- "لقد وُلِدْتُ في كَنَف العبودية منذ أن أَبْصَرْتُ الدنيا، فالعَبِيد الخَصِيَّان يتم إبعادهم عن كَنَف ذويهم، وإخضاعهم في الصُّغر حتى يكونوا أقل عُرضة للموت".

ثم عاد ليسأله متلهفًا:

- "ولكن ألا تفتقد عائلتك يومًا؟".

لُجِيبه باقتضاب:

- "لا".

ثم مَدَّ ذراعيه في الهواء مُستعرضًا كتليهما العضليَّتَيْن وهو يُكْمِل:

- "ولكنني أفتقد الجوّاري الحسنات اللاتي كُنَّ يَتَلَهْفُن عليّ فيما مضى".

لَتَأْتِي إجابة "قُصِيّ" بغتَةً لُتْقاطع غرور "يوساب":

- "أنا لم أُثر إعجاب فتاة يومًا في حياتي".

التفت "يوساب" حينئذٍ إلى "قُصَيِّ"، وقد أيقن أن مَوطئ كلماته الغير محسوبة قد أصاب الحُزن في قلبِ صديقه، فقد كان العبيد الخُصيان يُصاحب إخصاؤهم تَغَيُّر في الملامح والهيئة، فتتدلى شفاهم السفلية وتمدد الأصابع والأطراف

21.

فكانت تلك الملامح كفيلة بإبعاد الجواري عنه طيلة حياته، لِيُبطئ "يوساب" الخُطى ويضع يده على كَتِف "قُصَيِّ" مَمازحًا إياه وهو يُشير إلى البهيمة من جوارهما:

- "لا تحزن.. فنحن تحت إِمْرَةِ الناصري الآن، ولن نعرف عن مُصاحَبَةِ الإناث سوى تلك البهائم".

فسأله "قُصَيِّ" في تَعَجُّبٍ مُستفسرًا:

- "وماذا عن سيِّدتنا؟".

فنظر إليه مُتَعَجِّبًا لِيُجيبه:

- "أتقصد زوجة "الناصرى" السَّمينية؟ فوالله لأنها كبيرة البهائم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضة

- "مرحبًا يا جِدِّي".

ضحك الأطفال على المزاح السَّخِيف لأحد أصدقائهم تجاه "غريز"، والذي جاورهم في السن وفاق مظهره العُمر، فوقف "غريز" عاجزًا عن الرَّد فيما قيل له، بينما علا ضجيج ضحكات بَقِيَّة الأطفال لِيَمْلَأَ رأسه، فاستشاط غضبًا لِيَدْفِع الطُّفْل الآخر من أمامه في عَصَب، حينها كَال الطُّفْل لـ "غريز" لكمة طَرَحَتْهُ أرضًا، وقد دَمَت أسنانه من دَوِي اللَّكْمَة، فقام سريعًا في مُحَاوَلَة للَقْنُك بالطُّفْل، الذي ما لَبِث أن أعَاقَه بِقَدَمِهِ.. فافترش الأرض مجددًا.. لِيَسْغُلَ إثر عَقْرَة التُّراب حول وجهه دون القُوَى على التُّهْوِض مجددًا.

- "توقف وشأنك".

التَّفَّت الجَمْع إلى الطُّفْل قائل العبارة وقد بدا عليه الإصرار في حديثه، فتَحَرَّك الطُّفْل الآخر تجاهه قائلاً:

- "لِمَ تُدَافِع دَوْمًا عن تَذِير الشُّؤْم يا "بيجاد"؟، أليس له يدان ولسان؟".

حينها هَمَّهم أَحَدُ الأطفال ساخِرًا:

- "لربما يُريد مُسَاعَدَة شخص عجوز ليس إلا".

قُصِّي الأمر، نهض "غريز" عازِمًا على حَظْفِ بَصَر الفتى الذي طرحه أرضًا، فتَحَرَّك سريعًا تجاهه لِيُثْنِي أصابع يَدِهِ جميعًا عدا واحدٍ منها عازِمًا على أن يُسْكِنه في مُقْلَة عَيْنِهِ، وما أن اقترب منه حتَّى سدد إلى "غريز" لكمة قوية تَوَسَّطَتْ أَنْفَه لَتَتَدَفَّق الدَّمَاء الغزيرة منها، لِيَسْجُد في الأرض مُمَسِّكًا بِأَنْفِهِ في ألم.

- "فلندع هذين التَّعِيسَيْنِ وحدهما".

فتحرك بَقِيَّةُ الأَصْدِقَاءِ فِي مَرَّاحٍ مِنْهُمْ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ صَدِيقَهُمْ كَيْ يَلْهُوا بَعِيدًا،
لَتَمُرَّ لِحَظَاتٌ مِنَ الصَّمْتِ عَلَى الْاِثْنَيْنِ، حَتَّى مَدَّ "بِيْجَاد" يَدَهُ نَحْوَ "غَرِير"
لِمُسَاعَدَتِهِ عَلَى التُّهُوْضِ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْآخِرِ سِوَى أَنْ أَطْلَحَ يَدَ "بِيْجَاد" بِذِرَاعِهِ فِي غَضَبٍ قَائِلًا:

- "أَنَا لَا أَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدَةٍ أَوْ شَفَقَةٍ مِنْ أَحَدٍ".

لِيَصْلُبَ مِنْ قَامَتِهِ وَيَعْدُو سَرِيعًا إِلَى دَارِهِ، بَيْنَمَا تَنْغُرُ حَلْقُهُ عُصَّةَ الْعَصَبِ
وَالْحُزْنَ عَلَى مَا يَمْرُ بِهِ، فَكَلَّمَا قَرَّرَ أَنْ يَعِيشَ طِفْلُوَّتَهُ غَيْرَ عَابِيٍّ بِمَا يَجْرِي مِنْ
حَوْلِهِ وَلَا يَعْتَرِي لِلدُّنْيَا مِنْ شَاغِلٍ سِوَى اللَّهِو، يُطَارِدُهُ دَوْمًا وَصُمُ الدُّنْيَا لَهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

الخاصة 22

إنها الطَّامَّة الكُبرى، لقد حَدَث ما كان يُنَبِّئ به القَدَر، لقد أخذ مَنسُوبُ مياه نهر التَّيْل في الانحسار يومًا بعد يوم ²³ حتى جاء اليوم الذي أصبح مَنسُوبُهُ لا يتخطى أَحْمَصَ الأطفال التي تلعب في مَجْرَاه، دون أن تَعِي بِكُنْه ما قد تَزَل على الأمة من بلاء، كانت الألسُن تتناقل ما قد حَدَث منذ بضعة أَشْهُر حينما انخفض القَيْضَان لدرجة بالكاد تكفي لَتَنْقُل بعض الشُّفْن التُّجَّارِيَّة صغيرة الحجم، ولكن أمسى الآن وصول أبْسَط البَضَائِع للسُّوق بمثابة صَرْبٍ من الخَيَال.

ومن وسط هَمِّهِمة الناس القَلِقة عما سوف يُصيبهم جَرَّاء ذلك البَلَاء ، كان "عبد الرازق" يَتَجَوَّل في السُّوق كعادته كل صباح من أجل البَحْث عن لُقمة العَيْش، وقد تَصَارَعَت الأفكار داخلَه حينما تَذَكَّر الأسابيع السَّابِقة التي لم تُسْفِر سوى عن بعض الفاكهة العَفِنة المُهمَّلة، والتي تَحَصَّل عليها بِشِق الأَنْفُس لِتَسِد جَوْعًا يَصْرخ في العقل مُطالِبًا، كان الوَضْع لا يَحْتَمِل رزقًا طال انتظار الحصول عليه بطريقة مَشْرُوعَة، ولهذا قرر أن يَحْضُل على الطَّعام بأي وسيلة مُمكنة حتى لو آل الأمر إلى سَرِقته، وهنا تبدَّلت توجُّهات سَعْيِهِ.. فأخذ يَتَحَيَّن ظهور أي فُرْصة من أُمَامِهِ لِيَبْدَأ مَسْعَاه الجديد الذي اضطره الزَّمن إليه.

فطال وقت بَحْثِهِ حتى تَحَيَّنَت فرصة من أُمَامِهِ، إنه الشَّيْخ "عبد الله الإِتربي" يمشي بِصُحْبَةِ غُلامٍ صغيرٍ يحمل فوق رأسِهِ صِينية من الخُبز البائت، يُحِيط

بهما ثلاثة من الحرس خاصته، يتناقلون الأنظار الحذرة وسط جموع الجوعى، وقد كان الكثير منهم عازمين على السرقة، ولكن خوفهم من بطش الحراس لهم كان أقوى من أن يُقدموا على تلك الفعلة، ولكن لم يكن من ضمنهم من هو أشد يأسًا وجوعًا من "عبد الرازق" وأسرته.

والذي كان قد عزم على الأمر بالفعل، فتتبعهم بخطاه حتى تحركوا خارج الشوق، وهنا أسرع "عبد الرازق" من ركضه ليتخطى حارسين من خلف الغلام، ويخطف أحد أزغفة الخبز من فوق رأس الصغير ويسارع بالركض وسط دهول الحرس الغافلين، والذين قد حبا حذرهم مع مغادرة الشوق.

أسفرت فِعْلَة "عبد الرازق" عن تطاير بقية الخبز ليقع أرضًا، فأخذ الغلام يتلَقَّفه هو وأحد الحراس.. بينما تخلص الحارسان الآخران عن دهولهما ليسارعا بالركض خلف السارق، كان "عبد الرازق" يركض كما لم يركض من قبل.. دون أن ينظر خلقه وهو يحتضن رغيف الخبز مُتخطيًا المارة المشدوهين من تلك المطاردة، تدم "عبد الرازق" وقتها على المرة الوحيدة التي التفت فيها ليختلس نظرة عاجلة إلى الحارسين من خلفه، فتسببت تلك النظرة في تعثره ووقوعه ليفترش الأرض وسط غيمة من التراب، دون أن يدري ما الذي تسبب في سقوطه، لم يسترعه همًا يديه المتجلطتين ولا وجهه المَعْفَر، بل تلفت سريعًا بحثًا عن الرغيف حتى وجده بجانبه.. فأطبق عليه بيده بينما يُحاول الوقوف مرة أخرى.

أتت رطمة قوية من جِذاء أحد الحارسين لئسكن جسده مَوْضِع الأرض مجددًا، ثم توالى ركلات عديدة فوق جسده ورأسه، ركلات مَلِيئة بالغضب والكرهية تدك عظام جسده دكًا، أصابت إحداها مؤخرة رأسه ليرتطم وجهه بالأرض

وَتَغْرِزُ أَسْنَانَهُ الدَّامِيَةَ بِتَرَابِهَا، تَكْوُمُ جَسَدُ "عَبْدِ الرَّازِقِ" فِي الْأَرْضِ مُحْتَضِيًا رَغِيفَ الْخُبْزِ وَكَأَنَّهُ ابْنٌ لَهُ يَأْبَى تَرْكَهُ، وَقَدْ بَدَأَ فِي الشُّعُورِ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الصَّرْبِ، وَلَكِنْ تَوَقَّفَتِ الرِّكَالَاتُ فَجَاءَ إِثْرُ دَفْعِ أَحَدِ الْأَشْخَاصِ لِلْحَارِسَيْنِ بِقُوَّةٍ بَعِيدًا عَنِ جَسَدِ ذَلِكَ السَّارِقِ الْمُتْهَكِّ.

صَاحَ "بِجَادُ" بِالْحَارِسَيْنِ فِي غَضَبٍ بَيْنَمَا يَحُولُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْجَسَدِ الْمُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ:

- "تَوَقَّفَا عَنْ فِعْلَيْكُمَا أَيُّهَا الْمَجْرِمَانِ، أَلَا يَكْفِيكُمَا أَنَّهُ يَكَادُ أَنْ يَلْقَى مَصْرَعَهُ جَرَّاءَ بَطْشِكُمَا لَهُ".

أَجَابَهُ أَحَدُ الْحَارِسَيْنِ فِي غِلْظَةٍ بَيْنَمَا يُحَاوِلُ تَحَطُّيَهُ:

- "إِنَّهُ هُوَ الْمُجْرِمُ، لَقَدْ سَرَقَ رَغِيفَ الْخُبْزِ مِنْ سَيِّدِنَا وَقَرَّرَ هَارِبًا".

- "كَانَ يُمَكِّنُكُمَا أَنْ تُسْلِمَاهُ إِلَى الشُّرْطَةِ بَدَلًا مِنْ قِيَامِكُمَا بِجَلْدِهِ بِنَعَالِكُمَا أَيُّهَا الْوَعْدَانِ".

لَمْ يُثْنِ عَزَمَ الْحَارِسَيْنِ عَنْ مُحَاوَلَةِ الْعُودَةِ لِلْفَتَكِ بِالرَّجُلِ سِوَى صِيَاحِ الْحَارِسِ الثَّالِثِ لَهُمَا، قَادِمًا مَعَ الشَّيْخِ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُمْ، فَتَوَقَّفَا فِي انتِظَارِ قُدُومِ سَيِّدِهِمَا حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِمَا.

تَأَمَّلَ الشَّيْخُ ذَلِكَ السَّارِقَ الْمُلْقَى مِنْ أَمَامِهِ فِي صَمْتٍ لِلْحِظَاتِ، كَانَ "عَبْدُ الرَّازِقِ" بِالْكَادِ يَقْوَى عَلَى رَفْعِ رَأْسِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَهُمْ، وَقَدْ تَلَطَّحَ رَأْسُهُ

وملابسه بأثربة نَعَال الحارسَيْن، يَحْتَضن رَغيف الخُبز الذي تَلَوّن بالدماء
المُتَقَطَر من قَمِه الدامي آيًّا تَرَكه.

- "فلنُكْمِل وجهتنا، فلقد نال السَّارِق جَزاءً أكثر مما يَسْتَحِق".

استدار الشَّيْخ مُتَعَكِّراً صَفْوَه بعد أن أدرك أنه لا جَدْوَى من استعادة الرَغيف
المُلوث بالدماء، ليبدأ في التَّحَرُّك مُبتعدًا بجوار الحراس الذين انسابوا الواحد
تلو الآخر مُتتبعين إياه في خُضوع.

التَّف "بيجاد" سريعًا إلى "عبد الرازق" لِيُساعده على التُّهُوض، بينما استند
الأخير عليه وهو يُجاهد للوقوف بقُوَى خائفة.. حتى استطاع أخيرًا.

- "هل أنت بخير؟".

أومأ إليه "عبد الرازق" بالإيجاب وقد تَوَرَّم أحد جَفَنَيْهِ، بينما يمسح الدماء
السَّائِلة من على شَفَئِيهِ.. ثم استدار ليبدأ السَّيْر في هَوانٍ مُنتَوياً العودة إلى
أَسْرَتِهِ.

أَمْسَكَ "بيجاد" حينئذٍ بِكَتِف "عبد الرازق" وهو يُكْمِل:

- "هيا بنا.. سأعاونُكَ على الوصول إلى دارك".

أطاح "عبد الرازق" بِكَتِفِهِ يد "بيجاد" دون أن يَسْتدير نحوه، ثم وقف لثوانٍ
بظهِرٍ مَحْنٍ من الألم ونفْسٍ مُنْكَسِرَةٍ.. قبل أن يُرَبِّت على كَتِف "بيجاد" لِيَتْرَكَه

وشأنه، ثم أكمل الطريق من أمامه وحده دون مُساعدة، وهو يشعر بسعادةٍ تفوق الألم الذي يُحقيق به.. لقد تَحَصَّل أخيرًا على قوت يَوْمِه.

تحرك "بيجاد" حينئذٍ عائداً إلى دُكَّان والده المُنْكَفئ على العمل دائماً، بينما انزوى أخواه في ركنٍ يلهوان ببعض الأغراض، جلس بجوار والده صامتاً يَعْتَرِيهِ الهم مما رآه للتو ومما يَخْشَى قدومه، فلاحظ والده شروده على الرغم من صَوْتِ الطَّرْق بجواره، ليقرر مُلاطفته بِالْمِرَاح، فقام لِيَتَحَرَّكَ نحو دلوٍ قَرَعَ منه الماء لِيَدْفَعَهُ بِقَدَمِهِ للأمام تَكَرَّارًا حتى اصطدم بِقَدَمِ "بيجاد"، فأفاق فورها من سُروده لِيَنْظُرَ إِلَى والده الذي حَدَّثَهُ:

- "لم يعد لدينا من الماء ما يُسْكِن لَهَب الحديد، فلتملأه وتعود على الفور".

ثم نظر إلى ولديه الصغِيرَيْن وهو يُكْمِل:

- "ولتصطحب هذين المشاغِبَيْن معك، فهما بحاجة لاستنشاق الهواء بدلاً من صَهْد الجمر الذي ملأ صدورهما منذ الصَّبَاح".

نهض "بيجاد" سريعاً وهو يُحَدِّث والده بنبرةٍ جَادَّة:

- "لقد اختلف اليوم عن البارحة يا والدي، لقد أصبح التَّبَاشون يملؤون السُّوق والأروقة، ولن أغامر بأن يفلت أحدهما يدي، أو أن أغفل عن أحدهما لثوانٍ".

تحرك "بيجاد" بالدلو بعد ذلك قاصداً ضَفَّة التَّهَر عند نهاية السُّوق، تأمَّل الوجوه الشَّاحبة من حوله والمهمومة من أمرها، لقد قَسِدَت معظم السِّلَع المعروضة وأصبحت الناس لا تتحمل ثمنها حتى بشاكرتها تلك، شاهد بعَيْنَيْهِ

أصحاب الحوانيت والدكاكين المُغلقة التي أفلّس أصحابها، وباتوا يتسولون في الشُّوق من أجل لُقمة العَيْش مثل سائر العامة الآن.

ومن وسط زحام الشُّوق تراءى له من أمامه بهيمة غاشمة تتصارع في المكان، تتخبط في المازّة وسط قَرْعٍ منهم، أخذت تركض من بعيدٍ مُسرعة تنطح كل من يُلاقىها في طريقها في ثورةٍ عارمة، بينما يعلو صَوْتُ خوارها المكان، لتخور قواها وتسقط مُفترشة الأرض بخطواتٍ ليست بالبعيدة عن مَوْضِع "بيجاد"، الذي وقف دون حَرَاكٍ ينظر نحوها في دهشةٍ مما قد رآه، لم يكن الأخير حينها يُدرك ما قد حدث منذ دقائق معدودة لدى أحد القَصّابين الذين يتعامل معهم "الناصري" صاحب البهائم.

فقد كان "الناصري" قد استغل حُلُو الشُّوق من اللحم عدا ما يمتلكه هذا القَصّاب وقِلَّة من قرنائهِ الآن في الشُّوق، فَعَرَض عليه دَفْع سعر تلك البهيمة بسعرٍ يُصَاعِف ثمنها مُعَلِّلاً بأنها على وشك أن تُوضِع جنينها في القريب، مما سيُسْفِر للقَصّاب عن ربحٍ مُضاعف، ليتصاعد الجِدال ويُشَب الشجار بينهما فيتركه "الناصري" ويَرحل عاقد العزم على بَيْعها لأحدٍ مُنافسيه.

لقد فاض الكيل بالقَصّاب من هذا "الناصري" المُستغل، فقد كان يُزيد في السعر في كل مرة، حتى بات لا يستطيع تَحْمُل تكلفة الشِّراء منه، حينها اشتعل الغضب والكراهية بداخله وقرر أن يُسْكِن الحسرة في قلب صاحب البهائم.

تَادَى القَصّاب أحدَ تابعيه لِيُهِمَّهُم ببعض الكلمات في أُذُنِهِ، لِيُومئ الرَّجُل برَأْيِهِ له ويَسْتَل أحد السكاكين مُوَارِبًا إياها في كَتَف جُلْبائه، ويبدأ بالتَّحَرُّك

سريعًا متتبعًا "الناصري"، الذي تحرك على بغليته قاصدًا وجهته ومن جواره "يوساب" حارسه الأمين يتبعهما "قُصَيِّ" مُصطحبًا للبهيمة، ظل يتتبعهم على هُدًى من أمره ينتظر الفرصة السانحة لِيُنفذ أمر القَصَّابِ له، قَوَّلت دقائق بعد ذلك حتى تَحَيَّن تلك الفرصة أخيرًا.

كان "الناصري" وتابعيه على وشك المرور من وسط زحام بعض المارّة، ذلك الزحام الذي سيُسمح له بأداء مهمته والفرار دون أن يُدرك أحد فِعْلَتَهُ، وحينها تحرك الرَّجُل سريعًا لِيَتَوغل وسط الزحام ويقترب لِيُلصق جسده بجانب البهيمة، ثم أخرج السَّكِين وبَقَرَ أسفل بطنها بجرحٍ طولي وركض مُسرِعًا.

لم يُدرك أحدٌ ما حدث وقتها، فقد علا صَوْتُ خِوار البهيمة في ألمٍ لتركض مُندفعة بقوة، تطرح كل من يصطدم بها أرضًا وسط ارتباك وذهول الجميع من فِعْلَتِها، ظلت تركض لأمتارٍ حتى بدأت أمعاؤها في السقوط من فجوة الطَّعنة النافذة التي نالَتْها منذ لحظاتٍ قليلة، وهنا بدأت تفقد قواها وتفترش الأرض مُتألّمة جَرَّاء جرحها.

وقف "بيجاد" هو والآخرون يُشاهدون البهيمة وقد تدلت أمعاؤها، بينما انسابت بركة من الدِّماء لتفيض بجانبها، لم تمر ثوانٍ والناسُ تقف مشدوهة لما حدث، لِيَنْقُصَ أحد الجَوْعَى على الفور نحوها وَيَنْتشل جزءًا من أمعائها مُحاولًا قطعه بأسنانه في وحشيةٍ تامة، تلك الوحشية التي لم تُثِر حفيظة من يقفون حوله، بل كانت بمثابة دعوى للانقضاض على هذا اللحم المطروح أرضًا، والذي يُتيح الفرصة لهم لِيَسدوا جوعَهُم وجُوع أُسْرِهِم، فانقض بعض الجِياع بدورهم مُحاولين انتشارل ما يُمكنهم مما يَفِيض به هذا الجرح الغائر، والذي أخذ في الاتساع من تناول الأيدي عليه لِيُصبح مثل المائدة المفتوحة من أمامهم، كان

البعض منهم يَنْتَشِلُ لحمها بِسِكِّينِهِ ومن لم يملك واحدة كانت أسنانه هي وسيلته، لم يُوقِظ صياح أحد الصالحين فيهم بغضبٍ لِحُرْمَةِ ما يفعلونه ضميرًا أو يُعْتَرُونَ همًّا، لقد انْقَضَ الجَمْعُ عليها دون تهاونٍ منهم.

لا زالت الرُّوح تَسْكُنُ في جسد تلك البهيمة رُغم ذلك حتى تلك اللحظة، ظلت تخور في ألمٍ وهي تنتفض وتهيج بجسدها على الأرض، بينما تطرح بقوائمها وجه من تطوله، أخذ الآخرون يبتعدون هلعًا وخوفًا من هياجها، بينما كان منهم من لم يكثر بثورتها ليكمل نهشها مع البَقِيَّة كالصَّبَاع.

حينئذٍ لم يتمالك "بيجاد" نفسه وهو يرى الألم المُحَدِّق في عَيْنَيِّ ذلك الحيوان المُعَذَّب الذي يُؤْكَل حَيًّا، لِيَرَكُضَ تجاهها سريعًا وَيَنْتَشِلَ سِكِّينَ أحدهم في بغتةٍ منه، لِيَتَّيِبَ إلى رأسها ويغرز النَّصْلَ به بكل ما أوتي من قوة، لتهدأ كليًا وترتاح من عذابها في النهاية.

ليت نواياه الطيبة قد أَسْقَرَتْ عن خيرٍ فيما هو قادم، ولكن أتت فِعْلُهُ لثُدِينِهِ بما لم تَطْلُهُ يداها، فحينها كان قد وصل "قُصَيِّ" و"يوساب" أتباع "الناصرى" ليحاولا إبعاد الجَوْعَى عن البهيمة النافقة، فقاما بركلهم وكَيْلِ السُّبَابِ لهم، في حين أطاح "يوساب" بِسَيْفِهِ نحو أعناقهم مُهددًا إياهم إن لم يَكْفُوا، بينما كان "الناصرى" يقف قَزِعًا يُشَاهِد "بيجاد" وهو يقف مُنتَشِلًا السِّكِّينَ من رأس الحيوان النافق، لِيَتَحَرَّكَ سريعًا وهو يُغَالِبُ السُّقُوطَ من أعلى بغلته صائحًا نحو "بيجاد" في غضب:

- "أيها اللعين! لقد قتلت بهيمتي".

حاول "بيجاد" في دهشةٍ منه أن يُبرر ما حدث:

- "عن أي هراءٍ تتحدث؟ لقد كانت تُصارِع المَوْت بالفعل.. وقد أرَحَّتْها من عذابِها".

لم تَلْتَقِ كلمات "بيجاد" وهو يُدافع عن نفسه أي صَدَى في عقل ذلك الرَّجُل الذي ظل يتحدث بعقلٍ أغابه الغضب:

- "لقد أضعت عليّ مَالًا طَائِلًا وتسببت في إفلاسي أيها الدَّاعر".

ثم توجه بالحديث إلى "قُصِيٍّ" و"يوساب" وهو يصيح في ثورةٍ عارمة:

- "فلتأتيا لي بصاحبِ الشُّرْطَةِ في الحال".

تحرك "قُصِيٍّ" مُهْرولًا لِيُلبِّي نداء سَيِّدِهِ على الفور، حينها أدرك "بيجاد" الورطة التي وقع فيها، فظل مُقفَل الفاه مَشْدُوهُ العقل لا يدري ما عليه فعله حينئذٍ، فتشبث "الناصري" بملابس "بيجاد" وهو يُكَيِّل له السُّباب والوعيد، فتحرك نحوهما أحد الصالحين الذي كان يقف منذ دقائق يخطب في الناس عن حُرمة ما يفعلونه، لبدأ بالحديث مُبرِّرًا ما رآه من صَنِيع الجَوْعَى ومحاولة "بيجاد" وِنَيْتِهِ الطَّيِّبَةِ، فلم يُلق له "الناصري" بِالَّا، بل نظر إلى "يوساب" الذي وقف بسَيْفِهِ حائِلًا بين تلك الأفواه الجائعة وذلك الحيوان النافِق ليصيح به:

- "لماذا لم يَأْتِ ذلك العَبْد اللَّعِين حتى الآن؟".

لاحت حينئذٍ إليه الإجابة من بعيد، فقد بدأ الحشد في الهمهمة القليقة بينما بدأ غالبيتهم في الفرار والتواري إثر رؤيتهم لحارسين من الشرطه يعدوان على مقربة منهم، أدرك "بيجاد" حينئذٍ المصير الذي ينتظره، خاصة وأن صاحب الشرطه السفلية²⁴ ذو الأصول البربرية كان يشتهر بوحشيته في تنفيذ العقوبات، والتي لم تكن تُعارضها أم الملك، وقد كان يحظو بحظوتها في كل ما يفعله، خاصةً وأنها قد رأت أن تلك الفترة البائرة تتطلب عقوبات تردع الجميع أكثر من ذي قبل، فعقد "بيجاد" العزم على الملاذ على الفور، ليدفع "الناصري" بقوة ويطرحه على الأرض ويُفلت من بين يديه، بينما أخذ في العدو بكل ما أوتي له من قوة و"الناصري" من خلفه يصيح به:

- "نحن نسكن نفس الرُقاق أيها اللعين، ولا مفر لك من قبضتي".

تتبع أنظار حارسي الشرطه القاتل البريء لبدأ الركن من خلفه في محاولةٍ منهما للقبض عليه.

كان الخوف هو أكبر دافع في تلك المطاردة، فخوف "بيجاد" من أن يُلاقي مصيرًا لا يستحقه جعل قدميه تركضان في سرعة البرق، فكان يتقاذف وسط العامة كالقردة أملًا في أن يغفلا عن مكانه، بينما كان خوف حارسي الشرطه من العودة إلى صاحب الشرطه خائبي الرجاء دون القبض عليه أقوى بكثير من أن يفشلا في الإمساك به.

استمر ركض "بيجاد" لوقتٍ طويلٍ، ولكن في كل مرة يلتفت بها ويسترق النظر من خلفه يجد الحارسين منصبي النظر نحوه مُقتفيين أثره، حاول إضاعتها عن الطريق، فسلك طريقًا جانبية عِدَّة، حتى أتاه حظه العسير بأن

يصل لأحد الأَرْقَةِ الْمُقْفَلَةِ عند نهايتها، والتي تتجاوز أبواب ديارها المُغلقة على جانبيها، انتفض قلبه فَزَعًا وهو يَنْظر يمينًا ويسارًا من حوله لِيَرَكُضَ مُحَاوَلًا العودة من ذلك الدَّرَبِ دَاعِيًا أَلَا يُلاقِيهِمَا في وجهه، وحينها تعثرت قدماه في قدمٍ طالته بغتَةً لِيَفْتَرِشَ الأرض ويصطدم وجهه بمزبلة بجانب أحد الدِّيارِ، تجمع بعض من الأواني الفخارية المُحطمة والخِرَقِ البالية، ليتأوّه في أَلَمٍ وَيَرْفع بصره في حَوْفٍ نحو صاحِبِ القَدَمِ، فإذا بِرَجُلٍ يُشير له بأن يلتزم الصَّمَتَ، لِيخلع عباءته سريعًا ويُلقِيها فوقه.

أتى صَوْتُ عَتَادِ الشُّرْطَةِ مُصَاحِبًا لأصوات أقدامٍ راکضة على مقربةٍ منهما، لِيَدُسَّ الرَّجُلُ سريعًا إضْبَعَهُ في جَوْفِهِ فيتقيأ ما في أمعائه على الفور فوق العباءة التي تعتلي جسد "بيجاد"، لِيبدأ صَدْرُهُ في مِلءِ الهواء مرة أخرى وقد أراح مِعْدَتَهُ مما بها، حينها ظهر حَارِسَا الشُّرْطَةِ على مَدخل الطريق وهما يتفحصان المكان من أمامها في حَذَرٍ وَتَرَقُّبٍ من أمرهما.

تأمل أحدهما الدِّيار ذات الأبواب والمشربيات المُغلقة وهو يُحَدِّث الآخر:

- "لا يبدو أنه قد أتى من هنا، فلا يوجد استغائهُ أو أثرٌ لاقتحامٍ عُنْوَةٍ".

تقدم الآخر وهو يتفحص المكان لِيَلْحَظَ الرَّجُلَ الذي يُوليهِما ظهره وبجانبه القاتل المُسْتَتِر تحت عباءته، لِيَقْتَرِبَ منه وينظر نحو القِيء الذي غَمَر العباءة التي ينام تحتها صديق الرَّجُلِ، لِيَسْأله مُسْتَنفِرًا دون أن يقترب منه:

- "أيها العجوز، هل رأيت رجلًا غريبًا في الجِوَار هنا؟".

ثم عاد لِيُكْمِلَ:

- "إنه هاربٌ من الشُّرْطَةِ.. يرتدي...".

حينها أشار الرَّجُلُ له بيده ليتمهل في الحديث دون أن يلتفت إليه، ثم تقوَّس ظهره مجددًا ليُريح معدته مما بها مرة أخرى، ليطول قيئه العباءة والأرض التي تُجاوِزها.

نظر الحارس إليه في تقَرُّز، بينما تحرك الآخر نحوه ليحدِّثه:

- "لا جدوى من الحديث لهذا الشَّحات وصُحَّيته العَكِرة، فلتتحرك سريعًا أملاً في اللِّحاق به قبل أن تعجز عن إيجاده".

تراجع رفيقه سريعًا مُشمئزًا وقد طالت رائحة القيء أنفه، ليتحرك مع الآخر ويُعاودا الرِّكض بعيدًا للِّحاق بآثر الغائب.

انقضى وقتٌ قليلٌ حتى هدأ الوضع كليًا، حين ذاك أزاح الرَّجُلُ عبااءته بِقَدَمِهِ من فوق "بيجاد" وساعده على الوقوف، لينهض الأخير وقد عجزت مِعْدَتُهُ عن الاحتمال أكثر من ذلك، ليتقيَّأ في إعياءٍ شديدٍ ما كان بالكاد يستطيع احتمالَه منذ قليل.

وحينما انتهى من فعلته، رفع رأسه ليحدِّث الرَّجُلَ الأُسَيْبَ من أمامه:

- "غريب.. ماذا تفعل هنا؟".

فحدَّثه "غريب" في سخريةٍ منه:

- "لا تأتي لزقاق (الرَّوَاسِين) وتَسْأَل عَمَّا يفعلُه الأَشقياء مثلي في هذا المكان".

لِيسْأَله حينئذٍ "بيجاد" في حيرةٍ من أمره:

- "لماذا أنقذتني؟!".

- "لقد أنقذتك لأنني لا أَمُقُّكَ مثل الجميع، أو لربما أَحْمِل في طيات نفسي ذكريات طَيِّبَةٍ لك ولهذا ساعدتُكَ".

ثم أكمل على الفور بنبرةٍ جادّة:

- "بجانب أنك تَدِين لي عَشْرَةَ دراهم لِقَاء إنقاذي لك، وإن لم تفعل فسأَسْلِمُكَ لِلشُّرْطَةِ بنفسِي".

ثم نظر "غريب" في ضيقٍ إلى عِباءته التي تَلَوْنَت بقيء مِعْدَتِهِ قائلاً:

- "أَحْرِص على أن تنظف عِباءتي وتُعِيدها إلى والدَيِّ مع ما تَدِين لي به".

فَحَدَّثه "بيجاد" في ضيقٍ من أمره:

- "ولكنني لا أَمْتَلِكُ المال الكافي لأجل ذلك".

- "لقد كان لِوالدك أن يَدفع أضعاف ذلك لِرِشْوَةِ أَحَدِ حراس الشُّرْطَةِ لإفلاتك من السَّجْن".

ثم تحرك "غريز" مُبتعدًا عنه وهو يُكْمِل:

- "سأْمُهْلُك يومَيْن لتأتي بما طلبته منك، وإلا فالقصاص سوف يكون على يدي".

لحظات مَرَّت و"بيجاد" يُفكر فيما هو قادم ليعلو صَوْتُهُ تجاهه:

- "سوف أتوارى عن الدَّار لبعض الوقت لدى أحد معارفي.. هلا طَمَأْنَت والدي أنني بخير؟".

فأجابه "غريز" وهو يُكْمِل طريقه دون الالتفات له:

- "لقد أَخْبَرْتُك أنني لا أَمُقُّكَ.. ولكني لا أَجُبُّكَ أيضًا كي أسدي لك معروفًا آخر".

تحرك "غريز" مُبتعدًا عنه ثم بَعَثَ بيديه سَدَائِلَ شَعْرِهِ لَتَنسَابَ على وجهه ويُفَارِقَ مُقَارَبَتَهَا لِلْحَيَّةِ القليل، لِيَبْدَأَ تَحَرُّكَه وقد بدا في هيئته كأنه أحد العَجَرَةِ المُشَرَّدِينَ، فما بين سِتَارِ الظَّلَامِ من فوقه وما بين شرود النَّاسِ في تَكْبِيَّتِهِمْ، لم يكن لأحد أن يُمَيِّزَهُ طيلة طريق العودة حتى وصوله على مقربةٍ من داره، عدا النَّبَاحَ القوي الذي أصدَرَهُ (جَبَلِيّ) نحوه، فَتَعَمَّدَ "غريز" حينها إكْمَالَ طريقَه دون الالتفات إليه مُبتعدًا عنه، نظرت "أم البراء" نحوه وهي تقف بالطَّعام بجوار كليها الذي دَاغَبَ ذيله الهواء في سعادةٍ وهو يَنبِجُ تجاهه، فعلمت على الفور إِثْرَ نُبَاحِ (جَبَلِيّ) من الذي أمامها، تساءلت عن سبب كَشْفِ رَأْسِهِ، الأمر الذي لم تعهده به منذ سنواتٍ طَوَالٍ، ولكن سُرْعَانِ ما تلاشى

ذلك السُّؤال في رأسِها دون أن تسترعي له همًّا، فقد كان يشغلها أمرٌ آخر يُثْقِلُ صَدْرَها.

كان لدى "أم البراء" مَسَاوِرُ أخرى تُثقلها وتكاد أن تُذهب عقلها، لقد بدأت تُدرك اختفاء الكثير من الحيوانات الصَّالة التي كانت ترعاها، بدأ عددهم يتضاءل يومًا بعد يوم، حَشِيَّتْ أن يكون قد جاء اليوم الذي يَقْتَات فيه الجَوْعَى على أي لحمٍ يستطيعون أن يغوروا عليه دون أي عاقبةٍ تطولهم، اعتصر الحُزْنَ قلبَها وهي تُدرك أنه لم يعد في مقدورها تقديم أي مساعدةٍ لأحبائها، حتى الزاد الذي كانت تَجُود به لما تبقى منهم لم تعد تستطيع تَحْمُلُ تكلفته، كان يَعْتصرها الحُزْنَ منذ عدة أيامٍ لسماع صَوْت الحيوانات الجائعةِ تُطالِبها بما اعتادت عليه منها، بينما باتت تَتَوَارَى خلف بابها دون أي حيلةٍ من أمرِها، داعية أن يكون قد يئس أحبائها من المجيء لها لِيَبْحَثوا في مكانٍ آخر عن مَوْرِد طعامٍ آخر، آملَةً في أن يكون هذا سبب اختفائهم وليس السَّبب الآخر الذي تَخْشاه، إنها تشعُر بمعاناة تلك الحيوانات هي الأخرى، فإِنْغاص الجُوع تطرق مِعْدَتَها منذ فترةٍ بعد بَوار تجارتها هي الأخرى، ويُؤرق نومها كلما أسكنت رأسَها ليلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

المخمصة 25

- "عبد الرازق.. استيقظ..".

أفاق الرَّجُل من تَوَمِّهِ جَزِعًا لِيَرْفَعَ رَأْسَهُ نحو رَوْجَتِهِ، كانت حينئذٍ تقف على مَقَرَبَةٍ منه تُرَبَّت على ظهر ابنهما، بينما كان الصَّغِير يقف برأسٍ مُنْكَفِيٍّ نحو الأرض.. نظر "عبد الرازق" إلى وَلَدِهِ الذي كان يفتح فاه كل بضع ثوانٍ لِيَتَقَيَّأَ، فلا يُلامِس الأرض سوى عُصَارَةٍ مِعْدَتِهِ الخاوية.

فنهض سريعًا لِيُرَبَّت على ظَهْرِ قَتَاهِ هو الآخر في حنانٍ والحُزْن يَعْتَصِرُهُ، فالتفت إليه صَغِيرُهُ لِيُحَدِّثَهُ في إعياء:

- "إن القيء يحرق جَوْفِي يا أبي".

ثم أُجِيرَ ظَهْرُهُ مرةً أخرى على التَّقَوُّسِ لِيُكْمِلَ تَقَيُّؤَهُ.

نظر الرَّجُل إلى زوجته لِيَسْأَلَهَا في لهفة:

- "ألا يوجد ما نطعمه إياه؟".

فأومأت برأسها سَلْبًا وهي تُجيبه في غَلْبَةٍ من أَمْرِهَا:

- "لقد قَرِغَ الماء المخلوط بِسَمْنِ جلد الماعز الذي تَدَبَّرْتَهُ لنا منذ يَوْمَيْنِ، ليس لدينا ما يَسِيدُ جُوعَ وَلَدِينَا".

ثم أحاطت بيديها الضعيفتين بطنها التي تأوي وليدها القادم وهي تنظر نحوه باكية:

- "عبد الرازق.. إني أخشى أن يموت وليدنا من الجوع بداخلي قبل أن يُبصر الدنيا".

نظر الرَّجُلُ إلى زوجته التي دَبَلت ملامحها ووهن جسدُها من فقر الطعام وشدة الجوع وهو لا يدري ماذا يفعل، فأدرك وقتها أن عليه أن يتصرف سريعًا..

تحرك "عبد الرازق" على الفور نحو طاولة خشبية في أحد أركان الدَّارِ، والتي كانت تحتوي على جلد الماعز المُهْتَرئ والذي تم تَحْلُهُ من قِبل سَكَّينِ صَدِئِ يَسْكُنُ بجواره، فالتقط السَّكَّينُ ليدسه في جِلبابه ويَهْمُ راحلاً غير مُكْتَرِثٍ بِنداءِ زَوْجَتِهِ المُتَخَوِّفةِ مما هو مُقَدَّمُ عليه، ليُغْلِقَ البابَ من خلفه ويبدأ في التَّحَرُّكِ عازِمًا على إيجاد ما يُغِيثُ عائلته من نكبتها مهما كَلَّفَ الأمرُ.

طَرَقَات قَوِيَّةٌ أَتَتْ على باب دار الشَّيْخِ "صالح" المُلْحَقِ بالمسجد، لِيَقُومَ من جَلِيسَتِهِ في عَجَالَةٍ ويفتح البابَ، فإذ به يُبْصِرُ "عبد الرازق" من أمامه لِيَلْقِي عليه السَّلَامَ، فلم يُلاقِ سَلَامُهُ سوى حديثٍ عاجِلٍ من "عبد الرازق" أَتَى بِتَبَرَةٍ يائِسةٍ:

- "إن عائلتي تُصَارِعُ المَوْتَ جَوْعًا".

فحاول الشَّيْخُ تهدئته لِيُجِيبَهُ بِتَرَوٍّ:

- "إن الله يمتحن إيماننا بِصَبْرِنَا عَلَى الْإِبْتِلَاءِ.. ونحن له لِمُسْلِمُونَ".

- "الصَّبْر! الصَّبْر عَلَى مَاذَا؟! عَلَى رُؤْيَا عَائِلَتِي تَمُوتُ مِنَ التَّضَوُّرِ جَوْعًا..
سَأُطْعِمُهُم الْيَوْمَ مَهْمَا كَلَفَنِي الْأَمْرُ".

لَا حَظَ الشَّيْخُ الْقَلِقُ الَّذِي لَازِمَ تَبَرُّهٍ صَوْتِ "عَبْدِ الرَّازِقِ"، وَحَرَكَةُ يَدِهِ الْمُتَرَدِّدَةِ
وَكأنه يُصَارِعُ الْأَفْكَارَ دَاخِلَهُ عَلَى أَلَّا يَعْزِمَ الْأَمْرَ عَلَى فِعْلَةٍ لَا تَجِدُ لِلَّهِ مِنْ رِضَاءٍ،
فَقَرَّرَ التَّصَرُّفَ حِينَهَا عَلَى الْفَوْرِ.

- "فَلْتَمَهِّلْنِي بِضَعٍ لِحَظَاتٍ، وَسَأُعَاوِدُ الْمَجِيءَ".

قَالَهَا الشَّيْخُ لِيَذِلَّ إِلَى دَارِهِ وَيُعَاوِدَ بَعْدَهَا وَبَيْنَ يَدَيْهِ شَيْءٌ مَا التَّفَقَّتْ حَوْلَهُ
قِطْعَةً مِنَ الْأَقْمِشَةِ الْبَالِيَةِ، ثُمَّ نَاوَلَهُ إِلَى "عَبْدِ الرَّازِقِ" الَّذِي سَارَعَ بِإِبْعَادِهِ
مُتَلَهِّفًا لِرُؤْيَا مَا بِدَاخِلِهَا، كَانَتْ الْقُمَاشَةُ تُغْلَفُ بَعْضَ حَشَائِشِ الْأَرْضِ الَّتِي قَدْ
تَصْلُحُ لِلْأَكْلِ بِجَانِبِ كِسْرَةٍ مِنَ الْخُبْزِ الْقَدِيمِ، وَالَّتِي يَبْدُو أَنَّ الْعَقْنَ قَدْ بَدَأَ يَتَوَعَدُ
بِأَنْ يِنَالَ مِنْ أَطْرَافِهَا فِي الْقَرِيبِ، لِيَسْكُنَ فَوْقَ كِسْرَةِ الْخُبْزِ قِطْعَتَيْنِ
صَغِيرَتَيْنِ مِنْ لُحَاءِ النَّخْلِ.

أَطَالَ "عَبْدُ الرَّازِقِ" النَّظَرَ لَمَّا يَحْكُمُهُ فِي يَدِهِ وَقَدْ تَمَلَّكَ الْإِحْبَاطُ مِنْهُ.. ثُمَّ
التَّفَقَّتْ مُغَادِرًا الْمَكَانَ دُونَ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ لِيَتَحَرَّكَ عَائِدًا إِلَى أَدْرَاجِهِ، وَلَكِنْ
قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى وَجْهِهِ لَمَحَ قِطْعَةً شَارِدَةً تَتَحَرَّكُ نَحْوَ أَحَدِ الْأَرْزَاقِ، لِتَأْتِيَ
خَاطِرُهُ لَهُ لِيَتَتَبِعَهَا فِي حَذَرٍ مِنْهُ أَمَلًا فِي أَنْ تَكُونَ السَّبَبُ فِي نَجَاةِ عَائِلَتِهِ
لِبِضْعَةِ أَيَّامٍ أُخَرَ.

تمددت القطعة الشاردة على الأرض مُعِمَصَةً الْعَيْتَيْنِ تتنفس بصعوبة، وقد أقفر الجُوع ملامحها وأشردَ ذَهنها، فأستل سِكِّينَه وتحرك على هُدًى من أمره لِيَتَّحِينَ الفرصة لِنَفَاز طعنته في ذلك الجسد الواهن.

أطبق حينئذٍ فُكٌّ قوِيٌّ على القطعة من أمام الرَّجُل الذي كان يقف في ذَهول، وقد تلاشت فرصته في الظَّفَر بها هبَاءً، فنظر الرَّجُل إلى (جَبَلِيٍّ) الذي عَرَسَ أسنانه في القفص الصدري للقطعة المسكينة، والتي كانت تُحاول التَّمَلُّص بجسدها من بين فَكَّيْهِ القويَّين دون جَدْوَى، بينما ظل يُطِيحُ بها يمينًا ويسارًا غير مُبالٍ بوجهه الذي امتلأ بخدوش أظافِرها، ثم فتح فاه بعد ذلك لتَسْقُط القطعة التي تُصارِع المَوْتَ أَرَصًا ثم عاودَ لِيُطبق بِفَكَّيْهِ على عُنُقِهَا الصَّغِير بقوة، حتى خارت قواها بعد ثوانٍ وفارقت الحياة.

التقف (جَبَلِيٍّ) جسدها بِفَكَّيْهِ مرَّةً أخرى ثم رفع رأسه للأعلى نحو "عبد الرازق" الواقف على بُعد خطواتٍ قليلة منه.

كان الفِكْر يَتَّصارع داخل رأس "عبد الرازق" وقتها، هل يُحاول أن يظفر بالغنيمة الكُبرى وَيَسْعَى لقتل (جَبَلِيٍّ)؟ أم يرحل بعد أن باء مَسْعَاه بالفشل.

أتت زمجرة غاشمة نحو الرَّجُل لثُني عَزمَتَه عن فكرة الظَّفَر برأس (جَبَلِيٍّ)، فحتى في ظل ظروف الجُوع والصَّعَف التي أصابت كلاهما، لا يزال هذا الهجين العَتِيّ قَادِرًا على الفتك به بسهولة، فحتى يَهْزَالَة جسديَّهما لا زال (جَبَلِيٍّ) لديه من الصَّخامة ما قد يجعل من "عبد الرازق" هو الآخر فريسةً له، فأعاد الرَّجُل سِكِّينَه في جُلُبابه، وتراجع عائداً إلى وجهته لِيَقْبَلَ بما قَسَمَ به القدر لِيَقْتَات عليه هو وأسرُّهُ الأيام المُقبلة.

عاد (جَبَلِيّ) إلى دار "أم البراء" مُطَبِّقًا بِفَكِّهِ عَلَى الجسد المُتَدَلِّي لِلْقِطَةِ،
لِيُسْكِنَهُ أَرْضًا قُرَابَةَ الباب، فَعَلَا ثُبَاحَهُ مَرَاتٍ عِدَّةٍ حَتَّى فَتَحَتْ الْعَجُوزُ بَابَهَا،
اِثْسَعَتْ وَقْتُ ذَاكَ عَيْنَاهَا حُزْنًا حِينَمَا رَأَتْ جِسْدَ تِلْكَ الْقِطَةِ النَّافِقَةِ، إِنَّهَا تَعْرِفُهَا
جَيِّدًا.. لَقَدْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْفُسِ الشَّارِدَةِ الَّتِي كَانَتْ تُطْعِمُهَا يَوْمًا وَهَجَرَتْ الْجَوَارِ
لُذْرَةِ الطَّعَامِ، وَالْغَرِيبِ فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَابِقَ مَعْرِفَتِهَا بِهَا هُوَ سَبَبُ
حُزْنِهَا الْوَحِيدِ، فَقَدْ حَزِنَتْ أَيْضًا لَتَقَبُّلِهَا فِي الْفَتْرَةِ الْأَخِيرَةِ أَنْ يَأْتِيَ (جَبَلِيّ)
بِقَوْتِ يَوْمِهِمْ، فَقَدْ أَتَى بِالْأَمْسِ بِطَائِرٍ نَافِقٍ وَالْيَوْمَ الَّذِي يَسْبِقُهُ كَانَ فَأُزِّ
اسْتَطَاعَتْ بَرَاثَتَهُ أَنْ تَحْقِيقَ بِهِ، هَذَا وَلَمْ تُعْتَفِّهِ الْعَجُوزُ يَوْمًا عَلَى مَا يَأْتِي بِهِ،
فَيَبْدُو أَنْ (جَبَلِيّ) كَانَ يَشْعُرُ بِالْمَحَنَةِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا.

فَقَدْ اعْتَادَتْ فِي الْأَسَابِيعِ الْمُنْصَرِمَةِ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِ الدَّجَاجِ، بَيْنَمَا
بَاتَ الْعَلْفُ أَعْلَى مِنْ أَنْ تَتَحَمَّلَ نَفَقَتَهُ، هَذَا فِي حَالِ وَجُودِهِ مِنَ الْأَصْلِ، وَمَا
تَسْتَطِيعُ تَحْمُلُ نَفَقَةَ شِرَائِهِ لَا يَكْفِي لِإِطْعَامِ الْبَقِيَّةِ، فَبَدَأَتْ الدَّجَاجَاتُ بِالتُّفُوقِ
جَوْعًا الْوَاحِدَةَ تَلُو الْأُخْرَى، لَتَقْتَاتِ هِيَ وَرَفِيقَتُهَا عَلَى مِنْ تُفَارِقُ الْحَيَاةَ مِنْهَا،
وَالآنَ قَدْ حَشَّ الْمَوْتُ الْجَمِيعَ وَفُتِّتَ تِجَارَتُهَا وَبَاتَتْ لَا حِيلَةَ لَهَا فِي الْأَمْرِ سِوَى
تَقَبُّلِ مَا يَأْتِي بِهِ كَلْبُهَا الْوَفِي.

فَنَظَرَتْ حِينئِذٍ إِلَى بَابِ الْمَزْرَعَةِ.. وَقَدْ لَاحَتْ لَهَا (زُرْقَاءُ اللَّيْلِ)، تُطْلُ مِنْ
الْإِخْلَالِ بِبَطْنِهَا الْمُمْتَلِئِ الَّذِي يُبَشِّرُ بِمَجِيءِ وَافِدِينَ جُدَدٍ لِعَائِلَتِهَا الْمُنْكَوْبَةِ.

- "لِمَاذَا تَحَيَّنَ الْقَدَرُ هَذَا الْوَقْتَ بَعَيْنِهِ لِتَأْتِيَ بِجَرَءٍ لَنْ تَعْرِفَ سِوَى الْمَعَانَاةِ؟
حَقًّا إِنَّهَا لِأَيَّامٍ صِعَابٍ".

ارتسمت ابتسامة حزن على وجه "أم البراء" وهي تُحدّث نفسها وقد تحركت بالقرب من (جَبَلِيّ) لُتمسك بالِقِطة النَّافقة، وقد استحصرت رؤيتها لها حينئذٍ مشهّدًا لا يُبارح عقلها يومًا منذ أن رآته، ففي آخر مرة زارت بها السُّوق صادفت أسوأ كابوس قد تُشاهده يومًا، فبعد أن تذر لحم البهائم وبات الحصول عليه أمرًا صَعْب المنال، بدأ الناس في اقتيات لحوم الحيوانات علانيةً دون خجلٍ منهم، فباتت دكاكين القَصَّابين تمتلئ بجثث الحيوانات التي يبيعونها بسعرٍ ليس بالزَّهيد، فلا يتحمَّل نفقته سوى القِلَّة.

أغمضت عَيْنَيْهَا وهي تتذكر رؤية الكلاب والقطط بأعينهم الجاحظة التي سُلِبَت الحياة منهم، مُعلّقين من حناجرهم بالخطاطيف من أمام كل دكان، يقطع القَصَّابين من لحومهم وجلودهم فلا يُترك شيئًا مُهملاً لا يُباع²⁶.

حينها دَفَعَت عن عقلها تلك المَشاهد الشَّنيعة، لُتمسك بالِقِطة النَّافقة وتَدَلَّف لدارها في عجالة، وهي تُشِيخُ النَّظر عَمَّن قد يرى ما قد آلت إليه، خاصَّةً عبْدًا "الناصرى" اللذان تداركا سريعا دُهلها مما قد شاهداه للتو، لم يُديناها بنظراتهما، بل استمرا في التَّحرك قاصدين السُّوق بنفس خائبة الرَّجاء.

كان سيِّدُهما قد أولى لهما مُهمَّة بَيْع أَثمن مُمتلكاته، إنه ثَوْبٌ يعود للخليفة المستنصر كان قد اشتراه من (القاهرة) في أحدِ المرات أثناء زيارته لها²⁷. تكلَّف شراؤه له حينئذٍ ثمن بَيْعه لَعَشْرَةٍ من البهائم، كان يرتديه في فخرٍ وِثْبَاهٍ في المُناسبات والأعياد، بينما تتهافت عليه الأعْيُن الحاسِدة وتتمنى الأيادي أن تطوله.

والآن عليه أن يجمع المال في زمنٍ منكوب، وعلى عبْدَيْهِ التدبّر ويَبْع الثُّوبَ وإلا فستكون عاقبتُهما السَّوء، ولكنهما أدركا فور وصولهما للسُّوق بأن العاقبة ستطولهما لا مَحَالَة، فكلما تَوَعَّلَا داخله أكثر تَيَقَّنَا أن لا شيء ثمين في هذا الزمن سوى الطَّعام، فتأمَّلَا الوجوه الغائرة في السُّوق، وقد تَشَقَّقَتْ شفاهم من العطش، يُذيقون كل حينٍ جَوْقَهُم من الماء العَكر بطمي النَّهر البائر للبقاء على قيد الحياة، أنفاسُهم كريحه جَرَّاء حَوَاءِ مِعْدَتِهِم من الرِّاد، يَهِيمون في السُّوق في أَمَلٍ رَائِف.

لم تَلْتَقْ أَعْيُنُ المارَّة بالتُّوبِ الثَّمين الذي يَحوزانه لمرَّة واحدة، لتَقودَهُمَا أقدامُهما إلى بعض الأماكن التي اعتادا المجيء إليها، حتى وصَّلا إلى مَوْضِع صديقٍ قديمٍ لهما.

إنه "بيجاد" قاتل بهيمة "الناصري"، كان الأمرُ لِيَسْتَمِر على هذه الشَّاكلة، لولا أن أخذت الشُّرْطَة بعد ذلك بشهادة الشَّيْخ الصالح الذي شاهد الموقف وقتها منذ بدايته، هذا لم يَمْنَع أن تَطَلَّب الأمرُ بَذْل بعض الأموال لإرضاء الشُّرْطَة، ولكن في نهاية الأمر عاد "بيجاد" شخصًا بريئًا مرَّةً أخرى.

كان "بيجاد" يقف داخل دُكَّان والده يُلاعب أخَوَيْهِ الصَّغِيرَيْن وقد أطال الرَّمَن من أعمارِهِمَا قَلِيلًا لِيَصْغُبَ أمر السَّيطرة عليهما، يُحاولان تقليد الكبار فيَعْبَثَا بأدواتِهِم، يَطْرَقان على الأواني في عملٍ دؤوب بينما يضحك أخوهما لما يراه من صَنِيعِهِمَا.

فاقترب العَبْدَان منه وما أن رآهما "بيجاد" حتى خرج لملاقاتهما مُحَيَّيًا إياهما، لِيَنْظُرَ إلى ما يُمسك به "قُصِيٍّ" في يده، فلاحَت نظرات التَّعَجُّب منه على

الفور.

- " تَوْبُ الخليفة! أَحَقًّا سوف يُقَدِّم سَيِّدُكُمَا على بَيْعِهِ؟! ".

فأجابه "يوساب" ضاحكًا:

- "أخشى أن القَدَر سوف يُعيدَه له سالمًا دون أن تَمَسَّسه الأيادي.. فنحن لم
نتمكن من عَرَضِهِ على أَحَدٍ حتى الآن".

فَتَلَفَّت "فُصَيِّ" من حوله نحو العامة مُهْمَمًا:

- "انظرا إلى ما آلت إليه أحوال الناس".

ثم وَجَّهَ حَدِيثَهُ إلى "بيجاد" في اهتمامٍ جَلِي:

- "كيف تَتَدَبَّر حَالَك في تلك الفترة الصَّعبة؟".

لِجِبِهِ "بيجاد" في غَلْبَةٍ منه:

- "لقد بات الأمر عَصِيًّا عليّ.. فمع مَرَضِ والدي أصبح العمل كله من نصيبي".

أتى صَوْتُ طَرَق أخيه الذي يَصْغُرُه قوِيًّا من داخل الدُّكَّان، لِيُقَاطِعَ حَدِيثَهُ،
ولكنه ما لَيْث أن عاد لِيُكْمِلَ:

- "هذا بجانب تَوَلَّى رعاية هذين الشَّقِيقَيْنِ، كي لا يُرْهَقا والدي في مرضِهِ".

فسأله "يوساب":

- "وكيف تستطيع تَدُبُّرُ الأموال لتَعول أَسْرَتَكَ؟".

- "تمر أيام طِوال لا تُسْفِر عن شيء، ولكن لا جَدْوَى من الجلوس في الدَّار وانتظار الرزق...".

فأتى صَوْتُ طَرَقَ أَحَوَّيه من جديدٍ لِإِزْعِجَ أخاهما، فَيَضِيقَ صَدْرُهُ مَكْمِلًا:

- "إني أغادر الدَّار مع شروق الشَّمس لمُحاولة التَّحَصُّل على ما يُسْكِن الجُوع، فيرزقني الله في بعض الأحيان باصطياد أحد أسماك الطَّين المُبتلى بنهرٍ غائب، أو أن أرهق نفسي في مُحاولة تَسَلُّقُ بعضًا من النَّخل الذي لا زال يَحْمِل في طَيَّاتِهِ بعضًا من تَحَاتِّهِ... لأَعاود المجيء هنا بعد ذلك لعل أحدٌ يأتي بمطلب عَمَلٍ فَأُلَبِّيهِ له".

حينئذٍ مَارَحَهُ "يوساب" وهو يَلَكِزُ "قُصِيَّ" في كَتِفِهِ قائلاً:

- "لا يوجد أحدٌ في الجِوار يستطيع مُضاهاة قُصِيَّ في تَسَلُّقِ النَّخل".

قاطعهما صَوْتُ بكاء أحد الأَحَوَّين في الداخل ليتحرك أكبرهما إلى الخارج في تَطَفُّلٍ، فأدخله "بيجاد" سريعًا ليُهدئ من رَوْعِ أخيه الآخر، ثم عاد بعد دقائق ليُكْمِلَ الحديث مُمازحًا:

- "هكذا الحال طيلة يومي في الدُّكَّان، فإزعاج صَوْت طَرَقَ الحديد لا يُقَارَن بإزعاجهما الدائم لي".

ثم نظر إلى تَوْبِ الخليفة بينما يُحَدِّثُهُما:

- " وماذا عن هذا الثَّوب، ماذا تنويان فِعله به؟".

أماط "يوساب" شَقَّتِيه وهو يُجيبه:

- "سنحاول بَيِّعه، وإن فَشَلنا فلا حيلة لنا سوى العودة به إلى سَيِّدنا مرةً أخرى".

- "أخشى أن من سَبَقكما قد فَشَل بالفعل فيما تحاولان القيام به".

نظر العبدان إلى "بيجاد" لا يفهمان ما يرمي إليه، فأكَمَل حديثه:

- "يبدو أنكما لم تعرفا ما حدث منذ يومَين في أحد أسواق الفسطاط".

ثم شَرَعَ لِيُكَمِّل الحديث.. فأتى بكاء الأخوين جَرَّاء الصَّراع على حوزة إحدى الأواني لِيَفوز أحدهما بها، ويبدأ في الدأب بطرقها في الأرض، الأمر الذي جعل العَصَب يَتَسَلل إلى نَفْسِه لِيَتَّخِذ بعض الأمتار بعيدًا عن صَوْت شَغِيهما وهو يُكَمِّل:

- "لقد تناثرت الأحاديث عن امرأةٍ من الأثرياء ضاقَ الحالُ بها وبدأ الجُوع يطرق أبوابها، الأمر الذي آل في النَّهاية إلى مُحاولَة بَيْع أعزِّ ممتلكاتها، فأخذت عِقْدًا من اللؤلؤ راغبةً في بَيْعه في السُّوق مُقابل الطَّعام، فلم تجد لرغبتها من مُلَبٍّ، وبعد أن ظلت تحاول بَيْعه لساعاتٍ طويلة لم تُسِفِر عن شيء، أدركت أنه لا جَدوى من حَوَرَتِها له، فأطاحت به غضبًا لِيَسْكُن الأرض وتَرَكته لِتَرحل، ثم أتت للسُّوق بعد ذلك بيوم، فإذا بها تَجِد العُقْد في مَوْضِعه

لم تَمَسَّه الأيدي ²⁸. وكأنه أصبح قطعةً بالية.. فالآن لا شيء يَسْكُن مَحَطَّ
الأنظارِ سوى الرّاد.

نظر العبدان إلى بعضهما البعض وقد عَيَّمت الحَيبة فوق رأسيهما، ليتحدث
"يوساب" مُمازِحًا على الفور:

- "أنا لن يطولني تَغْنِيفُ الناصري لي، فهو يهاؤني حتى وأنا عبدٌ له، كما أني قد
وُكِّلت لحماية الثَّوب وليس بَيْعه".

ثم تَوَجَّه بالحديثِ إلى "قُصِيٍّ" مُكْمِلًا:

- "إنه أنت من سَيُصِيبُكَ الصَّيَّاحُ والسُّباب منذ الآن وحتى مَطْلَعِ قَجَرِ الغد".

حينها حدثه "قُصِيٍّ" بِجَدِّيَّةٍ تامةٍ:

- "فلتَبْذُلِ قُصَارِيَّ جَهْدنا لِبَيْعِ هذا الثَّوبِ اليوم، وإن بَاءَ مَسْعَانَا بِالْفَقْشَلِ وُعْدنا
إليه به لينالني العِقَاب...".

ثم تمهل في الحديثِ لثوانٍ لِيُكْمِلَ مازِحًا وهو يرفع الثَّوبَ للأعلى من أمامه
مُكْمِلًا:

- "فسوف أرتدي ثَوْبَ الخليفة طيلة طريق عَوْدتنا".

ضحك "يوساب" من مُزاح "قُصِيٍّ" لِيَتَبَادَلَ التَّظَارَاتُ الصَّاحِكة مع "بيجاد"،
ولكن ما به إلا وأن وَجَدَ الأخير قد تَجَهَّه وجهه لثوانٍ، وقد اغْتَرَى ذَهْنُهُ شَاغِل.

فلقد مضى وقتٌ ليس بقليل، بدأ بحديث "بيجاد" عن المرأة صاحبة العقْد وانتهى بمُزاح "قُصَيِّ" عن ارتداء ثوب الخليفة، الأمر الذي افتقد إلى الحدوث منذ بداية لقائه بالعبدَيْن.. الصَّوْت غير المنقطع لشَغَبِ أخُوهُ الصَّغِيرَيْن داخل الدُّكَّان.

أَدْرَكَ "بيجاد" وقتها السُّكون الذي طال حديثهم منذ دقائق، لِيُسَارِع بالعودة إلى الدُّكَّان بقلبٍ مُنْخَلَعٍ.. وما لَبِثَ وأن مَرَّقَتْهُ الصَّدْمة إِرْبًا.. فإذ به يُبصر أخاه الأصغر لاهٍ في اللَّعِب بجانب كرسيٍّ خشبيٍّ دون أن يَجِد لأخيه الآخر من أثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

المسغبة 29

أَشْهَرُ مَلِيَّةٍ قَدْ انْقَضَتْ، أَطْبِقُ فِيهَا الْجُوعَ عَلَى النَّفُوسِ، تَنْهَشُ بَرَاثَنَهُ فِي الْعُقُولِ فَتَكَادُ تُذْهِبُهَا، وَفِي الْقُلُوبِ فَتَتَوَخَّشُ لِتُصْبِحَ كَالْحَجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، يَمُوتُ الْكَثِيرُ جَوْعًا بَيْنَمَا يَصْمُدُ الْبَقِيَّةُ فِي مَعَانَا، أَمَلًا فِي أَنْ يَظْلُوا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ حَتَّى انْتِهَاءِ هَذَا الْبَلَاءِ، فَأَكَلَتِ النَّاسُ الْحَيَوَانَاتِ يَسْتَنِي أَنْوَاعَهَا، مَا شَرَدَ مِنْهَا وَمَا اسْتَأْنَسَ وَمَا دَبَّ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى أَنَّهُ بَاتَ لَدَى خَلِيفَةِ الدَّوْلَةِ ثَلَاثَةَ أَفْرَاسٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَمْتَلِكُ عَشْرَةَ آلَافٍ، مَا بَيْنَ قَرَسٍ وَدَابَّةٍ وَجَمَلٍ³⁰. وَالْآنَ أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَحِيلٌ مُمْكِنٌ، وَكُلُّ صَنِيعٍ مُتَوَقَّعٍ.

انْسَلَخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، لَتَحَبُّو الشَّمْسَ بِخُطَايَاها فَوْقَ رُقَاقٍ (أَتْرُجَّة)، لِيَبْدَأَ سَعْيِي عَبْدِي "النَّاصِرِي" فِي مُحَاوَلَاتِهِمَا الْيَائِسَةِ لِلْحَصُولِ عَلَى مَا يُسْكِنُ الْجُوعَ، تَسْلُقُ "قُصِي" التَّخِيلَ الَّذِي طَالَتْ قَامَتُهُ وَصَغُبَ عَلَى الْعِبَادِ اعْتِلَاؤُهُ وَتَسَلَّقُهُ، تُسَاعِدُهُ أَصَابِعُهُ الطَوِيلَةُ عَلَى التَّسَبُّثِ بِهَا بَيْنَمَا يَعْجُزُ الْكَثِيرُ عَنْ ذَلِكَ، لِيَنْخُرَ فِي نَحَاتِهِ فَتَتَسَاقَطَ لَتَفْتَرِشَ الْأَرْضَ مِنْ جِوَارٍ "يُوسَاب"، وَبَيْنَمَا كَانَ الْعَبْدَانِ مُنْشَغِلَيْنِ فِي أَمْرِهِمَا، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ جِوَارِهِمَا أَنْحَفَ الْجُوعَ بُنْيَاتَهُمَا، يَنْظُرَانِ إِلَى مَا يَجْمَعُهُ الْعَبْدَانِ بِنَفْسٍ مُشْتَهِيَةٍ، وَلَكِنْ كَانَ كَالْعَادَةِ يُعْدِلُ سَيْفُ "يُوسَاب" أَيَّ فِكْرَةٍ حَمَقَاءَ قَدْ يُحَاوِلُ الْجُوعَ دَفْعَ أَحَدًا لِلْإِقْدَامِ عَلَيْهَا، فَمَا كَانَ لَهَا مِنْ مُتَنَفِّسٍ سِوَى التَّلْمِزِ وَالْحَدِيثِ الْوَقْحِ، لِيَعْلُو صَوْتُ الْأَوَّلِ وَهُوَ يَحْدُثُ الثَّانِي فِي سَخَرِيَّةٍ:

- "لا أَصَدِّقُ أنْ يَجُورَ عَلَيْنَا الزَّمَنُ لِأَتَمْنَى لو خُلِقْتَ كَالْقِرَدَةِ صِفَةً وَهَيْئَةً، فلا يَنالني مِنَ الجُوعِ أذى".

لُجِيبَهُ الثَّانِي مَارِحًا:

- "وحتى إذا زاد بطش الزَّمنِ أكثرَ، ما تمنيت أن أُؤَلَّدُ مَسَحًا دَمِيمًا يَعتلي النَّخلَ والأشجارَ كهذا".

لم يَلْتَفِتْ إليهما "يوساب" وقتها بل اكتفى بإخراج سَيْفِهِ من غمده، فأسرعا يَهْمَانُ بالابتعاد بعد أن أفاضَا يُقْبِحِ لَسَاتِيَهُمَا، فرفعَ بَصَرَهُ للأعلى بعد ذلك نحو "قُصَيِّ" المهموم في أمره مما سَمِعَهُ للتو، فحدَّثَهُ سَريِعًا وهو يُمَسِّكُ بجذع النَّخلة مُمارِحًا:

- "هيا يا رَجُلُ، فوالله إن لم تُنْهَ عَمَلُكَ سَريِعًا، ما توقفت عن دَفْعِ الجِرْعِ مِرارًا حتى يُطِيحُكَ رَعْفُهَا في الهواء".

ابتسم "قُصَيِّ" من حديث رفيقه لِيَنْخُرَ آخر ما تبقى من النَّحَاطَةِ ويَهِيْطُ بِتَرَوٍ، حتى وقفَ بِجِوَارِ "يوساب"، ليبدأ في التَّحَرُّكِ عَائِدَيْنِ لِدَارِ سَيِّدِيَهُمَا، كان "يوساب" يَمْشِي مُتَكِنًا سَيْفِهِ فوق كَتِفِهِ يَتَمَايَلُ في زَهْوٍ كَعَادَتِهِ، بينما جمع "قُصَيِّ" النَّحَاطَةَ لِيَمْلَأَهَا في قُماشَةٍ وَيَحْمِلَهَا على ظَهْرِهِ، حينئذٍ مَرَّ بِجِوَارِ شَجَرَةٍ عَجُوزٍ تَقِفُ عِوَجًا على مَقَرِبَةٍ من دارِ صَاحِبِ البِهَائِمِ، كانت قد جَفَّتْ أَغْصَانُهَا وَعُقِّمَتِ ثِمَارُهَا منذ أمدٍ طَوِيلٍ، لَتَنْحِنِي أَغْصَانُهَا مَائِلَةً كَانْحِنَاءِ ظَهْرِ عَجُوزٍ، حينها ضرب "يوساب" سَيْفَهُ بِلَهْوٍ في مَبْتَتِيهَا، لَتَسْتَقِرَّ شَفَرَتُهُ في جِرْعِهَا بِقُوَّةٍ لِيَجْذِبَهُ مَجْدَدًا في عِنَادٍ مِنْهَا، فإذا بـ "قُصَيِّ" يَنهَرُهُ:

- " لماذا تُذيق الشَّجرة مَرارة سَيِّفِكَ؟ ألا يَكْفِيكَ ما بها من هوان؟".

حينئذٍ حَدَّثَهُ "يوساب" غير مُبالٍ:

- "لقد باتت شَجرة عقيمة عَوْجاء، لا نفعُ لها ولا ضِراؤُ منها، كالجماد".

فأسند "قُصَيِّ" يَدَهُ على الشَّجرة وهو يُجيبه:

- "توقف عن إيذائها، فما من شيءٍ تُحَسِّنُ إليه إلا ويُحَسِّنُ إليك في النهاية".

أما ط صديقه شَقَيْتُهُ غير مُبالٍ بما يُحَدِّثُهُ به، فإذ بصُراخٍ عالٍ لامرأة يَصَدَحُ في المكان، يتوالى المرة تلو الأخرى دون انقطاع، لِيُعَكِّرَ صَفْوَ اليوم وتُفَتِّحَ الأبوابُ المُغلقة، فيُخرج منها الجيران الغافلون يَرَكضون دون وَعْيٍ نحو المُصيبة التي أحاطت بتلك المرأة، فإذا بهم يَجِدون "أم البراء" تقف خارج دارها بجوار امرأة أخرى، بينما انتَقَصَت (زرقاء اللَّيْلِ) في قَرَعٍ من صياح المرأة لتَلْحَقَ هي الأخرى بِجِرائِها هَلَعًا، والتي كانت تلهو في الخارج وقتها، لتَتْرُكَ جِرائِها ما كانت تَعْبَثُ به منذ لحظاتٍ وتركض خائفةً إلى داخل المزرعة إثرَ صَحيحِ صُراخ تلك المرأة.

فقد رَأَتْ تلك المرأة العَايِرة من جِوارهم منذ قليلٍ شيئًا ما لم تستطع تحديده، التَّتَقَّتِ الجِراء من حوله وكانت تَعْبَثُ به، كان أحد الجِراء الصَّغيرة يُدْخِرُهُ بينما يجذبه آخر بأنياه الصَّغيرة، وسط بُباحٍ طفولي لباقي الجِراء إثرَ هذا التَّشاحُن، ولكن ما لَيْثَ وأن تَبَيَّنَت المرأة ما كان يَحوزتهما، كانت تلك الجِراء تَعْبَثُ حينئذٍ برأسِ طفلٍ صغير تم تَحْرُها وَقَصْلُها، رأسٌ شاحبٌ يُناهزُ صَاحِبَهُ البضعة أعوام، تَعَقَّرَ وجهه بترابِ الأرض، بينما تَلَطَّحَ بدماءٍ مُتَجَلِّطَةٍ

منذ وقتٍ ليس بالبعيد، يفتقد الرأس شَفَتَه السفلى وقد تم نهشها، بينما يمتلئ مَحْجَرُهَا بالتراب الذي غالب أحد جَفَتَيْهَا، لِتَشْخَصَ الْعَيْنُ الأخرى البصر للأمام بروحٍ مُفارقة.

لم تَعلم وقت ذاك "أم البراء" التي خَرَجَتْ إثر صُراخ المرأة ما حَدَث منذ باكِر، فقد خرج (جَبَلِيّ) للبحث عن الرّاد مثل كل يوم، لِيَقُوده سَعْيُهُ للعثور على بقايا تلك الجُثَّة، والتي تم قَطْع أجزاء منها لسهولة إخفائها عن الأعْيُن، فتم دفن البَقِيَّة في باطن الأرض حتى العودة لأخذِ المزيد³¹. لِيَعُودَ (جَبَلِيّ) طافِرًا بما استطاع حَمَلَه لِأُسْرَتِهِ قبل أن تستيقظ صاحبته من تَوَمُّيها.

أتت حينها هَمَّهَمَةُ الجيران الفَزِعة مما يَرون من أَمَامِهِم، لِيَندفع أحدهم إلى الرأسِ ويُمسك به مُحاولًا إمعان النَّظر في ملامِحِه، فأدْرَكَ "بيجاد" أن الرأس الذي يُمسك به بين يَدَيْهِ ليس برأس أخيه المفقود، تَتَفَسَّ الصُّعْدَاء وقت ذاك حين عَلم بأنه لا زال هناك أمل في أن يكون أخوه على قَيْدِ الحياة بعد، ترك الرأس لِيَسْقُط من يده مُخَدِّثًا صَوْت ارتطام بالأرض، لتأتي صَرَخَةٌ فَزِعة من إحداهُنَّ إثر فِعْلَتِهِ، فلم يَهْتَم حين ذاك أو يَلْتَفِت إلى الوجوه القَلِقة من حوله، بل بدأ بالتَّحرك نحو الأمل الذي بات يَخْبو يومًا بعد يوم.

ساعاتٌ مَلِيَّة مضت و"بيجاد" جالسًا أمام دُكَّان والده والَهَم والخُرْن يعتريان صَدْرَه، لقد أَظْلَمَت الدُّنيا وأُغْلِقَت أبوابُها عُثُوة في وجه أُسْرَتِهِ، زاعَ بصر والده حَسْرَةً على ولده الذي فقده "بيجاد" في سَهْوَةٍ منه، تقتله الحسرة وهو لا يعرف مَصِير أخيه حتى تلك اللحظة، هل تم حَطْفُهُ؟ إِدَّا لماذا لم يَصُحُّخْ أو يَصِيح مُناديًا إياه! أم هل خرج عابثًا لِيَتَوَه في وسط زحامِ العامَّة؟ يبدو الأمر

بعيدَ المنال.. لكن ها هو يجلس في الدُّكَّان كل يوم لعل يومًا يأتي ضميْرًا كان غائبًا ليُعيدَه إليه.

يُحاول دائمًا إزاحة فكرة أن يكون أخوه قد قُتِل، يُغْمِض عَيْنَيْهِ وَيَضْرِب رَأْسَهُ بِكَفِّ يَدِهِ فِي أَلَمٍ، كلما حاوَلَ عقله أن يقوِّدَه للواقع الذي يَرفضه، فبعد فناء لَحْم الحيوانات بدأ بعض النَّاس في اللجوء إلى لَحْم البَشَر، يَخطفون الأطفال من ذويهم على عَقْلَةٍ منهم، فكان الرَّجُل يَخطف ابن جاره فيَشوِّيه ويأكله ³². وما هو أسهل من خَطْفِ الأطفال، أولئك من لا يستطيعون التمييز أو المقاومة، يَسْهُل دَبْحُهُم وإخفاؤُهُم، فأُمِسَّت بطون العباد هي المَثوى الأخير للكثير من الأطفال.

يَبدو أن هناك حدثًا جَلَلًا على وشك الحدوث، فقد تَحَرَّكت حينها من جانبه بعض الوجوه القَلِيقَة تَتَعَجَّل في الحديث وهي تُسرع الخُطى لِتَتَكَدَّس داخل جمعٍ من العامة في وسط السُّوق، أشعلت كلمة عابِرة التَّقَطُّطها أذناه الأمل في نفسه، فانتفض ليركض سريعًا مع الرَّكْب.. "لقد قبضوا على أحد المجرمين".

بدأ "بيجاد" في اختراق الجموع المُحْتَشِّدة بصعوبة أَمَلًا في أن يكون في حَوْرَتِهِم أحد خَطَفَةِ الأطفال، ومن وسط هَمِّهِمَة الجَمْع سَمِع صياح جهوري ينادي في العامَّة.

- "لقد كُتِرَت السَّرقة في الآونة الأخيرة، وباتت الأيادي تَمْتد على ما لا تملك، ومن يظن أننا غافلون عمَّا يحدث فسيكون ما ترونه اليوم عِبْرَةً للجميع".

ازداد الفضول في نفس "بيجاد" فأخذ ينغرس في الجَمْع بقوة ليرى بعَيْنِهِ ما يُحَدِّثُهُم به الرَّجُل، بينما عَلا صَوْتُ الرَّجُل مجدداً وهو يُكْمِل:

- "نحن أَعْيُن الدَّولة التي لا تنام، تَتَخَفَى بينكم دون درايةٍ منكم، نُحِيطُكُمْ من كلِّ حَذَبٍ وَصَوْبٍ، وقد أَسْقَرْت جهودنا على القبض على أحد اللصوص الذي كان يَتَحَيَّنُ الفُرصة لسَرِقَةِ طعام أحد العجائز، دون أن يَفْطِن أنه نحن من تَصَبَّنا له ذلك الفخ لِيَقَعَ فيه ويلقى جِزاءه".

وصل "بيجاد" إلى الصُّفوف الأمامية للحشد وهو يُجاهد لرؤية ما يَحْدُث، فكان صَاحِب الشُّرْطَةِ السُّفْلِيَّة يتحرك بخطواتٍ بسيطة في شُمُوخ وهو يتحدث إلى الحشد من أمامه، بينما كان بضُحَيْتِهِ أربعة من حراس الشُّرْطَةِ، يُحِيط ثلاثة منهم بِشَخْصٍ تَحِيل يَجْثُو بِرُكْبَتَيْهِ على الأرض مُنْكَس الرأس في دُلٍّ وَمَهَانٍ.

تحرك صَاحِب الشُّرْطَةِ بعدها إلى السَّارِق لِيَجْذِبَهُ من شعرِ رَأْسِهِ للوراء بقوة وهو يَتَحَدَّث نحوه في غَضَبٍ:

- "اليوم نَعْرِضُ أمامكم مصير كل من يخالف القانون".

اتسعت عينا "بيجاد" غير مُصَدِّق لما يراه من أمامه وقد تَبَيَّن من السَّارِق الذي يَتَحَدَّث صَاحِب الشُّرْطَةِ عنه، إنه "عبد الرازق" يجْثُو في خضوعٍ ذليل بعد أن أذاقت الشُّرْطَةِ جسده وِيلاتِها، فاندفع "بيجاد" بجسده بقوة غاشِمة من وسط الحشد لِيَقِف في الصُّفوف الأولى على مَقْرَبَةٍ من السَّارِق، يَعْجز لسانه عن التُّطْق أو الحديث خَوْفاً من التَّورط فيما لا يُعْنِيهِ فَيَنالُه جِزاءٌ أو بطشٌ من

الشُّرْطَة، فظل حُزْنُه حَيَّسَ صَدْرُه يُراقب في صَمْتٍ ما يُوشِك على الحُدُوث.

تَحَدَّثَ وقت ذاك صَاحِبُ الشُّرْطَة لِلسَّارِقِ بابتسامةٍ سَادِيَّةٍ:

- "والآن حان وقت عِقَابِ الأثمين".

وحينها نظر "عبد الرازق" إلى الحشد من أمامه لثوانٍ، قبل أن يَصِيح وَيَعْلُو صَوْتُهُ بما تبقى له من مَقْدَرَةٍ وَعَظْمٍ.

- "الجوووع".

نظر صَاحِبُ الشُّرْطَة له باستخفافٍ لِيُقْلِتَ رَأْسَه من يَدِه، بينما أشار إلى حَارِسِ الشُّرْطَة الرَّابِعِ، والذي كان يقف خَلْفَهُمْ لِيَسْتَعِدَّ لَتَنْفِيذِ ما سوف يَقَعُ عليه لاحقًا.

أكمل "عبد الرازق" نظراته المُتَوَسِّلَة تجاه الجَمْعِ، وقد مَيَّزَ بَصَرُهُ وقوف "بيجاد" على مَقْرَبَةٍ منه وهو يَنْظُرُ مُشْخِصَ النَّظَرِ نحوه في حُزْنٍ، فصاح عاليًا في حَسْرَةٍ:

- "الجَوُّوع.. إنه يقتات علينا دون أن نقتات نحن على شيء، حتى القُتات لم أَسْتَطِعَ التَّخَصُّلَ عليها منذ وقتٍ طويل.. أيامٌ وَلَّتْ وألم الجُوعِ يعتصر أُسْرَتِي، يُطبق على أرواحنا التي أوشكت على مفارقة أجسادنا، بِتُّ أنظر إلى عِظامِ زوجتي البارزة من صَدْرِها وهي تبكي على جنينٍ هَزِيلٍ يُصارع المَوْتَ في

أحشائها، لقد تغيرت ملامح ولدي الصَّغير من الجُوع والهَزلان، يُفْرِغ مُتَأَلِّمًا
جَوْفَه الخاوي، فلا تُلاقي الأرض منه شيء".

ثم تَكْسَ رأسه في حُزنٍ وهو يُكمل:

- "كنت أظُن أن الحظ قد ابتسم لي في النَّهاية لإنقاذِ عائلتي من المَوْتِ
جَوْعًا، ولم أكن أعلم أنني أتَعَسُّكم حَظًّا".

ثم عاد "عبد الرازق" لِيَنْظُرَ إلى الحشِدِ في عَصَبٍ سَائِلًا إياهم:

- "كلنا نُصارِعُ الجُوعَ كظُلْمَةٍ أَحاطَت حياتنا.. من منكم لن يُقَدِّمَ على فِعْلي إن
وَأَتَتْهُ الفرصة؟ من منكم؟".

تَأَمَّلَ بَنَظَرِهِ الحشود الغارقة في الصَّمْتِ، بعضٌ منهم كان ينظر له بِحُزْنٍ،
والبعض الآخر يُهَمِّهِمُ نحو قُرْنائِهِ في حُفوتٍ، بينما يَنْظُرُ البعض الآخر بِتَرْقُبٍ
لما يفعله حارس الشُّرْطَةِ الرابع من خَلْفِهِ.

كان الحارس يجثو على إحدى رُكْبَتَيْهِ وهو يُصَلِّي سَيْفَهُ بِالنَّارِ الحامية التي كان
قد أشعلها منذ قليل، يُذِيقُ تَصَلُّلَ السَّيْفِ لهيب النَّارِ منذ بعض الوقت، فقام
بعد ذلك من جَنَوتِهِ مُمَسِّكًا بِالنَّصْلِ الذي تَلَوْنَ بِلَوْنِ حِمِيَّةِ الجَمَرِ.

أَلْتَفَّ الحارس من خَلْفِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ لِيَقْتَرِبَ من "عبد الرازق" الذي
أَغْفَلَهُ الحراس الآخرون حينها لِيَدْفَعُوهُ أَرْضًا، فجثا أحدهم بجسده فوق
السَّارِقَ لِيَشْهَلَ حَرَكَتَهُ، بينما أَمْسَكَ الاثنان الآخران يَدَهُ اليُمْنَى وأطالاها للأمام
بقوة، فَعَجَزَ الرَّجُلُ عن إِفلاتِها منهُما وهو يَصْرُخُ في حَوْفٍ رَاجِيًا إياهم.

أغمض "بيجاد" عَيْنَيْهِ في حسرة، وهو يرى الحارس يرفع سَيْفَهُ عاليًا مُنتظرًا أوامر صاحب الشُّرْطَةِ وقد كان، وحينها أطاح بسَيْفِهِ للأسفل ليَصْطَلِّك نصله الحامي بالأرض فاصِلًا قصبة ذراع "عبد الرازق" إلى نصْفَيْنِ.

عجزت الصرخةُ الآتيةُ من حَنْجَرَةِ "عبد الرازق" على وَصْفِ الألم الذي أَحْدَقَ به وقت ذاك، وانتفض العَرَقُ من جَبِينِهِ على الفور، فخارت قواه وقد زاعَت الرؤية عن عَيْنَيْهِ لِيُفَارِقَ الوَعْيَ.

نظر حينئذٍ صاحب الشُّرْطَةِ إلى الحراس فقاموا يَحْمِلُ جسد السارق لِيُعَاوَنُوهُ على الوقوف في غِيَبَةٍ وعي منه، بينما انحنى أَحَدُهُم لِيُمْسِكَ الذَّرَاعَ المَبْتُورَةَ وَيَنْغِزَ بها مَخِيطَ من حديد، ثم أتى بخِيطٍ من القُمَاشِ لِيُمرِّره هو الآخر من خلال الذَّرَاعِ لِيُصْبِحَ ذراع الرَّجُلِ مثل الحقيبة.. حقيبة من لَحْمٍ.

حينها عَلَتْ هَمْهَمَةٌ قَلِقةٌ من العامة.. والتي لم تَلَيْثْ هَمْهَمَتُهُمْ على الانتهاء فور رؤيتهم لصاحب الشُّرْطَةِ وهو يَرْمِقُهُم بنظراته في غَضَبٍ، فأطبق الجميع فاه في حَوْفٍ وخضوع، فأكمل الحارس فِعْلَتَهُ وهو يحمل الخِيطَ المُمْسَكُ بالذراع لِيُطَوِّقَهُ حول رقبة السَّارِقِ، ثم تركوه لِيَتَهَاوُوا وَيُلَاقِي جَسَدَهُ الأرض مرةً أخرى، وهنا صاح صاحب الشُّرْطَةِ في الجَمْعِ:

- "سوف يحمل السَّارِقُ إثمَهُ معه اليوم.. تذكِرةٌ وعبرةٌ لكل من تُسَوِّلُ له نفسه ويُحاول الإقدام على فِعْلَةٍ سوف يكون حسابها معنا نحن".

تحرك صاحب الشُّرْطَةِ لِيَتَّبِعَهُ الحرس في فخرٍ مريض نحو الجَمْعِ من أمامِهِ، لِيَنْشِقَ الحشد سريعًا مُبتَعِدًا عن طريقهم، ثم تعالت تهائمُ العباد وقد بدأ

الحشد في التفرق كلُّ يتحرك في طريقه، مُبتعدين عن مَوْضِع السَّارق، يَكْتَفُونَ بالنَّظر والهِمَّهَمَة نحو الرَّجُلِ المَغْشَى عليه، فولى وقتٌ ليس بالكثير لِيَتَلَاشَى الحشد كليًا كاشِفًا عن اثنين لا زالا يقفان في مكانهما دون أن تضع أقدامُهما مَوْطِنًا آخر.

نظر "بيجاد" إلى الشَّيْخ "صالح" الذي أدْرَكَ وجوده للتو بعد أن انفضَّ الجَمْع من حوله هو الآخر، لِيَتَبَادَلَا نظرة تَحْمِلُ الحُزن والحسرة، فَتَشَجَّجَ "بيجاد" لِلتَّحْرُكِ هو والشَّيْخ "صالح" نحو السَّارق، لِيَجْلِسا أرضًا بجانبه ويُحاولان إفاقته، لَتَمُرَ دقائق عدة حتى أفاق الأخير من غِشِّيَتِهِ.

التَفَّتْ "عبد الرازق" في جَزَعٍ نحو الاثنين وهو يُحاول إفاقة عقله من غفوته، ثم شَعَرَ باحتكاك الخيطِ المُثْقَلِ برقبته لِيَنْظُرَ للأسفل إلى ذراعِ المبتور الذي يتدلى أسفل رقبته، حينها تَدَارَكَ عقله الأمر فأجهش بالبكاء حسرةً على ما أصابه، بينما لَزِمَ الاثنان الصَّمْتَ لا يَدْرِيَانِ ما قد يُحْدِثَانِهِ به.

عاونه الاثنان على التَّهْوِضِ رويدًا.. وما أن تَهَضَّ حتى أَمْسَكَ في حَتَقٍ بيده المُعَافَاةَ حَيْطَ القُمَاشِ من حول رقبته في محاولة لِلتَّخَلُّصِ منه، فأدْرَكَه الشَّيْخ "صالح" سريعًا وهو يُحَدِّثُهُ في خفوت:

- "لا تفعل.. لقد أمر صاحب الشُّرْطَةِ بأن يظل الحَيْطُ مُعَلَّقًا اليوم في رقبتيك أمام العامَّة، أخشى إن أكملت فِعْلَتَكَ فَيَشِي بِكَ أَحَدُهُمْ وَيُقَبِّضَ عليك مرةً أخرى".

فتحرك "بيجاد" من جواره وهو يُرَبِّتُ على كَتِفِهِ قائلاً:

- "هيا بنا.. لتُصحبك إلى الدَّار".

تحرك الثلاثة من وسط الشُّوق وسط تحديق العامَّة لهم، كان البعض يتَّهامس خلسة وهم يُحدِّقون نحو ذراعه المَبْتور وبَقِيَّتِهِ المُعَلَّقَةِ في رقبة صاحِبِها، لثِقَلِ نظراتهم الحُزن في صَدْرِهِ، وهم يُدينونه بما قد تَطَوَّلَ يداهم من فِعْلِهِ في أي وقتٍ إن اضطرَّتهم الحاجةُ لذلك هم الآخرون، والبعض الآخر يتحاشون النَّظر إليه، لعلمهم بأن ما طاله هو عاقبة تَنْظُرهم لا محالة في القريب.

وبعد دقائقٍ من تحركهم وأثناء سَيْرِهِم في إحدى الحواري تنامى إلى مسامع "بيجاد" بكاءٌ عاليًا لأحدِ الأطفال يصدحُ في الطُّرُقَات، نظر الآخَران إلى رفيقهما الذي توقف فجأة مُحاولًا تمييز البكاء بينما تتجلى على وجهه ملامح بزوغ أملٍ غائب، فلا زال "بيجاد" يصبو إلى فكرة أن أخاه لا زال على قَيْدِ الحياة لم يطلُّه بطشٌ أو أذى، مجرد طفلٍ غاب عن أهله وسوف يعودُ يومًا.

أملٌ رَائِفٌ ونظرية واهية، ولكنها كانت كافية لإقناع هذا الرَّجُل اليائس بالْتَمَسِكِ بها، تحرك "بيجاد" سريعًا نحو الصَّوْت الذي تَبَيَّنَ إتيائه من أحد ممرات الأزقة المجاورة ليلحق به الاثنان سريعًا.

توقف "بيجاد" وصُحْبُهُ بغتَةً إثر رؤيتهم لرجُلَيْن يقفان جانبًا بعيدًا، يُمسك أحدهما بيدِ طفلٍ دَبَلَتْ عيناه من كثرة البكاء، يفركهما في حُزنٍ فلا يذرفان الدمع من جديد، بينما الآخر يُوليهما ظهره دون درايةٍ منه بوجود من يراقبونه، لم يكن اللَّيْل قد أدْبَرَ كليًا، الأمر الذي سمح إلى "بيجاد" بتَبَيُّن ملامح الطِّفْلِ الصَّغِير الذي يناهز عمر أخيه المفقود دون أن يشبهه، ولكنه تَمَكَّن أيضًا من تَبَيُّن كُتَيْة أحد الشَّخْصَيْن الواقفَيْن على مرأى منه.. إنه يُميزه جيدًا.

كان الرَّجُل يرتدي عباءة تُغطي جسده وتُستر جبهته، ينساب من جانبيها شعر فضي أشيب، إنه يعرف تلك الهيئة المُتَلَفِّحة بالعباءة المُهترئة التي حَكَمَ القدر بأن تُستر جسده وتُنجِّيه في أحد الأيام.

تصارعت الأفكار في عقل "بيجاد" لما يُبصره، شخص يقف في ضُحبةٍ آخر يقبض بيده على طفلٍ مكروهٍ على أمره في أحد الأزقة الفارغة، في زمنٍ تُتشل الأطفال عُنوة من كَنَفِ أَسْرِهِم، فصرخ "بيجاد" مُناديًا باسم "غريز" بأعلى صَوْتٍ يُمكنه.. وحينها افْتُضِح الأمر، لم يَلْتَفِتْ وقت ذاك "غريز" برأسيه ليرى كُتَيْبة صاحب الصَّوْت الذي يُناديه، ولكن كانت التَّظَرُّات القَلِقة للشَّخص المُصاحِب له قد فضحته، خاصةً بعد أن التَفَّتْ سريعًا إلى صاحب العباءة في ارتباكٍ واضحٍ لِيَفْضِحَ من أمره دون قَصْدٍ منه.

تحرك الاثنان على الفور من مكانهما، ف جذب الرَّجُل الطَّفْل من يده في عجلة لِيُعَاود الأخير أنين بكائه، بينما تحرك "غريز" في الجانب الآخر مُؤَلِّيًا ظهره دون أن يَلْتَفِتْ نحو "بيجاد" ورفيقه، حينها تحرك "بيجاد" في عَصَبٍ لِيُحَاوِلَ اللَّحَاقَ بأيٍّ منهما ولكن تَدَارَكَهُ الشَّيْخُ "صالح" سريعًا قبل أن يُقدم على فِعْلَتِهِ لِيَقْبِضَ على يده قائلاً:

- "أَسْتَخْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَتَمَهَّلَ فِيمَا أَنْتَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ، فنحن لسنا نَدَاً لهَجَامِي الطُّرُقَاتِ وَاللُّصُوصِ".

التَفَّتْ "بيجاد" لِيَنْظُرَ له مُسْتَنَكِرًا وهو يُحَدِّثُهُ:

- "أَسْتَرْكُهُمَا يَخْطِفَانِ الطِّفْلَ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مَنَّا؟! فَوَاللَّهِ لَأَهْلَكَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَحَ لِأَحَدٍ بِأَنْ يُذِيقَ لِعَائِلَةٍ مَرَارَ فَقْدَانِ أَحِبَائِهِمْ".

أَزَادَ الشَّيْخُ مِنْ وَطْأَةِ قَبْضَتِهِ عَلَى يَدِ "بِجَادٍ" وَهُوَ يُجِيبُهُ:

- "لَنْ نَتْرِكَ الْأَمْرَ وَشَأْنَهُ.. وَلَكِنَّا سَنَذْهَبُ عَلَى الْفُورِ لِصَاحِبِ الشُّرْطَةِ وَنُبَلِّغُهُ بِمَا رَأَيْنَاهُ لِلتَّوَمَنِ فِعْلَةً "غَرِيبًا".. وَتُؤَلِّيه أَمْرَ التَّصَرُّفِ مَعَهُ وَإِيقَافِهِ".

ثُمَّ أَكْمَلَ مُتَرَجِّجًا:

- "أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَلَّا تُزْهَقَ رَوْحُكَ بِحِمَاقَةٍ لَنْ تُسْفِرَ عَنْ شَيْءٍ.. سَوْفَ نَذْهَبُ عَلَى الْفُورِ لِوَلَاةِ الْأَمْرِ".

التَفَتَ الْاِثْنَانِ سَرِيعًا إِلَى "عَبْدِ الرَّازِقِ" دُونَ حَدِيثِ مَنِهْمَا، وَقَدْ فَهَمَ مَا يُرِيدَانِ قَوْلَهُ وَلَكِنْ يَلْجُمُ لِسَانُهُمَا الْحَرَجَ، فَعَزِزَ مَقْصِدَهُمَا وَنَوَايَاهُمَا قَائِلًا:

- "فَلْتَذْهَبَا سَرِيعًا وَلَا تَحْمَلَا لِي هَمًّا.. لَقَدْ أَصْبَحْتَ بِخَيْرٍ وَبِوَسْعِي الْعُودَةِ بِمُفْرَدِي".

تَحَرَّكَ الْاِثْنَانِ حِينئِذٍ فِي عَجَالَةٍ مِنْ أَمْرِهِمَا قَاصِدَيْنِ مَخْفَرِ الشُّرْطَةِ السُّفْلِيَّةِ، بَيْنَمَا تَحَرَّكَ هُوَ الْآخَرُ عَائِدًا إِلَى دَارِهِ، كَانَ طَوِيلَةً وَقَدْ عَوَدَتْهُ يَعْتَرِي بِأَلِهِ هَمٌّ مَا هُوَ مُقْبَلٌ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ عَقَدَ الْعِزْمَ عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَتَصَوَّرْ يَوْمًا فَعَلَهُ، حِينَهَا تَقَمَّ عَلَى الزَّمَنِ وَالْقَدْرِ اللَّذِينَ وَضَعَاهُ فِيهِمَا لَمْ يُخَيَّلْ لَهُ يَوْمًا أَنْ يُصِيبَهُ.

اقترب "عبد الرازق" من باب داره وقبل أن يَدْخُلَ إلى الداخل أَمْسَكَ بيده اليُسرى حَيْطَ القُماشِ لِيَنْزِعَهُ عن رَقَبَتِهِ، لِيُوَارِيَ الجزءَ المبتور بين طَيَاتِ جُلْبَابِهِ، لِيَفْتَحَ البابَ ويرى أَسْرَتَهُ المنكوبة على أَمْرِهَا، لِيَلْمَحَ ولده النَّائم على الفراش بينما تجلس رَوْجَتُهُ الواهنة بجواره تُرَبِّتُ عليه في حنان، لَتَلْتَفِتَ الرَّوْجَةُ نحو قدوم رَوْجِهَا بابتسامةٍ تَحُولُتُ سريعًا إلى صرخةٍ قَزِعةٍ لما أبصرته به، انتفضت من مجلسها على الفور لثُهْرولٍ إليه وهي لا تُصدق ما قد حاق به، أطالت النَّظْرَ إلى ذراعه المبتور دون أن يَقْدِرَ فَاها على الحديث أو الاستفسار عَمَّا حدث له.

- "لقد قبضت الشُّرْطَةُ عليّ بِفِعْلَةِ السَّرِقةِ.. وتم تنفيذ الحُكْمِ الباطِش في الحال".

أجهشت رَوْجَتُهُ في البكاء وحديثها يَمْزِجُ الحُزْنَ بالاستنكار:

- "أَسْرِقْتُ يا رَوْجِيّ العزيز؟! كيف سَمَحْتَ لك تَفْسُكُ بأن تملأ أجوافنا بالحرام يومًا؟ فوالله لَصَدَمَتِي بك تفوق حُزْنِي على ما قد أَصَابَكَ".

فصاح بها رَوْجُهَا في عَصَب:

- "وماذا كنتِ تريدين أن أفعل؟ هل أقف مكتوف اليَدَيْنِ أشاهدكما تُقَاربانِ المَوْتَ جَوْعًا يومًا بعد يوم؟".

ثم أشار بيده إلى ولده النَّائم:

- "لن يمر وقتٌ طويلٌ حتى تجدين نفسكِ يومًا تُوقِظين جُثَّةَ هَامِدَةٍ قد فارَقتِ الحياةَ دون أي ذنبٍ لها".

نظرت رَؤُوسَهُ حينئِذٍ إلى ذراعه المبتور التي رفعها لِيُشيرَ بها نحو ولدهما في غفلةٍ منه، فنظر هو الآخر إلى يَدِهِ في حُزْنٍ وهو يكاد يُقسِمُ أنه لم يَعْتَدُ شعور مُفارَقتِها³³.

فتمالكِ نفسكِ من البكاءِ لِيُكْمِلَ مُحَطَّطُهُ:

- "لقد أسَقَرَ ما حدث لي اليوم عن تعاطف أحد القَصَّابين لما قد أصابني، وأعطاني من الزَّاد ما قد يُبقينا على قَيْدِ الحياة بضعة أيامٍ أخرى، حتى أستطيع تَدبُّرُ أَمْرنا لاحقًا".

نظرت رَؤُوسَهُ نحو جانب جُلُبابه الممتلئ بما يُخفيه داخلَه وهي تَمُدُّ يَدَها تجاهه.

- "فلتُعْطِنِي ما قد جاد لك به لأطهوه لنا".

لحظاتٌ عاجلةٌ من الارتباك تَوَارَتْ تحت مَوْجَةٍ من الغضب المُصطنع أتت من "عبد الرازق" وهو يَصِيحُ في افتعالٍ واضح:

- "وَيَحْكُ يا امرأة، هل تظنينني عاجزًا عن طَهي بعض الطَّعامِ لنا".

نظرت له رَؤُوسَهُ في صَمْتٍ دون أن تَدري ما السَّبب وراء حديثه الغريب، لَتُجيبه:

- "أنا لم أَقُلْ هذا.. لقد اَعْتَدْتُ أن أَعِد...".

قاطعها الرُّوْجُ سَريْعًا في حَتَق:

- "عن أي هراءٍ تتحدّثين؟ أنتِ بالكاد تستطيعين الوقوف من شِدَّةِ الوَهْنِ، فها أنا بذراعٍ ونصف، ولكنني أَفُوقُكَ قُدْرَةً وقوة".

ثم أكمل وهو يَلْتَفِتُ جانِبًا للذهاب لإعداد الطَّعام مُتَحاشِيًا النَّظرَ إليها.

- "فَلتَعْرِبِي عن وجهي ولتُسَكِّنِي النَّومَ في جَفَنَيْكَ حتَّى أوقظكما فور انتهائي من إعداد الطَّعام".

لم تَخْطُ الرُّوْجَةَ حُطْوَةً واحدة عن مَوْضِعِهَا، بل ظلت تَقِفُ تَنْظُرُ نحوه بنظراتٍ مُتسائلة، تُحاول تفسير ما يُحاول فِعْله أو يَرمي إليه.

حينها استدار نحوها ودَقَعَ بذراعه نحو صَدْرِهَا لِيَدْفَعَهَا بقوة، والخُزن يُمزقه من الداخل لما يُظهره من قسوةٍ لم يَعتَدُهَا.

- "اللَّعنة عليكِ يا امرأة لقد صِفْتُ بكِ ذرْعًا، فوالله إن لم تُطيعيني وتَعْرِبين عن وجهي في التو، لَيَنطِقَ لساني بما لم تتوقعي مَنِّي يومًا".

تَلَأَّت الدموع في عيني رَوْجَتِهِ وهي تَلْتزم الصَّمْتَ، لتذهب سَريْعًا إلى الفراش وتَحْتَضِن ولَدَهما وتُغمض عَيْنَيْهَا، مُولِيَةً ظهرها نحو رَوْجِهَا المَصْدومة بما أتى من أفعالٍ منذ صباح ذلك اليوم وحتى ذلك الوقت.

وقف زوجها يُراقب تحركات جسدها البسيطة فوق الفراش حتى سَكَتَ كليًا وقد بدا عليها النوم أخيرًا، فعلى الرغم من أن التضور جَوْعًا قد يُورق الجفون عن نُعاسها، إلا أن الحُزن غالبًا ما يكون أقوى مؤثرات النوم.

تحرك "عبد الرازق" على هُدى إلى طاولةٍ موضوعًا فوقها قِدْرَةٌ نحاسية تَسْكُن من جوارها سَكِّينٌ طعام تَلِم من نُدرَة استخدامه، ثم التَقَت سريعًا في لَمحةٍ منه نحو مَوْضِع رَوْجَتِهِ لِيَطْمئن قلبه، لِيَدُس بعد ذلك يَدَهُ اليُسرى داخل جُلبابه ويُخْرِج طرفه المبتور لِيَطرحه على المنضدة من أمامه ويتأمله للحظات.

هذا الذراع الذي قد تغير وبُهِت لونه وجَمَدَت الدِّماء في عروقه، كان السَّبيل دائمًا للحصول على زادٍ كل يوم، ولكنه الآن على وشك أن يُكْمِل مَسْعاه لمرّةٍ أخيرة بأن يُصبح هو زادَ اليوم، لم يكن به الكثير من اللَّحْم لِيُسْمِن ولكنه في أقل الأمور كان كافيًا بأن يُغني عن جَوْع.

لم يكن "عبد الرازق" قَصَّابًا يوميًا، بل إنه حتى لا يَتَذَكّر اليوم الذي زار فيه أحَدَهُم، ولكنه اليوم قَصَّابًا لِنَفْسِهِ وعليه الاجتهاد والالتقان فيما يفعله، فأَمْسَكَ السَّكِّينَ التَّلِم وبدأ في نَحْلِ اللَّحْم عن عَظْم الذراع من أمامه، حاكًا السَّكِّينَ في كل مَوْضِع عازِمًا على ألا يَتَبَقَى ما هو عالقًا من اللَّحْم أو الدُّهْن به، لِيَمِر وقتٌ ليس بالقليل حتى تَتَكَوَّم كُتْلَة من اللَّحْم والدُّهْن فوق المنضدة، فسارَعَ الرَّوْجُ بإشعال الحطب لَتَعْتَلِيه بعد ذلك القِدْرَة النحاسية التي امتلأت بالماء، وقد سَكَن بعض الدُّهْن سطح الماء الذي بدأ بالعَلْيَان من وطأة حرارة النار بأسفله.

دقائقُ مرت وقد أخفى الرّوْجُ عَظْمَ يَدِهِ بعيدًا عن البصر جانبًا، لِيَتِمَّا يجد مَسْكَنًا أبدِيًا له، ثم تحرك بخطواتٍ هادئة نحو مَوْضِعِ رَوْجَتِهِ لِيُرَبَّتَ عليها بحنانٍ في محاولةٍ منه لمصالحتها، مُعلِّلاً قسوته معها لقسوة ما مَرَّ به اليوم، آمِلًا في أن تسامحه، وسعيًا بأنه اليوم قد استطاع أن يُسْكِنَ جُوعَ بطونهما الفارغة بالزّاد، الزاد الذي أعده لهما بيده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضة

أتى ثَبَاحُ الكلبِ طيلة اللَّيْلِ، كان عازِمًا على الدَّهَابِ حتى انصاع له القَدَرُ، فتحرك على هُدًى منه وهو يَشْتَمُ الأرض من أمامه، لم تلتقط أنْفُهُ للزّاد من أثر، فاستمر في الابتعاد عن مَوْضِعِهِ آمِلًا في أن يعثر على مُرَادِهِ، تَخَطَّى الكثير من الأَزِقَّةِ والحواري المُظْلِمَةِ، وقد أغلق النَّاسُ أبوابَهُم وباتوا لا يُبارحونها فور أن يُظللهم ستار اللَّيْلِ الدَّاكن، تردد من ورائه صَوْتُ خَافِئٍ بين الجدران.. فالتَقَّتْ خلقه سريعًا مُنْتَبِهًا لِتَحَرُّكِ أَحَدِهِم، لم تَسْعِفْهُ المشاعل المُطفأة على جَنَبَاتِ الطَّرِيقِ أن يَتَبَيَّنَ أي شيء، فاستمر يَشْتَمُ الأرض من أمامه مُكْمِلًا مَسْعَاه.

ليهوي بعد ذاك بثوانٍ حَجْرٌ ليرطم جانب رأسه ويوقعه أرضًا.. فأخذ في العُواء مُتَأَلِّمًا مما أصابه، وقبل أن يُدرك ما يَحدث، باغته حَجْرٌ آخر أصاب فَكَّهُ السُّفْلِيَّ لِيبَارِحَ مَوْضِعَهُ ويميل جانبًا عن مُسْتَقَرِّهِ، فعلا صَوْتُ الكلبِ أَلَمًا بَعُوءٍ يصل إلى عنانِ السَّمَاءِ دون انقطاع، لتأتي أنظارُ مُخْتَلِسَةِ أَتٍ من مشربيات الدِّيار المُوَصَّدة نحو ما يَجري في الخارج، ولكن سُرْعَانِ ما لَبِثَ غالبيتها بالاختفاء مجددًا دون تَدَخُّلٍ، فلا مَنَاصَ للكلبِ من مُواجهة مصيره وحده الآن.

ظِلَالٌ قَدْ لَاحَتْ فِي الظَّلَامِ لِلْكَلبِ مِنْ أَمَامِهِ، تَتَقَدَّمُ نَحْوَهُ بِخُطَى بَطِيئَةٍ، وَقَدْ
بَاتَ الْخَطَرُ يُوَاجِهُهُ وَيُحِيقُ بِهِ، نَهَضَ الْكَلْبُ عَازِمًا الْفِرَارَ بَعْدَ أَنْ أَفْقَدَهُ فَكَّهُ
أَقْوَى سِلَاحٍ يَمْلِكُهُ، فَإِذَا بَنَصَلٍ حَادٍ يَبْطِشُ بِطَرَقِيهِ الْخَلْفِيِّينَ لِيَفْتَرِشَ الْأَرْضَ
مَجْدَدًا فِي أَلَمٍ، مُحَاوَلًا جَرَّ قَائِمَتَيْهِ الْخَلْفِيِّينَ لِبِضْعَةٍ أَمْتَارَ تَارِكًا أَثَرًا مِنَ الدِّمَاءِ
اللزجة خَلَقَهُ، حَتَّى خَارَتْ قُؤَاهُ وَعَجَزَ عَنْ جَذْبِ بَقِيَّةِ جَسَدِهِ الْعَاجِزِ.

حِينَئِذٍ اقْتَرَبَتِ الظُّلَالُ لَتَقِفَ فِي مُوَاجَهَتِهِ، وَلِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ أَتَى
أَنِيبٌ وَاهِنٌ مِنْ فَكِّهِ الْمَكْسُورِ بَيْنَمَا دَاعَبَ ذَيْلُهُ حَصَى الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِهِ
مُسْتَعْطَفًا مِّنْ أَمَامِهِ، لَتَأْتِيَ رَدَّةُ الْفِعْلِ الَّتِي يَنْتَظَرُهَا عَلَى هَيْئَةٍ هَرَاوَةٍ ثَقِيلَةٍ
سَكَتَتْ أَعْلَى رَأْسِهِ، لِيَرْفَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ صَاحِبُهَا وَقَدْ خَلَّقَتْ مَوْضِعَهَا رَأْسًا
مُهِشَمًا لَا يَتَيَّنُّ مِنْ مَلَامِحِهِ شَيْءٌ، فَيَا لَيْتَ الْاِسْتَعْطَافِ يُجْدِي نَفْعًا فِي هَذَا
الزَّمانِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

البريء

لم يَعُدْ هناك من نَفِيسٍ، فالذِّيار والأموال والخزائن لم تَعُدْ تُساوي شيئًا.. الطَّعام هو العُملة الوحيدة المنشودة، يُحاول الكثيرون الصُّمود والامتناع عن جُرمٍ ما يفعله الآخرون من سَفَكٍ للدماء، فبات حصول المُتَعَفِّفين على رَغِيف الخُبز حُلْمًا يَطْمَحون إليه، قد يبذلون كل نفيسٍ من أجل الحصول عليه، حتى أن بلغ من الأمر أشُدَّهُ، فَبِيعَت حارَةٌ كامِلة في مُقابل طبقٍ³⁴ يجمع حِفْنة من أُرْغَفة الخُبز³⁵.

بعد مرور عدة أيام، تَمَكَّنَت الشُّرْطَة السُّفُلِيَّة في النَّهاية من القبض على "غريز"، لقد تطلب الأمرُ العديد من الحرس للإمساك به بعد صراعٍ دام طويلًا، ليَصْطحبوه من دارِهِ مَعْشِيًا عليه من كثرة الصَّرَب، مُكَبَّلًا بالأَغْلال.

خرجت الأمُّ تُؤَلِّولُ حُرًّا على ما أصاب ولدها، بينما يُحاول الأب جاهدًا تهدئتها وهي تَنْظر إلى العامَّة المُجْتَمِعين أمام دارِهِم، تَدفع بجسدها نحوهم وهي تَصيح بجملَةٍ واحدة.

- "ألا يَكْفِيكُمْ ظُلْمُكُمْ له طيلة حياته.. لَعَنَكم الله جميعًا".

اصطحب الرَّجُل رَوْجَتَهُ المُنْهارة في البكاء إلى داخل الدَّار بعدما رحلت الشُّرْطَة وبصحبتهم ولدهما، وهي في صَدْمَةٍ مما أَدْرَكَته من مُستقبلٍ مُظْلِمٍ ينتظره.

لم يَطْلُ الأمر حتى طرق بابهما طارق، فإذ بالرجل يجد الشيخ "صالح" من أمامه، كان الشيخ يقف وسط الجمع منذ قليلٍ يترقب المشهد، كان قد أثار تَعَجُّبه حديثُ الزوجة عن ظُلمِ ولدها، مَسَّ قلبه شكواها وحُزنها لدرجة جعلته يُشَكِّك فيما أقدم عليه من إبلاغ الشُّرطة لما رآه هو و"بيجاد" منذ أيام.

تحرك الرجل للداخل ومن ورائه الشيخ "صالح"، فنظر الشيخ للزوجة التي أجهشت بالبكاء دون توقف، فإذ بها تنظر له وهي تصيح:

- "لَعَنَكَ الله على شهادتك الظالمة، سوف يكون ولدي خصيم ظلمك له يوم تقفان بين يدي الله".

إنها تعلم بالأمر، لقد حدّث "غريّر" والديه عن رؤية "بيجاد" والشيخ له، كان يعلم أنهما سوف يُبلغان الشُّرطة عما رآياه، حينئذٍ ابتعد عن داره وتوارى لعدة أيامٍ حتى حَبَا حَدْرُه ليأتي يومًا ويزور والديه، لم يكن يعلم وقت ذاك بأن الشُّرطة كانت أكثر مَكْرًا وها هو ذا.

ليُتحدث الشيخ "صالح" وقتها وهو في حيرةٍ من أمره:

- "ما بكِ تتحدثين عن ظلمي لولديك وهو خاطفٌ للأطفال".

فأجابته سريعًا وهي تنهره بعينَيها:

- "سوف يأتي اليوم الذي تعلمون فيه الحقيقة وتندمون.. ولن تُسامحكم على فَعْلَتِكُم ما حِينَا".

حينها تحرك الرّوْج ليقف بجانب رَوْجَتِهِ وَيَقْبِضَ عَلَى كَتِفِهَا لَتَتَوَقَّفَ عَنِ الْبَوَاحِ
بما لا جَدْوَى من الإفصاح عنه الآن، الأمر الذي أشعل الفضول بداخل الشَّيْخِ
أكثر، لِيُحَدِّثَهُمَا سَائِلًا:

- "أَسْتَخْلِفُكُمَا بِاللَّهِ أَنْ تَبُوحَا بِمَكْنُونَاتِكُمَا وَلَا تُخْفِيَا شَيْءًا..."

ثم عاد لِيُكْمِلَ في حيرة:

- "كيف ظلمت ولدكما وقد رأيت فِعْلَتَهُ بَعِيَّتِي".

حينئذٍ أتت إجابة الرَّجُلِ لِلشَّيْخِ صادمة، فقد أَعْلَمَهُ بحقيقة أمرٍ "غريب"، فعلى
عكس ما كان يتوقع الجميع منه، كان بعض ساكني (الفسطاط) يلجؤون لـ
"غريب" لتهديب أطفالهم خارج المدينة، خَوْفًا من المصير الذي بات يُلاقِي
الأطفال بها، فالْمَوْتُ يَحِيقُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ، فإِذَا يَنْتَظِرُهُمُ الْمَوْتُ جُوعًا أَوْ
تَنْتَهِلُهُمُ أَيْدِي الْجَوْعَى لِيُقْتَلُوا وَيُؤْكَلُونَ.

وما قد رآياه سابقًا ولم يُدركاه أن "غريب" كان يَقِفُ مَعَ أَبِي كَانَ قَدْ اصْطَحَبَ
وَلَدَهُ مِنْ كَتَفِ وَالِدَتِهِ لِلتَّو، لِيَأْتِيَ بِهِ إِلَى "غريب" لِيَتَدَبَّرَ شَأْنَ تَرْحَالِهِ بَعِيدًا.

وقف الشَّيْخُ مَشْدُوهُمَا مِمَّا قَدْ أَدْرَكَهُ لِلتَّو، فَلَقَدْ أَدَانَتْ شَهَادَتُهُ شَابًّا بَرِيئًا سَوْفَ
يُلاقِي حَنْقَهُ قَرِيبًا دُونَ ذَنْبٍ لَهُ.

فعزم الشَّيْخُ عَلَى إِصْلَاحِ مَا قَدْ أَفْسَدَهُ، فَمَا بِهِ إِلَّا وَأَنْ عَجَّلَ بِلِقَاءِ "بِجَاد"
لِيُعْلِمَهُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، لِيَقَرَّرَا أَنْ يَتَدَارَكَا قَدَاحَةَ مَا اقْتَرَفَاهُ فِي حَقِّ الرَّجُلِ
الْمَظْلُومِ، كَانَ الشَّيْخُ قَدْ عَلِمَ سَابِقًا مِنْ أَحَدِ الْحُرَسِ أَنَّ الشُّرْطَةَ تَتَوَيَّ تَنْفِيزَ

إعدام جماعي لخطقة الأطفال، ليتم تنفيذه في نهاية هذا الشهر، ولربما تزال هنالك فرصة بعد لإنقاذ رقبة من أداناه بجهلٍ منهما.

أيامٌ قد ولّت ليأتي اليوم الموعود، وتحت سِتار اللَّيْلِ تحرك الشَّيْخُ مُصْطَحَبًا ما تمكن من جَمْعِهِ من زادٍ ليذهب إلى مَحْفَرِ الشُّرْطَةِ، كان المَحْفَرُ مَعْقَلًا صَغِيرًا من الطُّوبِ الحجري يَقِيعُ بداخله المجرمون، تُرْفِرُ عاليًا راياته الخضراء بشعار الفاطمية، يحرس بوابته الخشبية اثنان من الحرس، بينما يقِيعُ ثالثهما على بوابة المَحْفَرِ الداخلية، فتتحرك الشَّيْخُ تجاه حارِسِي البوابة اللذين كانا يقفان في تَمَلُّلٍ من الجُوعِ ووهنٍ من أمرِهِما، لِيَقْتَرِبَ منهما وهو يَصِيحُ وَيُعْلِي من شأن صاحبِ الشُّرْطَةِ ومن تحت إِمْرَتِهِ.

كان الجُوعُ والعطش قد تمكنا من الحراس منذ أيامٍ طويلة، فأربك الجُوعُ عقل الحارِسَيْنِ لِيَتْرَكَا مَوْقِعَهُما ويُسارِعان نحوه لِيَتَنَشَلَا منه نحاة النَّخل وبعض كسرات الخبز، كان الزَّاد بالكاد يَكْفِي لملء جَوْفِ امرئٍ منهما فقط، فأخذا يتصارعان عليه دون هَوَادَةٍ منهما، تتجاذبه الأيادي لِيَتَعَالَى صَوْتُ عِراكهما، فلاحظ الحارس الثالث أمرَهُما حينها لِيَهْرَعَ نحوهما ويُدْرِك الأمر، إنهما يَتَصَارِعَان على زادٍ اشتاق له الجَوْفُ كثيرًا، لِيَنْضُمَ هو الآخر في التَّنَاحُرِ للحصول عليه وحده.

فأخرج الشَّيْخُ "صالح" قِرْبَةً جِلْدِيَّةً تحتوي على ماءٍ عَكِرٍ، فكانت الشِّفَاهُ الْمُتَشَقِّقَةُ ظَمًا والخُلُوقُ الجافة كافية بقبول هذا الماء لترتوي منه، فتتحرك أحدهم لِيَتَنَشَلَ قِرْبَةَ الماء من يده سريعًا وَيَتَجَرَّعَ ما بها، لِيَهْرَعَ رفيقه نحوه ويدفعه لِيَنَالَ بعض الماء هو الآخر، لِيُلاحِظَ ثالثُهُما الذي أغفلاه لثوانٍ وقد أخذ في حَسْرِ الطَّعَامِ في جَوْفِهِ دون هَوَادَةٍ، فأسرعا لِيَخْتطفاه منه سريعًا.

وقف الشَّيْخ والابتسامة على وجهه يُشاهد تَهَاوُت الأيادي المُتَنَاحِرَة على ما قد أتى به، كانت سعادته ليس لما يراه بهم، بل بما يراه من نجاحٍ لَمَسْعا، فكان انشغال الحراس عن عملهم، خاصةً حارس البوابة الداخلية، كفيل بإتاحة الفرصة لـ "بيجاد" بالتَّسَلُّل إلى الداخل، والذي كان قد تَسَلَّق السُّور الجانبي للمَحْفَر منذ قليلٍ بالفعل، يَنتظر الفرصة السانحة لانشغال الحارس الثالث، وها هو يراه لاهيًّا في أمره يَتَصَارَع هو ورفقاؤه على الرِّاد دون درايةٍ بوجوده، لِيَدْلِف إلى المَحْفَر بحثًا عَمَّن جاء لأجله.

تحرك "بيجاد" داخل الممرات الحجرية التي يتلأأ وهج المشاعل على جانبي جدرانها، أمعن "بيجاد" النَّظر فيما يمر عليه لتَعْبُر حُطَاه بجانب أحد المساجين حبس زنارته الصَّدِئَة، كان الرَّجُل مُلقى على الأرض يعلو صَدْرُه في بطءٍ وكأن الحياة على وشك مُقَارَقَتِهِ، فتوقف لثوانٍ لِيَتَبَيَّن ملامحه.. ثم تحرك ليُكْمِل طريقه، وبمجرد أن تخطى زنزانه أخرى حَسِبها خاوية، حتى قبضت يدُ هزيلة على جُلُبابه لِيَلْتَفِت إلى جانبه سريعًا، فإذ به يجد رَجُلًا يجثو على الأرض وقد تَبَدلت ملامِح وجهه من الصَّعْف، لِيُقَرَّب وجهه من بين أسوار زنارته راجيًا إياه.

- "أريد شَرَبَة ماء".

أفلت "بيجاد" جُلُبابه من يد الرَّجُل العظمية الواهنة لِيَتَحَرَّك سريعًا، بينما لاحقه نظرات الرَّجُل اليائسة ليُكْمِل طريقه مُنْتَهِكًا درجات السُّلم العُلوي، حينئذٍ لاحت له رائحة مُتَفَرِّة تفوح في الأجواء، فيبدو أن الطابق العُلوي من المَحْفَر يحتوي على القَتلة والسَّفاحين الذين تم إهمالهم دون أدنى شَفقة تجاههم، أناسٌ مُكَبَّلون بالأصفاد على الجدران، البعض منهم قد تَبَرَّز في

مَوْضِعِهِ دون أدنى فرصة لِيَسْتَرِ حَرَجَهُ، والبعض الآخر قد خارت قواه لِيَتْرَكَ جِمْلاً جسده أرضاً فَتُجَاهِدَ أطرافه الانفصال عنه، أمعن "بيجاد" النَّظَرُ في الوجوه التي لا تَسْتَحِقُّ أي نظرة رحمة أو شَفَقَةٍ منه، حتى عثر على ضالَّته أخيراً.

تحرك نحو رجلٍ مُتَكَسِّسِ الرأسِ، تغيب ملامحُه تحت شَيْبِ شعره المُتَسَاقِطِ على وجهه، تَخَصَّبَ شَيْبُ لِحْيَتِهِ بدماءٍ مُتَجَلِّطَةٍ، بينما باتت سَحَجَاتُ بطش الحرس مَلِيَّةً على جسده، حينها اقترب "بيجاد" نحوه لِيَرْفَعَ من رأسه المُتَكَسِّسِ، فَحَدَّثَهُ "غرير" في ضعفٍ منه، مُشْخِصَ البَصَرِ نحو الأرض قائلاً:

- "هل حان مَوْعِدُ بطشكم بهذه السرعة؟".

- "بل حان وقت مغادرتك".

رفع "غرير" نظره نحو "بيجاد" الذي أَسْتَلَّ مِعْوَلًا حديدًا من جانبه لِيَضَعَهُ في جَوْفِ الأصْفَادِ لِتَتَيْنَ مُعلنة استسلامها أمام عَزْمِهِ، لِيَقَعَ "غرير" أرضاً بقوى خائفة، فعاونه "بيجاد" على التُّهُوْضِ لِيَتَحَرَّكَ للأسفل نحو المخرج، أملاً في الهروب سريعاً دون أن يَلْقِيَا في مواجهتهما أحد حراس المَحْفَرِ.

لقد كان الجُوعُ أقوى منه، طال تنازع حارس الشُّرْطَةِ مع رفيقِهِ على الطَّعَامِ، لِيَسْتَلَّ في نهاية الأمر سَيْفَهُ وَيُسْكِنَهُ في صَدْرِ أَحَدِهِمَا، فهوى على الأرضِ صَريعاً دون حَرَكَ، لم يُصَدِّقْ ما فَعَلَهُ عقله المُشَوَّشُ به، لِيُدْرِكَ أنه لا رجعة بعد ذلك فيما هو قادم، فَيُسَارِعُ نحو الأخير الذي لم يكن قد تدارك الأمر بعد، لِيُبَاغِتَ رقبته بَنَصْلٍ سَيْفِهِ فيلحق برفيقه في ثوانٍ.

وقف في سُروِدٍ أمامِ فِعْلَتِهِ لا يُصدّق ما اقترفته يداه، لِيَجْثُو على الأرض حينئذٍ ويَحْشُو ما تبقى من طعامٍ في قَمِيهِ، وعقله لا يَسْتَرعيه سوى أمرٍ واحد.. أن يُسَكِّتَ مَطالِبَ الجُوع بداخله.

كان ذلك الحارس مَلْهِيًّا في أمره دون أن يُدرك إتاحتها الفرصة ليلوذ الاثنان بالفرار بعيدًا، لِيَتَقَابَلا بعد ذلك مع الشَّيْخ "صالح" على مَبْعَدَةٍ من المَخْفَر المنكوب، لِيَقِف "غريّر" مُسْتَنَدًا على كَتِفِ "بيجاد" في وَهْن، فنظر إليهما الشَّيْخ مُتَحَدِّثًا فيما هو آتٍ.

- "إلى أين نصحه الآن؟".

- "لا أعلم.. فلن تَلِيثَ الشُّرْطَةُ إلا وأن تُحاصِرَ دارَه مجددًا.. لربما نستطيع...".

حينها أتى صَوْتُ خفيضٍ لـ "غريّر" مُقاطِعًا إياهما:

- "فلتصحباني إلى دارِ المُقامِر".

كان صاحب دار المُقامِر يجلس في مَوْضِعِهِ بنظراتٍ حَذِرَةٍ نحو قدومهم، يكاد يُقْسِم إن لم يكن الدَّار بيته لهَجَرَهُ من زمنٍ بعيد، كان المكان خالٍ على عروشهِ وقت وصولهم، فما تَخَصَّصَ لَعَرَبَةِ الفاطميين بات كالصحاري الغابرة، تَعْتَلِي المقاعد والطاولات طبقاتٌ من أتربة لم تُبَارِحْ مَوْضِعُهَا منذ وقتٍ طويل، لم يَعدْ أحدٌ يَأْتِي إلى هنا، فلا توجد أنفُس تحتاج إلى الترويح وليس بالأجساد قوى لَتَشْتَهِي غرائزها الشَّهَوَات، حتى المقامِرون باتوا خائفين من المُقَامَرَةِ على حياتِهِم بالتَّحَرُّك ليلًا والمجيء إلى هنا.

فجلس الثلاثة على إحدى الطاويلات وقد أسند "غريز" رأسه بين راحة يديه في إنهاك، ليأتي صاحب الدار ويضع كأسين من الماء الراكد الذي تأبى الحناجر الجافة قبوله، ليعود إلى مكانه المعتاد مرة أخرى، بينما تبادل الآخران النظرات القليقة من حولهما.

- "كيف تستطيع تهريب الأطفال خارج الفسطاط؟".

رفع "غريز" هامته نحو الشيخ "صالح" المتوجس في شأنه بالفعل ليُجيبه:

- "لقد انقطعت الطُّرُق برًّا وبحرًا إلا بالخقارة الكبيرة⁽³⁶⁾، تتحسس طريقها تحت سِتار اللَّيْلِ نحو وجهتها إلى بلادٍ لا زال أملُ الحياة بها قَتِيَّ".

- "ولماذا يتم تهريب الأطفال فقط؟ لماذا لا يكون شأن الكبار شأنهم؟".

- التفت "غريز" إلى "بيجاد" ليُجيبه:

- "تتحرك الخقارة بقوارير تُحْمَل على جنبات الجمال، وبداخلها يتم إخفاء الأطفال لصغر حجمهم، فالأمر بالكاد يكفي للتخايل وإخفاء أمر طفلٍ أو اثنين بالأكثر في كل مرة، حتى لا يَفْطن أحدٌ ويُفْصح أمر تهريبهم".

وهنا أتى استفسارٌ أخيرٌ ليزيل الغموض عن أهم سؤال يحتاج "غريز" للإجابة عنه:

- "ومن الذي يُعاونك في تنفيذ هذا الشأن؟ وما الذي يعود عليه من نفع؟ والأهم من ذلك... ما الذي يعود عليك أنت؟".

ابتسم "غريـر" لئـجـيـب الشـيـخ "صـالـح":

- "لقد تَدَارَكَت الأمر بشكلٍ خاطئٍ أيها الشَّيْخ، إنه أنا من يُعاون هذا الرَّجُل وليس العكس".

ثم أخذ من شهيـقه مَلِيًّا لِيَبُوح بما يـحـتـاج الشَّيْخ إلى معرفته ليُكْمِل:

- "منذ فترة ليست بالقصيرة، وجد الشَّيْخ "الحكم بن أبي الصَّلَت" إليَّ سبيلًا، وقد حَدَّثَني عما يدور في ذهنه من شَاغِلٍ، لِيَعرض عليَّ العمل تحت إِمْرَتِه مُقابل جزء من الرِّيح الذي يحوزه وقت ذاك، لأُشِيع للأمرِ شَأْن، فيتواصل معي كل مُريدٍ وباغٍ لأن يعيش أطفاله لأبعد من الغد".

تحدث "بيجاد" على الفور وقد استرعى قول "غريـر" أمرًا في نفسيـه فسارع بالإفصاح عنه:

- "وما الرِّيح الذي يحوزه هذا الرَّجُل مُقابل مُساعداته؟".

فأجابه دون تَرَوُّ من أمرِه:

- "صُكُوكِ مِلْكِيَةِ الدِّيَار التي يتم تقديم العَوْث لأصحابها".

طرقت الصدمة مما سمعاه للتو عقليهما، لِيَنْظرا إلى وجه "غريـر" الذي بَهَّتَتْ عنه المشاعر وهو يُكْمِل حديثه:

- "وليَّ مُقْتَطَعُ صَكٍّ من كل خمسةٍ صُكُوكِ أَحْصِدها لأبي الصَّلَت.. على أن يتم المطالبة بها بعد انتهاء تلك الأزمة".

ثم ضحك ساخرًا:

- "يمكنك القول بأنني أمتلك من الديار ما يُمكنني من عيشة رَغدة بعد انقضاء تلك الأُزمة".

قَلَّتْ لِحَامُ الصَّبْرِ مِنَ الشَّيْخِ "صالح"، لِيُسَارِعَ فِي تَهْرِ "غريز" قائلاً:

- "أتجردان الناس من ديارها لتنعم بها بعد حين؟! والله لتلك أخبت من أفعال إبليس الرجيم".

حينئذٍ باغت الأَشْيَبُ بِالرَّدِّ عَلَى مَا يُوصِمُهُ الشَّيْخُ بِهِ قائلاً:

- "أنا لست بشخصٍ خبيثٍ في تلك الأيام، فما تَعتبره من فِعْلةٍ مَذْمُومةٍ لا تُقَارَنُ بما يفعله البعض في الخارج الآن، لقد تَخَلَّى الكثير عن أَدَمِيَّتِهِمْ وصاروا كالصَّواري، تقود نفوسهم غريزة الجُوع فلا يَغْتَفُونَ رَقَبَةً أو يرحمون ضعفاً.. أنا لا أُجِيرُ أَحَدًا عَلَى اللُّجُوءِ إِلَيَّ".

ثم اقترب من وجهيهما لِيُحَدِّثَهُمَا في جمود:

- "لسوف أفصح لكما سرًا، إن في نهاية كل وداعٍ لِمُفَارِقِ ذُوِيهِ، يَمْتَثُونَ دَائِمًا لِصَنِيعِي، أتعلمون ما السَّبَبُ وراء ذلك؟".

ثم عاد لِيَتَكَيَّ عَلَى الكُرْسِيِّ مِنْ خَلْفِهِ مُكْمِلًا:

- "لأن في مكنوناتهم قناعة لن تُرْعَرَ، بأن أغلبهم لن يعيشوا أمدًا لِيَتَخَطُوا هذا البلاء وَبَرُونَ ذُوِيهِمْ مرةً أخرى".

طال الحديث لوقتٍ ليس بالكثير، لتَنبَه إحدى عَاهرات المكان لتَوَاجِد الزائرين وتخرج بِصُحْبَةٍ أُخْرَى من جحرتها التي انْزَوَيْتَا بداخلها منذ فترةٍ طويلة حتى لاح لهما صيدٌ جديد، لتَنَحَرِكا نحو الْأَشْيَب وَرَفِيقَيْهِ، حينها تمايلتا في أنوثَةٍ مُصطنعة لم يُساعد شحوبهما أو يَنْيُئُهما العظمية البارزة إجادتها، لُحِيطَ إحداهما برقبة "غريـر" بينما أبعدت نظرات الشَّيْخ "صالح" الأخرى عن الاقتراب منه، فما بها إلا وأن عََلَتْ نَفْسَهَا فوق مَوْضِع "بيجاد"، الأمرُ الذي زاد من حِمرة وجهه خَجَلًا، وهنا قبض "غريـر" على اليدِ الهزيلة للفتاة التي تُحِيطُ بِذراعَيْهَا وهو يُحَدِّثُهَا في ضيقٍ من أَمْرِهِ:

- "إن الوقت ليس مناسب لِكَي...".

- "أغشنا من هذا المكان.. أتوسل إليك".

أتى الصَّوت الخفيض للفتاة لِيَبْثُرَ حديث "غريـر"، فما بها إلا وأن أكملت الحديث بوجهٍ يَحْمِلُ ابتسامَةً مُصْطَنَعَةً، تُخْفِي نوايا حديثها عن نظر صاحب الدَّار الذي كان يضعهما نُصْبَ عينيه طيلة الوقت.

- "سوف يطول المَوْتُ أرواحنا في القريب".

جذب "غريـر" المرأة بقوة لِيُجْلِسَهَا على فخذِهِ وهو يُحَدِّثُهَا بوجهٍ يصطنع الشَّهوات:

- "هلا أخبرتني بشأنك؟".

حينئذٍ أنصت الجميع لما سوف تُحدِّثُه به، فداعبت شعر "غريز" في أنوثَةٍ منها وهي تُحدِّثُه بجديّة تستتر تحت أسلوب حديثها اللّعب:

- "لقد كنت أعمل جارية لدى أحد سادة (القطائع) ³⁷. ومع استمرار البلاء تَرَحُّتُ إلى هنا خوفاً من المجهول الذي ينتظرني، ليقود حظي العسير قدَمَيَّ للمجيء والعمل هنا خوفاً من عثور سيّدي عليّ، فأواني صاحب الدّار في مُقابل العمل لديه".

فَهَمَّت الفتاةُ الأخرى لُكْمِلَ بَقِيَّةَ الحديث وهي تنظر نحو رفيقتها:

- "لقد جاءتنا هي وفتاة أخرى بعد هَرَبِ باقي الفتيات اللاتي كُنَّ يَعْمَلْنَ هنا، ومنذ ذلك الحين وقد بات الحال من سيئٍ إلى أسوأ، فبعد أن عَظُمَت المَشَقَّةُ في الترويح عن الأنفس العَكرة، ازداد الأمر سوءاً لِيَنفُضَ المَقامرون والسَّكارى، ولا نجد للمُشْتَهِين من قدوم، فَيُنْثَرِ حُطامًا عالة على صاحب الدّار، ولكن الآن قد أتى الخطر لِيَطْرُقَ باب دار المُقامر ولا نأمن على أنفسنا حتى الغد".

التفت "غريز" إلى رفيقته وهو يسألها في فضول:

- "ما الذي تقصدانه بذلك؟".

لُجِبِه قائلة:

- "أخشى أن صاحب الدّار قد يقتلنا مثلما قتل صديقتي منذ أيام".

حينئذٍ اختلست نظرة نحو صاحب الدَّار المُتَرَبِّص بهما، لتستمر في خِداعه،
وُثِرِج رأسها إلى صَدْرٍ "غريِر" وهي تُكْمِل حديثها الخافت:

- "إن المكان يخلو من الزائرين عدا واحدٍ فقط، يَحْمِيه بضعةٌ من الحرس
الذين ينتظرونه دَوْمًا في الخارج، لِيَجْلِس مع صاحب الدَّار يتحدثان دون أن
يُذاع لهما سرًّا، فلا يمر يوم أو اثنان إلا وتختفي إحدى خليلاتنا دون أي أثرٍ أو
سابقٍ إنذار".

ثم كادت الدموع أن تَفْضِحَ من أمرِها وهي تتحدث في حُزن:

- "ومنذ أيامٍ معدودات أتى ذلك اللعين إلى هنا، لتختفي بعد ذلك "ماريا".. أَعَزَّ
صديقة لي، وقد عَلَّلَ صاحب الدَّار ذلك بهروبها ليلاً".

فتحدث الشَّيْخ "صالح" للمرة الأولى منذ قدوم فتاتي اللَّيْل بالحديث لها قائلاً:

- "ولم لا يكون هذا ما حدث بالفعل، ألم تقولا إن غالبية نساء المكان قد
هَجَرَتْه بالفعل قبل مجيئكما؟".

حينها أشارت بأناملها في هدوءٍ نحو سلسلة تعتلي صَدْرَها الذي لاحت ثنایات
عظامه من خلفِ جلدها الرَّقيق، كانت تلك السلسلة على شاكلة طائر صغير
مُزركش يمتد له منقارٌ طويل، لُجِبه في حُزن:

- "تلك تخص "ماريا"، أعطاهَا لها والدُّها في الصَّغر، إنها لا تُبارح رقبتها طيلة
يومها، حتى يأتي اللَّيْل فتضعها تحت وسادة رأسِها، فلقد اعتادت فعل ذلك
منذ زمنٍ بعيدٍ حيث كان مِنقار الطائر يَنْغُز صدرها أَلْمًا أثناء نومها".

ثم عادت لتُكْمِل:

- "وقبل اختفائها بيوم، جلسنا نتسامر حتى تَمَلَّكَهَا الثُّعَاسُ لَتَضَعُ عَزِيزَتَهَا تحت وسادة رأسِها وَيَسْتَسْلِمَ جَفْنَاهَا للنوم، وما أن استيقظنا حتى لم نجد لها أثر، لقد اختفت تاركةً من ورائها كل غرضٍ لها حتى تلك السلسلة الثَّمِينَةُ على قلبها.. لتأتي الإجابة من صاحب الدَّار على سؤالنا كالمعتاد... لقد هَرَبَتْ لَيْلاً".

فنظر "بيجاد" إلى تعليقة صَدْرِها وهو يُحدثها في خفوت:

- "وكيف ترتدينها وقد يَفْضَحُ ذلك من معرفته لما تَشُكَّان به؟".

حينئذٍ تَحَلَّتِ الفتاة عن حَذَرِها دون انتباهٍ منها وقد علا صَوْتُ يَأْسِها:

- "وكان هذا الدَّاعِرُ يسترعيه ما نرتديه على صدورنا، نحن عاهرات وغايةً له كأَيِّ جمادٍ هنا، فهو لا يُمَعِّنُ النَّظَرَ بنا مثلما لا يُمَعِّنُ النَّظَرَ في خِرْقَتِهِ التي اعتاد أن يُنظف بها المكان من عُبارِهِ".

تَذَارَكَت صديقتها الحديث في عجالة وهي تُكْمِلُ في تَرَجٍّ:

- "لقد جاء البارحة الرَّجُلُ إلى صاحب الدَّار مجدداً، ولن يَلْبِثَ أن يمر يومٌ أو اثنان حتى تختفي إحدانا".

فَعَمَّ الصَّمْتُ وازداد الوَضْعُ توتراً، فكان "غريِر" يُجالس شرود عقله منذ أن بدأت الفتاتان في الحديث، لِيَقْطَعَ حينها صَمَّتَهُ المُطْبِق ويسأل الشَّيْخ "صالح" على الفور:

- "هل نستطيع إيجاد ملاذًا تَسْكُنُهُ هاتان الفتاتان بعيدًا عن جُحر الأفاعي هذا؟".

لِيُجِيبَهُ الشَّيْخُ دُونَ تَرَدُّدٍ مِنْ أَمْرِهِ:

- "سَتَسْتَضِيْفُهُمَا أَنَا وَزَوْجَتِي فِي دَارِنَا.. وَاللَّهِ خَيْرَ حَافِظًا لَنَا وَلَهُمَا".

- "فَلتَأْخُذْهُمَا مَعَكَ وَلْتُبَارِحَا الْمَكَانَ عَلَى الْفَوْرِ".

ثُمَّ قَبِضَ "غَرِير" يَدَهُ فِي عَصَبٍ وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَ صَاحِبِ الدَّارِ فِي تَرَصُّدٍ:

- "أَمَّا أَنَا فَسَوْفَ أُذِيقُهُ مِنَ الْهَوْلِ تَجَرُّعًا.. فَهَذَا شَأْنٌ سَوْفَ أَسْعِدُ بِفِعْلِهِ دُونَ مِقَابِلٍ".

فَحَدَّثَهُ "بِجَاد" فِي قَلْقٍ:

- "وَأَيْنَ سَوْفَ تُلَاقِيكَ مَجْدَدًا؟".

- "إِنْ الْعُودَةُ لِلزُّقَاقِ الْيَوْمَ أَوْ مَا يَلِيهِ لَهُوَ صَرَبٌ مِنَ الْجَنُونِ، لَدِي مِنْ صُحْبَةِ اللَّيْلِ مَا يَكْفِينِي لِلنَّوَارِي عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى أَتَدَبَّرَ مِنْ أَمْرِي شَأْنًا".

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ مَارِحًا:

- " فَلتُطَمِّنِنَا وَالِدَيَّ أَنِّي لَمْ أَلِاقْ مَصِيرِي بَعْدَ، فَأَنَا لَنْ أَسْتَطِيعَ الدَّهَابَ لَهُمَا قِطْعًا تِلْكَ الْأَيَّامَ.. فَلَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ".

انتصب "غرير" من مجلسه بعد ذلك لِيَتَّبِعَ فِعْلَهُ الجميع، حينئذٍ تحرك صاحب الدَّار نحوهم مُتَّاقِلًا دون درايةٍ منه بما هو قادم.

- "فلتتحركوا الآن، ولا تلتفتوا خلقكم".

بدأ الجميع بالعَدُو للخارج وما كان من الشَّيْخ بعد ذلك إلا أن التَّفَتَ مُحْتَلِسَ النَّظَرِ خلقه، لِيَجِدَ "غرير" وقد أطاح بكرسيِّ خشبيٍّ نحو الرَّجُل لِيَتَّهَشَمَ فوق رأسِهِ، ثم تحرك لِيَعْتَلِيَ جسده المَعْشِي عليه لِيُذِيْقَهُ من الألم والعذاب أَمَرَّهُ.

طرقاُتُ عاجلةٌ أصابت الباب، لَتَفْتَحَ رَوْجَةُ الشَّيْخ "صالح" الباب وتراه وضُحْبَتَهُ، فتقدم بخطىٍ قليلةٍ عن الجميع لِيُحَدِّثَ رَوْجَتَهُ بصَوْتٍ خَفِيفٍ، بينما كانت تنظر في تَعَجُّبٍ ممن قد جلبهما معه.

- "لدي بِضُحْبَتِي ضيفتان، ستقيمان لدينا حتى نجد للأمر من مُيَسَّرٍ".

فحدَّثَتْهُ رَوْجَتُهُ في خفوتٍ وهي تنظر نحوهما لَتَسْأَلَهُ:

- "وماذا سَنُطْعِمُهُما ولم يَتَّبَقْ في الدَّار من زاد؟".

تذكر وقتها الشَّيْخ "صالح" أنه قد حصد ما يمكن جَمْعَهُ من زاد الأيام السَّابِقَةِ، لِيَصْرِفَ شاغلٍ حُرَّاسَ الشُّرْطَةِ عن أَمْرِ "بيجاد" سابقًا، فحدَّثَ رَوْجَتَهُ لِيُطَمِّنَهَا:

- "من أطعنا بالأمس سوف يُطْعَمنا في الغد، فدَعِي الرزق لله وليُعِيننا على حمايتهما من مصيرٍ غابر".

فتحت رَوْجَتَهُ البابَ على مصراعيه لتَدْلِفَ الفتاتان إلى الداخل سريعًا، فالتفتَ الشَّيْخُ نحو "بيجاد" الذي عاجله بالحديث:

- "سأترككم في رعاية الله، فعليّ الدَّهَابُ لوالديّ "غريّر" قبل العودة سريعًا لعائلي".

تحرك "بيجاد" في همّةٍ من أمرِهِ إلى وجهته عابِرًا الرُّقَاقَ بعد ذلك.. فإذا بصَوْتٍ نحيبٍ يَسْتَوْقِفُه، فتحرك تجاه المرأة التي تتوشح بالسَّواد كعادتها.

كانت "أم البراء" تفتريش الأرض من أمام دارِها تبكي وتُهمِّهم في أسي، فذهب لِيُجَالِسَ مَوْضِعَهَا أرضًا مُواسِيًا إياها.

فَحَدَّثَتْهُ فِي عَليّةٍ من أمرِها:

- "لم أعد أعلم ما عليّ فِعْله بعد الآن، فإني لا أجد ما يُسْكِنُ الجُوعَ بي وبـ (زرقاء) وجرائها الصَّغار.. فَبِتُّ أَتَسَوَّلُ لِقمة العَيْشِ ولا أجد لندائي مُلبّيًا".

ثم عادت لَتُكْمِلَ وهي تبكي:

- "ألا يكفيني حُزْني وحسرتي على فُقدان (جَبَلِيّ)".

ثم تَكَسَّتْ رَأْسَهَا وهي تُؤَلِّول:

- "لا زال عِوَاؤه الجهورِّي يُرهق ذهني كلما تذكرت صَوْت الألم الذي حَدَّقَ به، ليتني لم أَدْعُه يَدْلِفَ لخارج الدَّارِ ذلك اليوم، لقد سَيِّمت من كثرة بُباحه ونبش أظافره في الباب، كنت أعلم بأن الخطر يزداد يومًا بعد يوم، ولكنه كان الأمل

الوحيد في الحصول على ما نقتاته، تركته ليذهب في أثر ما يُمكنه الحصول عليه من الرّاد، ولكنني لم أدرك أنني قد تركته ليصبح هو الرّاد نفسه".

لم يكن في عون "بيجاد" لها من شيء، فيكفيه ما في حاله من سوء، فالتزم الصّمت حُرّاً على ما آل بها بعد أن كانت هي السّبيل لإطعام كل روح سائلة.

لينهض بعد ذلك ولا حيلة له، ليُعينها على القيام من مَوْضِعها لتتحرك في هَوادة منها نحو باب دارها، وما لَِثت وأن فتحت حتى اندفعت الجِراء الصّغيرة نحو الخارج.

أسرعت الجِراء للخارج وهي تتراقص فرحاً حول أقدام "بيجاد" بينما أخرجت (زرقاء اللّيل) رأسها وهي تنبح نحوهم في لهفةٍ منها، فجلس القرُفُصاء يُداعبه رُغب رؤوسها الصّغيرة حتى لاح له أمرٌ ما، تَعَجّب لما يراه من أمامه وقد بات بين يديّه أربعة جِراء صغيرة بينما كان قد رأى ستة منهم في الآونة الأخيرة، فحدّثها حينها قائلاً:

- "أكاد أجزم أن عددهم قد نُقص عن وقتٍ مضى".

فَتحَدثت لُجبيّه وقد زادها من الهمّ ثِقَل:

- "إن مأوى (زرقاء اللّيل) وجرائها أصبح في الدّار دون مزرعة الدّجاج التي كانوا يعيشون بها، فلن أغامر بأن تطول الأيادي الخاطفة أحدهم فتسوقه إلى جَوْفها، ولكن لم يَعد لدي ما يُكْمِل من الخشب ما يحول بين الباب الداخلي المُهتَرئ للمزرعة، الذي يَصِلُه بالدّار من الداخل، كنت أظن أنه آمن حتى تَبَيَّنَ اختفاء أحدهم منذ بضعة أيامٍ ماضية".

ثم نظرت إلى الجِراء من أمامها وهي تُكْمِل في حُرْن:

- "لقد تَمَكَّن تعيسا الحظ منهم من إيجاد طريقةٍ لينفذ بها من الباب دون درايةٍ مني، طائِئِن أَنهما سوف يريان بدايةً جديدةً للعِندِ، فما كان من نصيبهما إلا نهايتها".

انحنت العجوز نحو الجِراء لتجمعها وقد أخذت غالبيتها في الابتعاد عن يديها تُحاول التَّمَلُّص من قبضتها الواهنة، فما كان من "بيجاد" إلا أن سارع بالتقاط بعضها بيده ليُدخلها ويضعها بجوار أمها المُتَلَهِّفة عليها، ثم خرج سريعًا قاصدًا وجهَّته لِتُغلق العجوز الباب من ورائه.

لم يكن الحَوَف من ملاقة المَوْت جوعًا من نصيب السَّيِّدة العجوز فقط، بل كان كالغيمة التي تُعَشِّش فوق رؤوس العِباد، ولكن صار يَسْكُن في رُقَاق (أترجة) من بات لا يأمن الغد أكثر من الجميع، وكان عليه البقاء حيًّا هو وأُسْرَتَه مهما تَطَلَّب الأمر.

تحرك "الناصرى" داخل داره في ضيقٍ واضح، أَطَلَّ برأسه نحو غرفة نومه ليُنظر إلى رَوْجَتِهِ وهي في سُباتٍ عميق من نومها تحتضن ولديه الصَّغِيرَيْن، ثم عاد ليتحرك ذهابًا ومجيئًا كاللَّيْث في مَحَبَسِهِ.

إنه لا يدري ما العمل الآن، تراءت له حينئذٍ فكرة يعلوها اليأس، فبعد ضياع بهائمهِ وبعد أن بات النَّخل عاجزًا لا يُرى لنحاتته من أثر.. لم يَعُد من سبيلٍ آخر.

عليه الآن التَّوَصَّلْ إلى تُجَارِ اللَّحْمِ البشري، لقد أصبحت تلك التَّجَارَةُ تَسْتَتِرُ في الخفاءِ رائجةً لباغيها، ولكن كيف سيتمكن من العثور على أحدهم وهو لا يعرف لهم وصال، لقد أَسْفَرَ تَكَبُّرُهُ عن العباد سببًا في مقاطَعَتِهِ لمن هم دونه، فلا يعرف لطُرق الأشقياء من سبيل.

أَحْجَمَ عقله عن ذلك الفِكر على الفور مُتَوَجِّسًا، فماذا إن تعرف على أحدهم فجار عليه، خاصةً وأن رَوْجَتَهُ السَّمِينَةَ لم يُزح الجُوع سوى طبقات قليلة لِيَتَبَقَى من لحمها الكثير، إنه لن يجرؤ على محاولة السَّعي وراءهم، ولكن عليه أن يتدبر الأمر للفترة القادمة مهما كَلَّف الأمر.. سوف يعمل العَبْدَانِ لوقتٍ أطول وبمجهودٍ مُضاعفٍ حتى يَوْمَتَانِ لعائلته ما يَكْفِيهِمْ لِيَعِيشُوا لِيَرَوْا يومًا آخر مهما تَطَلَّبَ الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

الخطيئة الأولى

لَحْمُ الْبَشَرِ.. لربما سوف تَبْغُضُ تلك الفكرة في البداية، بل وتَشعر بِالْعَيَانِ بمجرد أن تَطْرُقَ عقلك، ثم تَسوقُكُ غريزة البقاء والتَّشبُّثُ بالحياةِ إلى اللُّجُوءِ إليه وإلا فالهلاك الحتمي هو المَصيرُ المُنتظر، حينها ستَتَذوقه.. لن يَسْتَسِيغَهُ لسانك وسيُنفِّرُ منه عقلك وتَلْفَظُهُ أَمعاؤُك خارجها، ولكن.. ستَعْتادُ عليه بعد فترةٍ من الوقت ليس حبًّا فيه ولكن حين تَلِحُ الحاجة لذلك، لتَبْدَأَ في استِسَاعَتِهِ والاعتماد عليه كليًّا، حينئِذٍ ستَتَمَرَّسُ على القتل، بل سيَصيرُ الأَمْرُ غايةً في السُّهولة في كل مرةٍ تقوم فيها بإزهاق روح، وستتلاشى أَدَمِيَّتُكَ شيئًا فشيئًا فيُصبح أمرًا معتادًا بالنسبة لك ولكن.. تُصبح لَدَّةُ الشُّعُورِ بِكَوْنِكَ ما زلت على قَيْدِ الحياةِ هي الدَّافعُ المُسيطر عليك، فعلى الأقل ستَشعرُ بأنك تُكافح من أجل البقاء حيًّا، ولكن يجب عليك في بادئ الأمر أن تَسْتشعرَ الرَّغبةَ المُلحةَ الأولى التي ستَدفعُكَ للمرور بتلك المرحلة، ألا وهي.. أن تَسوقَكَ غريزة البقاء للقتل وإزهاق روح أخرى.

أُطْلَتِ الظَّهيرة بِشَمْسِهَا الحارقة على رُقَاقٍ (أترجة)، عَبَّرتْ خيوط أشعة الشَّمسِ الحارقة من بين ثنايات السَّقْفِ المهترئ، الذي تم تشييده من بعض سَعَفِ النَّخيل الجاف لحظيرة البهائم الخاصة بـ "الناصرى"، لتَطُلَ على وجه "قُصِيٍّ" القابع بداخلها، لقد كان "قُصِيٍّ" دُؤُوبَ العمل في الحظيرة منذ الصَّبَاح الباكر، فقد أَمَرَهُ سَيِّدُهُ بتنظيف تلك الحظيرة المهجورة منذ أشهرٍ طِوال دون سببٍ مَعْلُومٍ أو مَنطَقي بالنسبة له، كان يعمل وقت ذاك منذ ساعاتٍ مَصَّتْ في التَّنْظيفِ بمفرده دون مُساعدة من "يوساب"، فقد أرسله

سَيِّدَهُمَا إِلَى السُّوقِ قَبْلَ بَضْعِ سَاعَاتٍ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ لِمَحَاوَلَةِ بَيْعِ تَوْبِ الْخَلِيفَةِ مُجَدِّدًا، فَحَتَمًا أَصْبَحَ الْأَمَلُ فِي بَيْعِ التَّوْبِ حِينُنْذٍ صَرَبًا مِنَ الْخِيَالِ، حِينَهَا ارْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةٌ طَفَّرَ عَلَى وَجْهِ "قُصَيِّ"، فَقَدْ كَانَ يُدْرِكُ جَيِّدًا مَا سَيُلَاقِيهِ "يُوسَابُ" مِنْ تَوْبِيخٍ حِينَ يَعُودُ خَائِبَ الرَّجَاءِ، وَسَيَنَالُهُ مِنْ عَصَبِ سَيِّدِهِمَا مِثْلَمَا نَالَ هُوَ حِينَمَا عَادَ خَالِي الْوِفَاضِ الْمَرَّةَ السَّابِقَةَ.

وَلَكِنْ مَا لَبِثَ أَنْ أَرَّقَ ابْتِسَامَتُهُ أَلَمَ الْجُوعِ الَّذِي بَدَأَ يَطْرُقُ جِدَارَ مِعْدَتِهِ مِنَ الْحِينِ لِلْآخِرِ، فَهُوَ لَمْ يَذُقْ طَعْمًا لِلزَّادِ مِنْذَ أَيَّامٍ عِدَّةٍ، مُجَرَّدَ بَضْعٍ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ الَّتِي اخْتَزَلَهَا هُوَ وَرَفِيقُهُ "يُوسَابُ" فِي الْخَفَاءِ، كَانَتْ آخِرُ مَا عَرِفَهُ جَوْفُهُ مِنَ زَادٍ، وَلَكِنْ بَدَاخِلُهُ كَانَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا بِكَثِيرٍ مِمَّا يَبْدُو عَلَيْهِ حَالُ "الْناصِرِيِّ" وَعَائِلَتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ دَائِمَةً التَّمَلُّلُ إِثْرَ تَضُورِهَا مِنَ الْجُوعِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَكْفِيهَا مِنْ طَعَامٍ قَدْ تَتَنَاوَلَهُ خِلَالِ يَوْمٍ وَاحِدٍ مَا يُمْكِنُهُمَا التَّحَصُّلُ عَلَيْهِ فِي أُسْبُوعٍ بِأَكْمَلِهِ، يَكَادُ يُسْمَعُ صَوْتُ أَمْعَائِهَا وَهِيَ تُقَرِّقِرُ وَتَتَقَلَّبُ جَوْعًا وَلَا تَجِدُ لَهَا مِنْ زَادٍ سِوَى ذَلِكَ الْخَوَاءِ، بَيْنَمَا بَاتَ طِفْلَاهُ أَقْرَبَ لِلْمَوْتِ مِنْهُمْ إِلَى الْأَحْيَاءِ جَرَاءَ الْوَهْنِ وَالْهَزَلِ اللَّذِينَ أَصَابَهُمَا، لَقَدْ خَبَتْ طِفُولَتُهُمَا كَمَا تَخْبُو الثُّجُومُ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، وَثَقُلَتْ أَلْسِنَتُهُمَا، وَلَمْ يَعُودَا قَادِرَيْنِ حَتَّى عَلَى التَّلَفُّظِ بِحَرْفٍ، فَبَاتَا يُشَارِفَانِ عَلَى الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ.

فَعَادَ "قُصَيِّ" مِنْ شُرُودِهِ لِيُكْمِلَ عَمَلَهُ مُبْتَسِمًا وَهُوَ يَتَخِيلُ عَوْدَةَ "يُوسَابُ" بِالتَّوْبِ وَعَلَى وَجْهِهِ خَيْبَةُ الرَّجَاءِ لَيْسَخِرَ مِنْهُ وَمِمَّا سَوْفَ يَنَالُهُ.

- "هَلْ انْتَهَيْتَ مِنْ عَمَلِكَ بَعْدَ؟".

التَّقَتْ "قُصَيِّ" نَحْوَ سَيِّدِهِ حِينَ دَلَفَ إِلَى الْحَظِيرَةِ لِيُجِيبَهُ:

- "لقد شارفت على الانتهاء يا سيدي".

فإذ بـ "الناصري" يَهْم بالخروج دون أن يُوجه إليه أي حديث، تَعَجَّب "قُصِي" كثيرًا من أَمْرِ سَيِّدِهِ وما يقوم به من أفعال منذ الصَّبَاح، فلا يكاد يمر وقتٌ طويل حتى يأتي سَيِّدُهُ على غفلةٍ منه ليسأله ذلك السؤال ويُعاود الرَّحِيل، وفي كل مرة يأتي إليه يُلاحظ على سَيِّدِهِ التَّوتر الذي بدأ يزداد تَباعًا في كل مرة يَدْلِف فيها إليه، لقد انتابته الحيرة كثيرًا بسبب أفعال سَيِّدِهِ التي لا يعلم لها سببًا، ولكن سُرعان ما تناسى الأمر وعاد إلى عمله دون أن يسترعي ذلك انتباهه كثيرًا.

إنه لا يعي ما يحدث من أمر، أنه لا يعلم ما قد عَقَدَ "الناصري" العَزم عليه، فلقد طَفَحَ الأخير به الكَيْل ولا مَنَاص عندئذٍ من تلك الفِعلَة التي كان يُحْطِط لها منذ الصَّبَاح، ففي كل مرة كان يُقدم فيها على تلك الفِعلَة تتردد يده.. فيعود أدراجه مُتقاعسًا دون الإقدام عليها، ولكن في تلك الأثناء قد شَارَف العَبْد على الانتهاء من العَمَل في الحظيرة، وصار الفَشَل على الأعتاب ولا مَقَر الآن، لقد عَقَدَ العَزم على الإتيان بما سوف يُسْكِن عائلته مما أبتليت به من عناءٍ مهما كَلَّف الأمر، حينئذٍ اتخذ "الناصري" قراره وتحرك مجددًا بخطواتٍ مُتسارعة صَوَّب "قُصِي" الذي انتبه لصَوْت وَقَعَ قَدَمَيْهِ فالتَفَت إليه مُلَبِّيًا.

كان الخَوْف والتَّوتر يُسيطران على عقل "الناصري" وقت ذاك، لربما كانا هما السَّبب في أن يأتي بِفِعلَتِهِ الشَّنعاء باكراً قبل أن يصير على مقربةٍ من "قُصِي" ومُباغتته غَدْرًا، فقد أَسْتَل سِكِّينَهُ وهو يقترب منه بخطوات.. ليرفعها بغتةً في مواجهته مُحاولًا طَعْنه بها، ولكن تدارك "قُصِي" الأمر سريعًا فتحرك

جانبًا وهو يرفع يده للأعلى في هَلَعٍ منه، لئُصِيب شَفْرَةُ السِّكِّينِ كَتَفَ "قُصِيِّ"
الأيسر، ليصرخ مُتَأَلِّمًا جَرَّاءَ جُرْحِهِ ويدفع سَيِّدَهُ جانبًا بكل ما أُوتِيَ من قوة
لِيُسْقِطَهُ أَرْضًا، وَيَدْفَعُ للخارج سريعًا لِيَسْتَرِيقَ النَّظَرُ من خَلْفِهِ ليجد
"الناصري" يَهْمُ بالتهوُّض لملاحقته، حينها هَرَّوْلٌ مُبْتَعِدًا وهو يَلْهَثُ لبضعة أمتار
والخَوْفُ يَقْذِفُ بقلْبِهِ في أرجاء صَدْرِهِ، بينما لا يعلم إلى أين المفر من تَصَلُّ
سَيِّدِهِ الذي يُلاحقه، حينئِذٍ نظر من أَمَامِهِ لِيُشْرَعَ في فعل أكثر شيءٍ يجيده،
فركض سريعًا نحو الشَّجَرَةِ العجوز التي تقف عوجاء من أَمَامِهِ لِيَتَسَلَّقَ
أغصانها سريعًا كَقِطْعَةٍ تخاف من قَنْكَ كَلْبٍ غادرٍ بها.

أخذ يَتَسَلَّقُ الشَّجَرَةَ حتَّى وصل لآخر عُصْنٍ لها لِيَتَشَبَّثَ به قدر استطاعته،
حينئِذٍ شعر بلزوجة دمائه الحارَّة تَنَسَّاب من كَتِفِهِ المُصَابَةِ فتحسس جُرْحَهُ
الغائر بيده لِيُلاقِي مرارة آلامه، والتي تمثلت في عَذْرِ سَيِّدِهِ به أكثر من آلام
الجُرح ذاته، فَحَدَّقَ النَّظَرَ نحو الأسفل ليجد "الناصري" يُحاول تَسَلُّقَ الشَّجَرَةِ
في محاولاتٍ يائسة باءت جميعها بالفشل، بينما يُشْخَصُ البَصَرُ نحو "قُصِيِّ"
في عَصَبٍ كَأَسَدٍ يَتَرَبَّصُ بفريسته.

- "أغيثوني...".

ظل "قُصِيُّ" يصيح مُكْرَّرًا نداءه لوقتٍ ليس بالقليل في حالةٍ من الصدمة دون
تَوَقُّفٍ.. حتَّى تلاحقت أنفاسُهُ من كثرة الصَّياح، الأمر الذي كان كافيًا لجعل
جميع أهل الرُّقَاق يجتمعون على الفور لِيَتَبَيَّنُوا أمر من يَسْتَجِدِّي نجاتهم.

- "إنه يريد أن يقتلني".

صاح "قُصِيَّ" بِنُهِمَّتِهِ عَلاَنِيَةً تَجَاهَ سَيِّدِهِ وَهُوَ يُمَسِّكُ بِيَدِهِ كَتِفَهُ الدَّامِي، بَيْنَمَا يَتَّيَّنُ مِنْ قَسْوَةِ الْأَلَمِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ، لَتَلْتَفَّتِ الْأَنْظَارُ إِلَى "الْناصري" الَّذِي بَدَأَ مُتَوَجِّسًا خِيفَةً إِثْرَ هَمِّهِمَةِ أَهْلِ الرُّقَاقِ مِنْ حَوْلِهِ، فَمَا كَانَ بِهِ سِوَى أَنْ حَاوَلَ رَفْعَ الْأَمْرِ عَنْهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ مُحَدِّثًا إِيَّاهُمْ بِنَبْرَةٍ مَكْلُومَةٍ:

- "هَذَا الْعَبْدُ الْخَسِيسُ قَدْ حَاوَلَ مُلَاقَاةَ زَوْجَتِي رَغْمًا عَنْهَا وَفِي عَقْلَةٍ مَنِيَّةٍ، وَحِينَ فَصَحْتُ أَمْرَهُ أَرَدْتُ أَنْ أَثَارَ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ الْهَرَبَ مِنِّي فَلَا حَقَّتَهُ إِلَيَّ هُنَا".

فَصَاحَ "قُصِيَّ" مُسْتَعْطَفًا إِيَّاهُمْ:

- "أَقْسَمُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُحَدِّثُكُمُ الْحَقِيقَةَ، إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْحَرَّ رَقَبَتِي كَيْ أَصِيرَ سَبِيلَ الْخَلَاصِ لَهُ وَلَأَسْرَتِهِ وَالْحَوْلُ دُونَ جُوعِ بَطُونِهِمْ".

- "لَا تَنْصَتُوا إِلَيَّ مَا يُخْبِرُكُمْ بِهِ هَذَا اللَّعِينُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بِأَمِّ عَيْنِي بَيْنَمَا يَحَاوِلُ الْإِتْيَانَ بِزَوْجَتِي لِيُقْضَىٰ بِهَا شَهْوَتُهُ، فَوَاللَّهِ لَأَقْطَعَنَّ عُقْقَهُ وَأَسْتَعِيدَ شَرْفِي الَّذِي دَنَسَهُ هَذَا الْعَبْدُ بِيَدَيْهِ".

- "أَنْتَ كَاذِبٌ لَا مُحَالَهَ".

التَفَّتِ "الْناصري" حِينَئِذٍ وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ إِلَى حَدِيثِ "بِجَاد" الَّذِي كَانَ يَتَوَسَّطُ الْحَشْدَ مِنْ أَمَامِهِ، فَتَحَرَّكَ الْأَخِيرَ لِيَعْبُرَ مِنْ بَيْنِهِمْ حَتَّى وَقَفَ بِجَانِبِهِ لِيَرْمِقَهُ بِنَظَرَاتٍ مُسْتَخِفَّةٍ مِمَّا يُحَدِّثُهُمْ بِهِ، ثُمَّ التَفَّتْ نَحْوَ الْحَشْدِ وَصَاحَ بِهِمْ:

- "إن هذا الرَّجُل كاذب، فمنذ شرائه لْقَصِيٍّ وهو يتفاخر بِكَوْنِهِ من العبيد الخَصِيَّان.. فكيف لعبدٍ خَصِيٍّ منذ مَوْلِدِهِ أن يشتَهي امرأةً يومًا".

ثم التَّفَتَ "بيجاد" نحو "الناصري" وهو يُكْمِلُ:

- "قُصِيٍّ.. العبد الخَصِيٍّ، هذا هو ما ناله منك منذ قمت بشرائه وهذا ما سيقوم بتبرئته من اتهامك الرَّائِف له".

أخذ "الناصري" يَجُولُ بِبَصَرِهِ بين ساكني الرُّقَاق والذين قد بدا الاقتناع بما حَدَّثَهُم "بيجاد" جليًّا على وجوههم، فنظر إلى "بيجاد" في صَمَتٍ وقد اعتراه العَصَبُ، فقد فُضِحَ أَمْرُهُ.. لِيُحَاوِلَ الدَّفَاعَ عنه نفسِه مرةً أخرى مُتَحَدِّثًا إليهم بنبرة يشوبها البكاء:

- "أقسم لكم أنني لست كاذب، لقد رأيته بأَم عينيٍّ وهو يعتلي زوجتي وسط صُراخٍ منها".

ثم تحرك لِيَقْتَرِبَ من الشَّجَرَةِ وهو ينظر للأعلى نحو "قُصِيٍّ"، حينها أحنى "بيجاد" رأسَه تجاهه وهو يُحَدِّثُه:

- "لن يُعاونَكَ أحد على الفَنك بالرَّجُل، فلتأني به أنت إن شئت".

فاستشاط الرَّجُلُ غَضَبًا حينئذٍ لِيَبْدَأَ في محاولة منه لَتَسْلُقَ الشَّجَرَةَ المرة تلو الأخرى، فلا ينال من فِعْلَتِهِ شيئًا سوى انزلاق جسده منها على الفور وسط صَحِكِ العامَّة لما يشاهدونه من فِعْلَةٍ مُضحكة، فالتَّفَتَ الرَّجُلُ نحو جيرانه وهو

يَكَاد يموت من العَيْظِ لِيَلْمَح "يوساب" قادمًا من بعيد مُمَسِّكًا بَثَّوبِ الخليفة في يده.

- "يوساب.. فلتأتِي إلى هنا على الفور".

أسرع "يوساب" من حُطَّاه فور نداء سَيِّدِهِ له، وهو يَنْظر نحو الجَمْع من أمامه دون أن يفهم لذلك أمرًا، فرفع بَصَرُهُ إلى أعلى الشَّجرة التي يجتمعون حولها ليجِد رفيقه مُتعلقًا بأحد أطرافها في حَوْف.

انتاب الدُّهول وجه "يوساب" وأصابته الدَّهشة وهو لا يَدري ما الأمر، لِيَقِف على مقربةٍ من سَيِّدِهِ الذي صاح به بينما يُشير نحو "قُصِيٍّ" بالأعلى.

- "فَلتَصْعَدْ إلى هذا اللَّعِين وتَقْتله على الفور".

نظر له "يوساب" في حيرةٍ من أمرِهِ لثوانٍ دون حَرَكَ.. لِيُكْمِل "الناصري" صياحه:

- "فَلتَنَازِلْ شَرَفِ سَيِّدِكَ، لقد حاول هذا العبد مُلاقاة زوجتي وسوف أنال من رأسِهِ".

فصاح "قُصِيٍّ" باكياً لِيُنَاجِي "يوساب":

- "إنه يُريد أن يَقْتلني لإطعامي لأُسْرَتِهِ، لهذا أرسلك في مُهمَةٍ بعيدة لِيَنال مِنِّي بمفردي".

لم يكن "قُصِيّ" يسترعي لِدِمَاءٍ كَتِفِهِ أَمْرًا في ذلك الوقت، وقد انسابت لَتَغْمُر ذراعه وراحة يده وتطول العُصْن من أسفل منه، حينها انزَلَقَتْ يَدُهُ عُنُوءَ منه فكاد أن يَسْقُط من أعلى العُصْن، لِيَتَمَالِكَ نَفْسَهُ في اللَّحْظَةِ الأخيرة ويُعاود التَّشَبُّثَ جَيِّدًا بِالْعُصْنِ كَالْقِطْعَةِ المذعورة وسط تَهَاوُسَاتِ النَّاسِ، ومن بينهم "الناصري" الذي أَدْرَكَ بأن أَمْرَ الإِمْسَاكِ بهذا العبد قد بات وشيكًا.

تحرك "الناصري" لِيَلْكَزَ كَتِفَ "يوساب" بقوةٍ في عَصَبِ منه:

- "فَلْتَصْعَدْ وتأتي لي برأسيه فلن أهنأ بـ...".

- "سوف يُحاول قتلَك أنت الآخر يا يوساب".

رفع "يوساب" هامته نحو "قُصِيّ" لِيُكْمِلَ "قُصِيّ" حديثه مُنَاجِيًا:

- "حتى وإن نال مَنِّي الآن، فلن يطول الوقت بعد ذلك حتى يَتَطَلَّبَ الأَمْرُ جسدًا آخر لِيَقْتَاتَ عليه وَيَنهَشَ من لَحْمِهِ هو وعائلته، حينها سيَطوَلُكَ المَوْتُ غدًّا لا محالة... فلتنجوا بِنَفْسِكِ يا صديقي".

بدأت الأفكار والقرارات تتضارب في صِراعٍ داخل عقل "يوساب"، فَوَقَفَ مَوْضِعَهُ مكائه دون حَرَكَ، ولم يَتَزَحْجَ قَيِّدَ أنملة بينما يصيح سَيِّدُهُ نحوه بكلماته.. فلا تجد لِعَقْلِهِ مَوْطِنًا، فماذا يجب عليه أن يفعل الآن؟ هل يَستمر في طاعة سَيِّدِهِ؟ فَيَقْتُلَ رفيقه وَيَمْتَثِلَ لأوامر سَيِّدِهِ؟ والأهم من ذلك كله.. إن تَبَيَّنَ صِدْقُ ما أخبره به "قُصِيّ" من حديث، تُرى هل سوف يلاقي مصير المَوْتُ بطعنةٍ غادرة في نومه على يد "الناصري" حينما تَستدعي حاجته إلى ذلك؟

دقائقٍ مَرَّت عليه كالجَمَاد.. يَعِيشُ بِهَا أَسْوَءَ مَخَاوِفِهِ وَقَرَارَاتِهِ، لَيْسْتَعيدُ رُشْدَهُ رويدًا رويدًا وَيَعُودُ لِلوَاقِعِ وَسُطِ صِيَاحِ وَشُبَابِ "الناصرى" لَهُ أَمْرًا إِيَّاهُ بِالانْصِيَاغِ لِأَوَامِرِهِ، كَانَ حِينئِذٍ قَدْ عَزِمَ الْأَمْرَ فِي قَرَارَةٍ نَفْسِيَةٍ أَخِيرًا، فَانْطَلَقَ لِيَرْكُضَ سَرِيعًا وَيَعْبُرَ مِنْ وَسْطِ الْجَمْعِ لِيَلُودَ بِالْفِرَارِ مِنْ قَبْضَةِ سَيِّدِهِ الَّتِي سَوْفَ تَنَالُ رَوْحَهُ الْبَائِسَةَ يَوْمًا مَا.

لَمْ يَمُضْ وَقْتُ طَوِيلٌ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى انْقَضَ الْجَمْعُ مِنْ حَوْلِ "الناصرى" وَعَبْدِهِ "قُصَيِّ"، فَانْشَغَلُوا جَمِيعُهُمْ فِي أَمْرِهِمْ وَتَكَبَّتْهُمْ وَذَهَبَ كُلُّ مِنْهُمْ فِي طَرِيقِهِ، بَيْنَمَا ظَلَّ "قُصَيِّ" مُتَشَبِّهًا بِالْعُصْنِ حَرِيصًا عَلَى أَلَا يُفْلِتَهُ وَكَلَّمَا نَظَرَ إِلَى الْأَسْفَلِ يَجِدُ سِكِّينَ سَيِّدِهِ فِي انْتِظَارِهِ، فَيَزِدَادُ تَشَبُّهًا بِالْعُصْنِ، وَلَكِنْ كَادَتْ يَدَاهُ أَنْ تَنْزِلِقَا فِي إِحْدَى الْمَرَاتِ بِسَبَبِ دِمَائِهِ اللَّزْجَةِ الَّتِي طَالَتْ الْعُصْنَ، لِيُسَارِعَ فِي الْحَالِ وَيَحْكُمَ قَدَمَيْهِ حَوْلَ الْعُصْنِ، ثُمَّ يَنْتَزِعَ بِحَرَصٍ قِطْعَةً قُمَاشٍ عَرِيضَةً مِنْ رِدَائِهِ وَيَرْبِطَ جِسْدَهُ بِالْعُصْنِ الَّذِي يَلْتَصِقُ بِهِ حَتَّى لَا يُفْلِتَهُ سَهْوًا وَيَفْتِكَ بِهِ سَيِّدُهُ.

لَتَمُرْ عِدَّةُ سَاعَاتٍ عَلَى الْحَادِثَةِ الْأَخِيرَةِ، وَهِيَ هِيَ "بِيْجَادُ" يُعَاوِدُ الْمُرُورَ بِجَوَارِ الشَّجَرَةِ الْعُوجَاءِ وَالْعَبْدِ الَّذِي يَسْكُنُ أَعْلَاهَا دُونَ أَيِّ أَثَرٍ لِلْنَّاصِرِيِّ هُنَاكَ، رُبَّمَا مَلَّ مِنَ الْإِنْتِظَارِ أَوْ رُبَّمَا يَتَرَبَّصُ بِعَبْدِهِ وَيُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ، لَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَرْعِ اهْتِمَامَ "بِيْجَادُ" الَّذِي هَبَّ لَتَجْدَةَ الرَّجُلِ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ، فَنَظَرَ إِلَى الْأَعْلَى نَحْوِ "قُصَيِّ"، لِيَجِدَ جِسْدَهُ مَلْفُوقًا بِقِطْعَةِ الْقُمَاشِ مِنْ حَوْلِهِ لَتَجْمَعَهُ بِالْعُصْنِ الَّذِي يَعْتَلِيهِ مِنْذُ فِتْرَةٍ وَقَدْ طَالَ النُّومُ جَفْنِيَّتِهِ، لِيُخَفِتَ مِنْ صَوْتِهِ مُنَادِيًا إِيَّاهُ عِدَّةُ مَرَاتٍ حَتَّى أَفَاقَ مِنْ عَفْوَتِهِ، لِيَلْتَفِتَ إِلَى "بِيْجَادُ" الَّذِي حَدَّثَهُ:

- "لا تقلق يا صديقي، سوف أتدبر أمر إخفائك بعيدًا عن قبضة الناصري".

لم يُبادله "قُصَيِّ" الحديث بل اكتفى بالنظر إليه في صَمْتٍ.. مُفترشًا ذلك العُصن الموثوق بجسده، ليُكْمِلَ "بيجاد" حديثه سريعًا:

- "هيا يا قُصَيِّ، فلتنزل سريعًا بينما سيّدك في غفلةٍ عن أمرِك".

أدرك "بيجاد" على الفور السَّبب من وراء نظرات "قُصَيِّ" الواهنة له، لقد فَقَدَ الكثير من الدِّماء بالفعل إثر ذلك الجرح الغائر في كَتِفِهِ، فهو الآن بالكاد يُصارع من أجل البقاء على قَيْدِ الحياة، فانزع قلبه بينما يُحاول تَسَلُّقُ الشَّجرة لتبوء مُحاولته بالقَسَل، حينئذٍ هَرَعَ إلى دار الشَّيْخ "صالح" ليُخبره عَمَّا أصاب "قُصَيِّ"، فسارع الاثنان للعودة لمساعدته، وما أن وصلا إليه حتى أخذَا يُحَدِّثانه ويُحَيِّثانه على النُّزول من مكانه خشية أن يموت جَرَّاء نزيف جُرْحِهِ، ولكن مهما طالَت توسلاتهما كان "قُصَيِّ" يُعْرِض عن حديثهما مُؤَلِّيًا وجهَهُ عنهما دون أن يفهما السَّبب، لم يكونا على درايةٍ بما يَخْتلج داخل صَدْر "قُصَيِّ"، والذي لم يَعُدْ يأمن لأحدٍ على نفسه، فقد تزعزع إيمانه بالثَّقة في كل من حوله من البشر، فالجُوع يسوق العقول ولا مأمن لأحدٍ منه، فكان أَهْوَنَ عليه المَوْت، على أن يُصبح لحمه طعام لأي نفسٍ قد تَبَثَّ في روحه طمأنينة رَافِة ثم.. تقوم بخداعه.

تَعَجَّب الاثنان حينها من كَثْرَةِ توسلاتهما لـ "قُصَيِّ" دون أي استجابة منه، حاولا إعانة بعضهما البعض على تَسَلُّقِ الشَّجرة مراتٍ عِدَّة دون جَدْوَى، وكان تلك الشَّجرة العجوز تأبى أن تطول الأيادي من "قُصَيِّ" شَأْن خَيْرًا أو شَرًّا.

فتحرك الاثنان بعيدًا بعد وقتٍ من محاولتهما خائبي الرجاء، والخُزن يخيم فوق رأسيهما لما حل بـ "قُصِيَّ" وما باتت عليه الأنفس من قسوة، ليعود "بيجاد" إلى داره وعائلته المنكوبة عازمًا العودة مجددًا لمناجاته في القريب، أملًا في أن يطمئن وقت ذاك لكلمات قلبه الصّادقة ويستطع إنقاذ تلك الحياة البائسة من المَوْت المُحقق، بينما تحرك الشَّيْخ قاصدًا الصَّلَاة في المسجد كعادته والدعاء بمرور تلك الأزمة التي طال أمدها، وما أن اقترب نحو المسجد بعد ذلك حتى لاحت له امرأة تتوشح بالسَّواد تَهِيم على وجهها، تَصُدِّر من شَفَتَيْهَا هَمَّهْمَةً مُبْهَمَةً وسط بكاءٍ شديدٍ منها.

وما أن اقترب منها حتى وجد كَفِّي يديها وقد تلطختا بِحُمْرة الدِّماء، فسألها الشَّيْخ في جَزَع:

- "ما بك يا أم البراء؟ لمن تعود تلك الدِّماء؟".

أكملت المرأة حُطَّاءها الهائمة وهي تبكي.. ليتحرك الشَّيْخ مرافقًا إياها مُتحدثًا في لهفةٍ منه:

- "هل أنتِ بخير؟ ماذا حدث لك؟".

لم تُجِبْه تلك المرة أيضًا على سؤاله بل استمرت في هَمَّهْمَتِها التَّجِبة، ليسترعي انتباهه جُمْلَةٌ وحيدة تَبَيَّنْها من بنس شَفَتَيْهَا بصعوبةٍ بالغة:

- "لقد قَتَلْتُكِ يا طفلي الحبيبة".

انجزع الشَّيْخُ لما استطاعت أذناه تمييزه من حديثها المُبهم بينما شَرَدَ عقله لثوانٍ فيما سَمَعَهُ، فعن أي طفلةٍ تتحدث؟ هل كانت تُخفي طفلة في دارها؟ أم قامت بِخَطْفِ إحدى الصغيرات دون ذنبٍ لها؟ إنه لا يَقْطِنُ للأمر من شيء، ولكنه يعلم جيدًا أنه عليه الدَّهَابُ إلى دار "أم البراء" لِيَعْرِفَ الإجابة عن ذلك.

تحرك الشَّيْخُ "صالح" في عَجالةٍ من أمره حتى وصل إلى الدَّارِ، لِيَتَوَقَّفَ على مَقْرَبَةٍ من الباب الذي تَوَارَبَ دون انغلاق منه، حينها تقدم الخُطى لِيَدْفَعَ بيده الباب في هدوء، فَيَنُصِتَ صَوْتَهُ وهو يَمِيلُ جانبًا لِيَقْضِيَ الأمر وينكشف الغموض عما كانت تقصده تلك العجوز بحديثها.

رأى الشَّيْخُ "صالح" (زرقاء اللَّيْلِ) جُثَّةَ هامة تفترش الأرض، وقد تَلَطَّحَ قَرْوُها بدمائها المتناثرة، بينما غَرَقَتْ في بركةٍ من الدِّماء التي فاضت من رأسها، وقد تلاشت ملامحُه تحت حَجَرٍ ثَقِيلٍ يجثو فوق ما تبقى من عِظام جمجمتها المَهْشَمَةِ.

أشاح الشَّيْخُ بوجهه لما يبصره من بشاعة، ثم تحرك عائداً إلى "أم البراء" والأسى يملأه لما آلت إليه تلك العجوز، لِيَجِدَ المرأةَ مُقْفِلة الفاه شاردة في مَسْعَاها في صَمْتٍ مُطَبَّقٍ، لِيُجَاوِرَها الطَّرِيقَ مرة أخرى بينما يُحَدِّثُها قائلاً:

- " لا تقسي على نفسك يا أم البراء.. هيا لأصطحبك إلى داركِ الآن".

حدثها الشَّيْخُ حينئذٍ وهو يُمسِكُ بمعصم يديها الهزيل لِيَصْحَبَهَا في طريق العودة، ولكن يبدو أن مرارة الحُزْنِ وقسوة الذنب لما أوجرت به قد دفعها للَبَّوحِ بمكنونات صَدْرِها في محاولةٍ لَتُعَلِّلَ فِعْلَها للشَّيْخِ ولتَفْسِها التي لم

تُطِيقُ ما قد اقترفته يداها، لتبدأ بالحديث وهي تَشُرُّدُ بوجهها في الطَّرِيق من أمامها.

- "لقد تصورنا من الجُوع منذ عدة أسابيع، كدت أفقد وعيي من الجُوع مرارًا حتى رهبت المَوْت القريب، والذي أوشك أن تطول يداه (زرقاء اللَّيْل) وصغارها أيضًا".

ثم أكملت الحديث في تبريرٍ منها:

- "كان عليَّ النَّصْرُفُ سريعًا لإنقاذ نفسي وصغيرتي من المَوْت المُحَقَّق، فتَسَلَّلْتُ بجانبها في إحدى الليالي وانتشلت أحد جرائها في غفوةٍ منها واصطحبته للمزرعة وقمت بَنَحْرِ عُنُقِهِ، وطَهَّوْتُ الزاد من لحمه لي ولـ (زرقاء) لَتَتَقَوَّت به فُيُعِينَنَا على البقاء أحياء".

نظر إليها الشَّيْخُ ثم شَرَدَ قليلًا وقد تَذَكَّرَ عدم رؤيته لأي من الجِرَاء حين دَلَفَ إلى داخل الدَّار، لثُّقَاطِعِ العجوز شروده لثُكْمِلَ باكية:

- "لقد وَلَّيْتُ أسبوع تلو الآخر وتوالى ذبحي لهم في الخفاء، ولكني أكاد أقسم أنه في كل مرة كنت أُطعم (زرقاء اللَّيْل) الزَّاد من لَحْمٍ أحد جرائها، كانت تنظر لي بَعَيَّتَيْنِ لَوَامَتَيْنِ وكأنها تعلم ما اقترفته من ذنبٍ في حَقِّها".

ثم حاولت التماسك في حديثها:

- "ولم يَتَبَقْ من أمر جرائها شيءٌ في نهاية الأمر، وعاد الجُوع لِيَطْرُق جدران معدتي بألمٍ لا يبارحها، واليوم أصابني الوَهَن الشديد المُنذر بموتٍ قريب،

وإني أخشى الموت وأزهد وخشيّة القبر.. فعزمت على فعله تُنجيني من
برائته التي تكاد تقبض على روعي في أي لحظة".

لُكِّمِلْ مُحَدِّثَةٌ نفسها في حُزن:

- "لم يكن أمامي خيارًا آخر، فبموتي سوف تموت (زرقاء اللَّيْل) جوعًا أو تُقتل
كما قُتِلَ (جَبَلِيّ).. أما بموت (زرقاء اللَّيْل) ستسكن آلام معدتي التي تكاد تفتك
بعقلي وتقوده إلى الجنون، وستكتب لي النّجاة حتى حين".

لُكِّمِلْ حينها وقد أطالت يديها للأمام وكأنها تستعيد في ذهنها ذلك المشهد
الآخر لفعلتها الشّنعاء:

- "حجرٌ ثقيلٌ، عاثتُ من محاولات حمّله من المزرعة القديمة، لأتحامل على
نفسي لرفعه بعد ذلك في وهنٍ منّي والعودة للدّار، لأرى (زرقاء اللَّيْل) ترقد
في غفوة اللَّيْل، فرفعت الحجر قدر المُستطاع وهويت به على رأسها
الغافل".

ثم أجهشت بالبكاء:

- "لقي جسدها رعيشة الموت ثم أصابها السُّكون بعد ذلك وقد لاقت نومتها
الأخيرة، ليتّها تعلم سبب قيامي بقتلها ومدى شعوري بالألم الذي بارح جوفي
ليصيب قلبي وعقلي.. يا ليتني قد متُّ قبل إزهاق روحها البريئة".

بوقت وصول الاثنين للدّار كانت "أم البراء" قد باحت بمكنونات صدرها، لتثقل
الهمّ والحُزن على الشّيخ مما باتت تقترفه الأيادي في زمن الجوع، لتدلف

العجوز حينئذٍ للدَّارِ وهي تنتحب لتجلس بجوار جُنتِ رفيقتها الهامدة وتُملَّس بيديها فوق قَرَوِ صَدْرِها في أنين حُزن لفراق عزيز، وهي تُحدِّث نفسها:

- "لِيلَعَنَنِي اللهُ إِنْ أَدْقَتِ جَوْفِي اللَّحْمَ مَرَّةً أُخْرَى.. لَيْتَ الْمَوْتُ بَاغْتَنِي قَبْلَ فِعْلَتِي بِكَ يَا حَبِيبَتِي".

لِيَقْفِلَ الشَّيْخُ الْبَابَ عَلَى هَذِي مِنْ وَرَائِهِ تَارِكًا إِيَّاهَا فِي تَكْبِتِهَا.

ثم تحرك عائداً نحو داره يعتريه الهم مما قد أصاب الرُّقَّاق من ابتلاء، لقد أكلت العجوز رفيقة وحدتها وجَراءها، وخاف العبد أن يأكله سيِّدُه ولم يأمن لأحدٍ آخر، ليتترك نفسه تُرحَّب بالمَوْت في أي لحظة، تُرى ما الذي تخبئه الأيام المُقبلة للعباد؟

لم يجد الشَّيْخُ ما يُنجد سلامة عقله من شروده وتفكيره سوى أن يرفع يده نحو السَّمَاء مُتَضَرِّعًا بالدُّعاء للمولى عَزَّ وَجَلَّ مُنَاجِيًا.

- "اللَّهُمَّ اَلطُّفُ بِأُمَّةٍ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"..

"اللَّهُمَّ ارْزُقِ الْكَرْبَ وَالشَّدَائِدَ عَنْ أُمَّةٍ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"..

"اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنْ أُمَّةٍ حَبِيبِكَ كُلِّ سُوءٍ، وَارْزُقْ عَنْهُمْ كُلَّ بَلَاءٍ"..

"اللَّهُمَّ إِنَّا نَدْعُوكَ أَنْ تُزِيلَ الْهَمَّ وَتَكْشِفَ الْعُصَّةَ اللَّذَيْنِ أَصَابَا هَذِهِ الْأُمَّةَ".

"اللَّهُمَّ لُطْفَكَ بِنَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ".

oo oo oo oo oo



الفصل الثامن

كذب المنجمون ولو صدقوا

أَشْهَرُ مَصَّتْ.. تَوَقَّفَ النَّاسُ عَنْ إِحْصَائِهَا، يَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَى أَمَلٍ أَنْ يَلُوحَ بِهِ الْفَرَجُ فِي الْأَفُقِ وَيُنَجِّيَهُمُ اللَّهُ مِمَّا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ بَلَاءٍ، وَلَكِنْ مَا جَعَلَ الْأَمْرَ يَزْدَادُ سُوءًا أَكْثَرَ مِمَّا مَضَى، أَنْ شَاعَتْ فِي الْبِلَادِ الرَّؤْيَا الْأَخِيرَةُ لِامْرَأَةٍ تُدْعَى "نِيرَازُ بِنْتِ غِيثِ الْمَقْدُونِي"، كَانَتْ وَاحِدَةً مِنْ إِحْدَى أَشْهَرِ مُنَجِّمَاتِ ذَلِكَ الْعَصْرِ.

وَالَّذِي طَالَمَا اسْتَحُوذَتْ أَحْكَامُ التَّجْمِيمِ وَمُنَجِّمُهَا عَلَى عُقُولِ الْمَصْرِيِّينَ ³⁸. لَتَأْتِي رُؤْيَاهَا بِاسْتِمْرَارِيَّةٍ تِلْكَ الْأَزْمَةُ لَسَيَّعِ سِنَوَاتٍ طَوَالَ لَمْ يُزِمْ مِثْلَهُمْ فِي الْبِلَادِ، فَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْقِسَّةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي قَصَّصَتْ أَنْفُسَ لَطَالَمَا تَمَسَّكَتْ بِالصَّبْرِ وَتَعَفَّفَتْ عَنْ جُرْمٍ غَيْرِهِمْ، لِيُوقِنَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ آخَرَ لِلْبَقَاءِ أَحْيَاءَ سِوَى اتِّبَاعِ شَأْنِ الْبَقِيَّةِ، كَانَتْ أَيْدِي السُّلْطَةِ قَدْ تَدَاعَتْ بِالْفِعْلِ وَتَلَاشَى وَجُودَهَا عَنْ سَاحَةِ الْأَحْدَاثِ، خَاصَّةً بَعْدَ هَرَبِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ السُّفْلِيَّةِ خَارِجَ الْبِلَادِ إِسْوَةً بِسَيِّدَتِهِ وَالِدَةِ "الْمُسْتَنْصَرِ"، وَالَّتِي هَرَبَتْ هِيَ الْآخَرَى مَعَ بَنَاتِهِ إِلَى بَغْدَادٍ خَشِيَةِ الْمَوْتِ جَوْعًا ³⁹. تَارَكِينَ الْخَلِيفَةَ فِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ يَوَاجُهُ تَكْبَةُ الْأُمَّةِ بِمُفْرَدِهِ، لَتَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَتُعِينَهُ إِحْدَى بَنَاتِ الصَّالِحِينَ ⁴⁰ عَلَى النَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ جَوْعًا، لَتُعْمَ حِينَئِذٍ الْفَوْضَى وَالْقَتْلُ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ بَلَا رَقِيبٍ أَوْ حَسِيبٍ.. فَبَاتَتِ النِّهَايَةَ وَشَيْكَةً لِكُلِّ نَفْسٍ ضَعِيفَةٍ الْآنَ.

وَفِي ظَهِيرَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَحَرَّكَ "بِجَاد" فِي تَوَجُّسٍ مِنْ أَمْرِهِ نَحْوِ النَّهْرِ الَّذِي وَدَّعَهُمْ قَيْضُهُ مِنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ، يَكَادُ يُجْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يُصَادَفْهُ سِوَى رُؤْيَا شَخْصَيْنِ

فقط طيلة طريقه، فلم تَعُدْ النَّاسَ في تلك الأيام تَأْمَنَ على أرواحها حتى في
وضح النَّهار، وما أن وَصَلَ إليه حتى انغرز بِقَدَمَيْهِ في طَمْيِهِ، لِيُشهر سَيْفَهُ من
جانبه باحثًا عن مُبتغاه، كان يَبْحَثُ عن تَوَاجُدِ أيٍّ من أسماك الطَّمْيِ التي قل
عَدَدُها مع الوقت وكثرة اصطيادها، فقد أَسَعَفَهُ الحظ منذ يَوْمَيْنِ في مُلاحظة
بعضٍ من فقايق الهواء التي تَشُقُّ طريقها لسطح الطَّمْيِ، ليتمكن حينئذٍ من
اصطياد من تَسْكُنُ بِأَسفلها، ولكن بعد انقضاء أغلب النَّهار في محاولاتٍ
مُضْنِية أَدْرَكَ على الفور أن الحظ لم يكن حليفه في ذلك اليوم، لِيُعاود التَّحَرُّكَ
عائدًا إلى عائلته بيديَّيْنِ خاويَّتين، أَسْرَعَ خُطَاهُ حينما أدرك بأن اللَّيْلَ قد شَارَفَ
على المجيء مُنذِرًا بالخطر كعادته في تلك الأيام، ليَصِلَ إلى داره ويُوَصِدَ
البابَ جيدًا من ورائه، فنظر إلى والده الجالس على الفراش في صَمْتٍ
مُطَبَّقٍ يحتضن من جواره أخاه الصغير، الذي يَأْبَى تَرْكَهُ بعيدًا عنه ولو لثوانٍ،
وقد صَدَمَ عقله مرارة الحُزْنِ التي لم تُفارقهُ منذ فُقدانه السَّابِقِ لصغيره
الآخر، ليَأْتِيَ "بيجاد" بكُرسِيٍّ وَيَضَعُهُ على مَقَرِيَّةٍ من بابِ الدَّارِ، لِيَجْلِسَ عليه
ويَضَعُ سَيْفَهُ من جِواره.

ومع مرور الوقت غَالَبَهُ التُّعَاسُ قليلًا لِيَفِقَ بعد ذلك من تَوَمُّهِ على صَوْتِ نداء
والده له في حَوْفٍ، فَالْتَفَتَ "بيجاد" سريعًا نحو البابِ من أَمَامِهِ فَالتقطت
أذناه حينئذٍ صَوْتٌ لأحدِ الأشخاص بالخارج يَتَحَسَّسُ البابَ وَيُحاول فتحه، كان
يقوم ذلك الشخص بِفِعْلَتِهِ في بادئ الأمر بصورة خافتة، ثم ما لَبِثَ أن حاول
اقتحام البابِ عُتُوًّا في شِدَّةٍ منه، لِيَرْتعد الباب في مُحاولته للضُّمُودِ أمام ذلك
الاعتداء الغاشِمِ عليه، فانزوى الشَّيْخُ العجوز وهو يحتضن فتاه المذعور في
كَتْفِهِ، لِيَهْبِ "بيجاد" من مكانه وَيَرطِمَ البابَ بِسَيْفِهِ في قوة، فيتعالى صَوْتُ
رَطْمِ التَّصَلُّ به في محاولةٍ يائسة منه لتهريب من بالخارج، لِيَخْفُتَ اهتزاز

الباب تدريجيًا حتى تلاشى مُعلنًا رحيل ذلك الغريب، حينئذٍ عاد "بيجاد" ليجلس على مقعده مجددًا مُشخص البصر نحو الباب منتظرًا انقضاء هذا اللَّيْل الطَّويل.

لقد أحكم اللَّيْل قبضته على المكان، لَيْسَكُن الجميع ديارهم في حَوْفٍ مما يَقبع بالخارج من مخاطر، ومن كان أكثر خوفًا من "الناصري" وعائلته، فها هو يَقبع بداخل داره بجوار زوجته وطفليّه، فلا حول لهم ولا قوة فيما هو آتٍ تلك الأيام، الجميع يَمُقُّته والجميع يُرَحِّب بموته وبالتأكيد لن يَهْب أحدٌ لنجدته إذا أصابه مكروه.

جلس "الناصري" هو وأسرته في الغرفة وقد تنامى إلى مسامعه طرقات قوية أتت على باب داره طلبًا للغوث، لتتحدث من الخارج في قَرَعٍ وَخَوْفٍ:

- "النَّجْدَة.. أتوسل إليكم أن تفتحوا الباب لي".

فظل "الناصري" ساكنًا في مكانه يَسْتَرِق السَّمْعَ دون حَرَكَ، ليزداد صَوْتُ المرأة توسلاً وهي تُكْمِل:

- "إنهم آتون لقتلي.. أتوسل إليكم.. أغيثوني".

لتمر دقائق من توسلاتها دون مُجيبٍ لها، فإذا بصَوْتٍ غاضبٍ يُصاحبها في الخفاء.. وقد ضاق ذرعًا وهو يُدرك أن حيلتهما لم تَنْطَلُ على من يسكنون الدَّار، ليرتج الباب إثر قوة دَفْعِهِ له.

- "فلتَفْتَح الباب أيها اللّعين".

بدأ جسد "الناصري" يرتعد في خَوْفٍ، لِيَنْتَفِضَ مع كل محاولة يقوم بها الرَّجُلُ لِرَطْمِ الباب بقوة لاقتحامه، حتى مَرَّ بعض الوقت وقد يئست محاولات من هما بالخارج.. لِيُخَيِّمَ السُّكُونُ على المكان من جديد.

كانت تلك الهجمات قد تكررت على دار "الناصري" مرارًا في منتصف اللَّيْلِ، وقد ازدادت في الآونة الأخيرة عن المرات السابقة، فبات دار "الناصري" الأكثر عُرضة لمحاولات النَّهْبِ والاختحام التي تحدث كل يوم، فكان يُدرك جيدًا أنه سيأتي اليوم ويصبح المَوْتُ الأكيد من نصيب عائلته لا محالة، لِيَنْظُرَ إلى ما أصابهم من هَزَلٍ وَوَهْنٍ جَرَّاءَ بطش الجُوع بهم، لِيَتَّخِذَ قرارًا لا رجعة فيه ولن يُثْبِتَهُ شيءٌ عما عَقَدَ العَزْمَ عليه منذ أيام، فقد جاءت فكرة يعلوها اليأس للهرب في وقتٍ متأخر من سكون اللَّيْلِ إلى أحدِ معارفه في مدينة (القطائع)، ممن يملكون التُّفُوزَ لتَهْرِيبِهِ إلى (الإسكندرية)، لِيَشُقَّ بحارها نحو بلاد (الشام)، فأَمْضَى بَقِيَّةَ اللَّيْلِ في جَمْعِ كل ما يستطيع حمله من أغراضٍ للخروج والهرب في عتمة اللَّيْلِ البهيم من هذا الرُّقَّاق التَّعَسِ.

وحين جاء الموعد المرتقب وتحت آخر سِتار ليل، خرج "الناصري" وعائلته من الدَّارِ مُتَوَجِّسِينَ خيفة من أمرهم، فلم يَكِدْ يتحرك لبضع خطوات حتى لاحت لأنفه رائحة عفنة تنبعث في الجوار، فرفع نظره في تقزُّزٍ منه نحو الشَّجَرَةِ العوجاء القابعة أمام داره، لِيُلْقِيَ نظرة أخيرة على صاحب تلك الرائحة.

كانت الرائحة لَجُتَّةٍ رماديةٍ مُتَحَلِّلَةٍ لشخصٍ يتدلى من أحد أغصانها العالية، تَمَرَّقَ جلده وانبثق لَحْمُهُ من ثناياه جَرَّاءَ رَجْمِ الجُوعِ له في محاولاتٍ عِدَّةٍ منهم لإيقاعه والظَّفَرُ بجثته، بعد أن فشل مَسْعَى الكثير منهم في تَسْلُقِ

الشَّجَرَة لانتشاله، فما زال قُماش الثوب المهترئ لـ "قُصَيِّ" يجمعه بها بعد كل تلك الفترة آبيًا تركه لِيَقْتَات منه الجَوْعَى، فحتى تلك اللحظة لم تفشل الشَّجَرَة العوجاء في الحفاظ على جُتَّة ونيسها الوحيد.

حينئذٍ أشاح "الناصري" بوجهه عن جُتَّة "قُصَيِّ" لِيُكْمِل مَسْعَاه، عبر العديد من الحوارى الجانبية مُتَخَفِيًا هو وعائلته تحت جناح الظلام، وهو يشاهد بَعِيْنِيْه ما آل إليه الأمر، المزيد من الدِّيار صارت مهجورة تُنَاطِح أبوابها المتأرجحة رياح اللَّيْلِ، يُسمع ضُراخ الأبرياء يستغيثون من الجَوْر، لِيَنْقَطع صَوْت مناجاتهم بغتَةً ويدركهم المَوْت فيُسرع من حُطَّاه، تلوح خيالات في الجِوار فيُعْدل عن المرور بها مُكْمِلًا مَسْعَاه، ظل "الناصري" يُكْمِل طريقه المُتعرِّج حتى وصل إلى أحدِ الأَزَقَّة التي تحتوي على ديارٍ ذات أسْفُفٍ قصيرة، ثلُطخ خطوط الدِّماء الجافة جدرانها لثُوحى بواقِعٍ مُخيف، لقد أوشك على قَطْع مسافة كبيرة، وقريبًا قد يتمكن من الوصول لأولى الطُّرُق المؤدية لمدينة (القطائع) في وقتٍ ليس بالبعيد.

ظن "الناصري" الغافل أن الحظ سوف يكون حليفه، لِيَتَحَسَّس أولى حُطَّاه وهو في طليعة عائلته، بينما تَحْمِل رَوْجَتُهُ أصغر أبنائهما ومن جوارها أخوه الأكبر ذو التسع سنوات، متوغلًا أكثر فأكثر بحُطَّاه وهو يترقب المكان من أمامه في صَمْت، وهنا لاحت له ظلالٌ تَتَخَفَى فوق أسْفُف الدِّيار، تُسرِع الحُطَى لِيُحِيطَ بهم من كل صَوْب ⁴¹. فأدرك على الفور ما هو مُقْدِم عليه.. ليَصِيح بعائلته لِيُسرعوا في الرِّكْض أَمَلًا في النَّجاة من هذا الفخ، ليتفاجأ بحبالٍ من السِّلَب مُحَكِّمة بالخطافات تُقَدِّف في الهواء لتُهوي نحوهم، لِيُصِيب أحد الخطافات الثقيلة رأس زوجته فتصرخ من الألم ويُدْمي جبينها، فتُكْمِل الرِّكْض

بجفنٍ مُغمضٍ تَعَدَّرَ عن الرؤية من الدِّماء التي انسابت نحوه، لتتعرثر بعد ذلك بخطواتٍ قليلة وتَنَكَّفَ على الأرض، وهي تحمل رضيعها الذي أخذ في الصُّراخ دون هَوادة فور اصطدامه بالأرض هو الآخر، فترجع "الناصري" حينها نحوهما في عجلة ليُسارع بِحَمْلِ طفلهما الصَّغير ويعاون رَوْجَتَهُ على التُّهوض وسط بكاء ولدهما الأكبر من جوارهما.

ليَتَفَاجَأ "الناصري" بأحد أبواب الدِّيار المُظلمة المُحيطة بهم، وقد فُتِحَ على مصراعه بغتَةً لِيَندفع منه أحدُ الأشخاص سريعًا وَيَقْبِضَ على أحدِ الحُطافات المُلَاقاة على الأرض، ويُسكنها في فخذ ولده الأكبر ويلوذ بالتَّواري مجددًا، ليُسارع أحد ساكني الأسْفُف على الفور في جَذْبِ السِّلَبَةِ لِيَزحف ولده على الأرض عِدَّة أمتار بعيدًا عنهم، ويرتفع مُنَجَذَبًا للأعلى وهو يصرخ مُستغيثًا، فالتَّفَتَ "الناصري" سريعًا نحو ولده تاركًا طفله الصَّغير طريح الأرض ليركض سريعًا نحوه ويتشبث بيَدِ طفله المُعلق في الهواء، لم يَسْتَطع "الناصري" وقت ذاك أن يَصِلَ إلى الحُطاف ليُبَعده عن فخذة ولده، فما كان منه إلا وأن حاول جذب الطُّفْل في يَاسٍ منه بقوة لِيَسحبه نحوه، حينئذٍ انتشل الحُطاف تَسِيرَةً من لحم فخذة الطُّفْل الذي أخذ يَصرخ دون انقطاع من الألم الذي أحاق به، بينما حاول أباه حمله لِيُعَاود التَّحَرُّك نحو بَقِيَّة أُسْرَتِهِ.

وهنا انتفضت بعض الأبواب المُحيطة بهم لِيَخْرَج منها عُصبة من الرِّجَال مُدَجَّجِينَ بِالْعُصِي، لِيَنهالوا بها على رَوْجَةِ الرَّجُل وطفله الصَّغير من أمامهم، فأُتَت صَرَبَةً أَحَدُهُم بعصاه على رأس الصَّغير لَتُسَكَّت بكاءه سَكَّةً أَبَدِيَةً على الفور، بينما رَفَعَت رَوْجَتُهُ يَدَيْهَا لَتَحْتَمِي بهما من البَطْش الذي يَحِيقُ بها وهي تَصْرخ في ألمٍ مُدْقِعٍ، حينئذٍ وقف "الناصري" على بُعْدِ أمتارٍ منهما وقد سَلَّ

الْخَوْفُ والصدمة حركته، يُشاهد ضربات الرِّجَال التي تنهال على زوجته دون أن يدري ما عليه فعله، في حين تَرَّجَحَ جسد رَوْجَتِهِ من قوة بَطْشِ ضرباتهم لَتَغيب عن الوعي مُستسلمة لما هو قادم.

فخرج من أحدِ الأبواب وقت ذاك شخصٌ واثق الخُطى يتحرك على هُدى من أَمْرِهِ، مُمَسِكًا بأحدِ السواطير التي تَجَلَّطَت الدِّماء على تَصْلِيها، لِيَقِفَ البَقِيَّةُ من جانبه وقد جاورَ جسد المرأة المُغشى عليها، لِيَنْظُرَ نحو زوجها لثوانٍ مُحَدَّدًا في وجهه غير مُصدق القَدَر الذي قد جمعه بمن يكرهه أكثر من غيره مرةً أخرى بعد انقضاء كل تلك الفترة، فنظر "الناصري" نحو الرَّجُل مُدَقِّقًا النَّظَرَ في وجهه ليزداد قَرَعُهُ أَثْقَالًا، كان "الناصري" يُحَدِّقُ في وجه قَصَّابِ السُّوق الذي كان يَعْرِفُهُ جَيِّدًا فيما مضى، فاتبعت عينا القَصَّابِ في سعادةٍ من أَمْرِهِ.. وقد طَفَّرَ بانتقامه الأخير من هذا اللَّعين، لِيَنْحِنِي وَيَجْذِبَ المرأةَ من شعرِ رَأْسِها لِيَجْعَلَهَا تَجْثُو على رُكْبَتَيْهَا رَغْمًا عنها، ثم رفع السَّاطور نحوها لِيَهْوِي به على مؤخرة رَأْسِها فَيَشُقُّهُ إِلَى شَطْرَيْنِ، حِينَئِذٍ تَفَجَّرَتِ الدِّماءُ من ثناياتهما لِتَتَنَاثَرَ بعضها على وجهه، حتى انحلت قبضته عن شعرِها في نهاية الأمرِ لِتَسْقُطَ على الأرضِ جُثَّةً هَامِدة تفيض منها الدِّماءُ.

انسابت الدموع من عَيْنَي "الناصري" الجاحظَتَيْنِ في مرارة حُزْنٍ مما قد لحق بِرَوْجَتِهِ، وهو يَرى نهاية حبيبته على يدِ القَصَّابِ الذي اعتاد أن يُسْقِيهِ مِنَ المُرِّ شَرَّابٍ، لِيَنْحِنِي الأخير وَيَنْتَزِعَ السَّاطورَ من مَنَبَتِ رَأْسِها وَيُشِيرَ به نحو "الناصري" وولده في نشوةٍ منه لِيُكْمِلَ رَفَقَاؤُهُ فِعْلَتَهُمْ، لِيَرْكُضَ القَتْلَةَ نحو "الناصري" وولده المُصابِ بينما عادت الخُطافات تَتَطَايرُ فِي السَّمَاءِ تَتَسَابِقُ لِلظَّفَرِ بِرَأْسَيْهِمَا.

أدعية كثيرة همهم بها الشيخ "صالح" وأخذ يُردد ذكرها أثناء خروجه من المسجد بعد أداء فريضة الفجر، بينما ينظر للأسفل صاربًا الأرض بتعلّيه ليحكم مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ بها فور خروجه، ليُكْمِلَ من تسبيحه مُتَحَرِّكًا نحو وجهته قاصدًا داره، فإذا به يلمح قدوم أحد ساكني الرُّقَاق من بعيد، لقد استطاع تمييز ذلك الرَّجُل الذي أخذ يترنح في حُطَاه المُرْهقة حتى خاتته إحداها ليتهاوى جسده ويسقط أرضًا، تحرك الشيخ في عَجَالَةٍ من أمره ليصل نحو داره ويَرْطِمَ بابه بقوة وهو يصيح عَوْنًا، ليُكْمِلَ العَدُوَّ في عَجَالَةٍ لِعَوْنِ الرَّجُل، فَفُتِحَ باب داره بعد ذلك وإذ برَجُلٍ غَامِضٍ يُطِلُّ برأسيه في حَذَرٍ من الداخل ليُبصر ركض الشيخ من أمامه ليخرج على الفور ويُسارع في اللّحاق به وعَوْنِهِ.

ليصل الشيخ "صالح" إلى الرَّجُل المنكوب على أمره ويجثو بجوار جسده أرضًا، ليرفع من رأس "الناصري" ويسكنها على إحدى رُكْبَتَيْهِ، كان جسد "الناصري" يترك أثر سَيْلٍ من الدِّماء من خلفه جَرَاءَ جرحٍ نافذٍ به، وقد تَلَوَّنَ وجهه بِسَحَابَاتٍ وَكَدَمَاتٍ إثر اعتداءٍ نجا منه بشق الأنفس، لتَغيب ملامحُ وجهه تحت تَوَرُّمِ جبينه الدامي، بينما يلفظ فمه من الدِّماء ما يُناهز ما قد غَادَرَ جسده، لينظر بعَيْنَيْنِ وَاهَتَتَيْنِ نحو الشيخ دون قدرةٍ منه على الحديث، ليأتي الرَّجُل الآخر من خلف الشيخ ويفترش الأرض في حُزْنٍ منه، ويقبض بقوة على يد "الناصري"، لتَلْتَفِتَ عينا "الناصري" نحو الأخير وترتسم الابتسامة على وجهه، ليُبصر وجهًا لم يكن يظن أنه قد يراه مرةً أخرى في حياته.

- "سَيِّدِي الناصري".

قالها "يوساب" والحُزْنُ يعتريه لما يراه قد حَلَّ بِسَيِّدِهِ، لم يكن يظن يومًا أنه قد يلتقي به مرةً أخرى، خاصةً بعدما حدث في المرة الأخيرة حين لاذ بالفرار

منه، لم يكن يعلم حين ذاك إلى أين يلجأ أو فيمن يثق، وقد باتت الأنفس جائعة ولا مأمّن منها أو مفر، ليذهب وقتئذٍ ويحتمي بدار الشَّيْخ "صالح" آمِن النَّفس والجسد دون أن يُذاع له سرًّا طيلة ذلك الوقت.

فَقَبِضَ "الناصري" بما تبقى له من قوَّةٍ على يد "يوساب" هو الآخر، ليُحدثه وهو يُجاهد سُعاله الدامي، لتُخرج الكلمات منه بجملةٍ أخيرة:

- "لا مأمّن لأحدٍ بالخارج".

نظر الآخران له في حُزْنٍ من أمرهما دون أن يُدركا ما العمل حين ذاك، فالرَّجُلُ يُصارع المَوْتَ وعليهما إغاثته على الفور دون أي تباطؤٍ منهما.

- "فلتُعَاوِني على اصطحابه لداخل الدَّار سريَّعًا".

قالها الشَّيْخ وهو يُحاول التُّهْوُض من جَنُوتِهِ لِيُمْسِكَ بإحدى ذراعيّ "الناصري"، فتحرَّك "يوساب" هو الآخر ليمسك اليد الأخرى ويرفع الجسد الواهن لِيَعْتَلِي كَتِفَهُ، فتحرَّك وهو يَتَرَوَّى الحُطَى حتى لا يُشْقِي جسد سَيِّدِهِ الذي غطت دماؤه كَتِفَ حامِله، ومن خلفهما يتبعهما الشَّيْخ "صالح"، لتمر دقائق معدودات حتى تبوح شفتا الأخير باسم "يوساب" وقد أحكم الحُزْنَ نبرته، فقد كان الشَّيْخ "صالح" حينئذٍ ينظر للـ "ناصري"، وقد سال اللَّعَاب الدامي من فمه بينما صاحبت عَيْنَيْهِ رَؤْيَ الأرض وقد فارق الحياة.

اصطحب الاثنان جثمان "الناصري" إلى داره، وهناك رَقَدَ الجثمان على الأرض من أمامهما والشَّيْخ "صالح" يدعو له بِالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ، لِيَطُول الصَّمْتُ المكان ويبدأ الشَّيْخ بعد ذلك في حَفْرِ الأرض لِيُدْفَنه بها، لِيَسْتَوْقِفَهُ "يوساب"

ويُخبره بسرٍ يحمل أمره بين طيات صدره، فطلب من الشيخ مرافقته بينما يتحرك ليتوغل بالداخل ليهم بالحديث:

- " لقد كان سيدي يحلم دوماً بمغادرة هذا الرُّقَّاق، وكان يتحدث دوماً مع رُوجته عن عزمه لشراء مزرعة للبهائم وإحدى الدِّيار بجوار قريباً له يسكن في القاهرة وسط عليّة القوم، ولهذا فقد حرص في السّنوات الأخيرة على توفير كل ما استطاع أن تناله يده قبل مجيء تلك النّكبة، وقام بإخفاء كل ذلك بعيداً عن الأعين المتلصصة".

ثم اتجه نحو أحد الحصائر التي تجثو فوقها طاولة كبيرة، ليُطّيح بالطاولة ويُزيح بالحصيرة جانباً.. فإذا بباب سرداب يظهر من أسفلها، فنظر الشيخ في عجبٍ من أمره نحو "يوساب"، وقد عاد الأخير للحديث مُكمِّلاً:

- "إنه سردابٌ تحت الأرض.. قصّيت أشهر عديدة في حفرة مع قُصيّ لكي يكون ملاذاً لأموال وثروات سيّدنا الناصري".

أحكم "يوساب" يديه على المقبض الثّقل للسرداب ليُعلي من عزمه ويدفعه جانباً، ثم دَلَف للأسفل يتبعه الشيخ "صالح" في دهشةٍ منه، فتحرك العبد ليقف بجانب عدّة حقائب ممتلئة بالدنانير وتُجاورها بعضُ من أغلّ الثّياب، ليستقر بجانبهما صندوقٌ خشبي مفتوحٌ على مصراعيه لا تتلاقى صِلقتيّ بابيه وقد اكتنزت بداخله بعض الدينارات الذهبية.

تحرك الشيخ من جانبه وهو ينظر نحو تلك الأموال الطائلة لثوانٍ، ثم التفت ليسأل "يوساب" عن سبب إخباره له بمكانها، ليُجيبه الأخير مُعلِّلاً:

- "بعد مَوْتِ سَيِّدِي سَتُصْبِحُ الدَّارُ مَزَارًا لِلْعَبَثَةِ وَاللَّصُوصِ لَا مَفْرَ، وَحِينَهَا سَوْفَ تَطُولُ يَدُ أَحَدِهِمْ يَوْمًا أَمْوَالَهُ لَا مُحَالَةَ.. وَلِهَذَا فَقَدْ قَرَرْتُ إِعْلَامَكَ بِمَكَانِهَا لِنَأْخُذَهَا بَعِيدًا عَنْ هُنَا وَتُسَكِّنُهَا فِي دَارِكَ الْآمِنَةِ".

ثُمَّ صَمَتَ لثَوَانٍ قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ فِي حُزْنٍ:

- "وَالسَّبَبُ الثَّانِي لِإِخْبَارِكَ بِأَمْرِ هَذَا الْمَكَانِ هُوَ أَنَّ نَسْتَعْمِدُهُ لِدَفْنِ جِثْمَانِ سَيِّدِي بِهِ، لِنَدْفِعَ بَوَاقٍ قَصْحَ مَكَانٍ دَفْنِهِ قَدْرُ الْمُسْتَطَاعِ، وَلَا يُنْبَشُ قَبْرُهُ وَتَطُولُهُ الْأَيْدِي الْجَائِعَةُ وَتَقْتَاتُ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ⁴²".

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ مُوَافَقًا عَلَى رَأْيِ "يُوسَاب" السَّدِيدِ، آمِلَيْنِ مِنَ الْمَوْلَى أَلَّا يَضْطَرَّا لِفَتْحِ ذَلِكَ السَّرْدَابِ مَجْدَدًا وَدَفْنِ أَحَدًا آخَرَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع

رائحة المَوْت

لم يَكُنْ تَنَاولُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ شَيْئًا مُسْتَسَاعًا أَوْ هَيِّئًا لَدَى الْبَعْضِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَتَنَاوَلُهُ فِي كُرِهِ مِنْهُ، فَتَنْقَلِبُ مِعْدَتُهُ لِيَلْفِظَهُ عَلَى الْفَوْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُجْبِرَ عَلَى تَنَاوُلِهِ لِيَبْقَى قَيْدَ الْحَيَاةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ مَهْمَا تَكَلَّفَ الثَّمَنُ وَقَدْ أَنْتَزَعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْهُ مَعَ كُلِّ مَرَّةٍ يَقْرَبُهُ بِهَا، حَتَّى بَاتَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ بِدَاخِلِهِ كَالضَّوءِ الَّذِي حَبَا مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، فَحَكَتِ امْرَأَةٌ عَنْ قِصَّةٍ اخْتِطَافِهَا عَلَى يَدِ رَجُلٍ وَاجْتِزَاؤِهَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لِعِدَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَتْ تَتَمَيَّزُ بِبِدَايَةِ جَسَدِهَا فَأَدْخَلَهَا دَارًا مُكْتَظَّةً بِالسَّكَاكِينِ وَآثَارِ الدِّمَاءِ وَزِفْرِ الْقَتْلِ، فَأَحْكَمَ وَثَاقَهَا وَأَخَذَ يَجْتَثُّ مِنْ فَخْدَيْهَا وَيَسْوِي لَحْمَهَا وَيَأْكُلُهُ، حَتَّى اسْتَطَاعَتْ ذَاتُ يَوْمٍ أَنْ تَلُودَ بِالْفِرَارِ فِي غَفْوَةٍ مِنْهُ لَتَرَوِي الْفُظَائِعَ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا ⁴³.

طَرَقَ قَوِيٌّ أَصَابَ بَابَ الدَّارِ فِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ صَاحِبَهُ نِدَاءِ الرَّوْجِ مِنَ الْخَارِجِ، لَتَجَفَلَ الرَّوْجَةُ مِنْ عَفْوَتِهَا وَتَحْمَلُ وَلِيدَهَا الَّذِي انْخَرَطَ فِي الْبَكَاءِ مِنْ ضَجِيجِ الطَّرْقِ وَتُسَارِعُ بَقْعِ الْبَابِ لَهُ، لِيَذِلَّ إِلَى الدَّخْلِ فِي عَجَالَةٍ مِنْ أَمْرِه حَامِلًا بِيَدِهِ قِطْعَةً دَامِيَةً مِنَ اللَّحْمِ، تَابَعَتْ الرَّوْجَةُ الْمَشْهَدَ مِنْ أَمَامِهَا وَهِيَ تُمَسِكُ بِالْبَابِ لَتَجِدَ رَوْجَهَا يَضَعُ قِطْعَةَ اللَّحْمِ فَوْقَ طَاوِلَةِ خَشَبِيَّةٍ، وَيُخْرِجُ سِكِّينَتَهُ الْمُغَطَّتِيَّ بِالدِّمَاءِ مِنْ جَانِبِهِ وَيَضَعُهُ بِجَوَارِهِ، ثُمَّ يُسَارِعُ لِيُوقِدَ النَّارَ مِنْ أَسْفَلِ أَحَدِ الْأَوَانِي عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ.

- "لِمَنْ تَعُودُ قِطْعَةُ اللَّحْمِ تِلْكَ؟".

تحدثت الزوجة إلى "عبد الرازق" في قَرَعٍ من أَمْرِها، وهي تُطِيل النَّظَرَ نحو
قِطْعة اللَّحْمِ مُبْهَمَةِ الوَصْفِ والمَلامِحِ، لِيُجِيبَها في سَعادَةٍ منه وهو يَنْتَظر
عَلَيان الماء من أَمامِهِ دون النَّظَرِ إليها:

- "هذا اللَّحْمُ سوف يكفينا مُوكَّدًا لآيامٍ مُقِيلَةٍ".

فَتَقَدَّمت الزوجة بضع خطوات وهي تُرَبِّت على طفلِها الرَّضيع لِيَهْدَأَ عن البكاء
لِتُعِيدَ الحَديثَ:

- "فلتُجِيبَ عن سؤالي على الفور.. لمن يعود ذلك اللَّحْمُ؟".

لَزِمَ زوجها الصَّمَتَ حينئِذٍ مُؤَلِّيًا ظَهْرَهُ لها، لَتَتَأَكَّدَ شُكوكَها وَيَعْتَلِي الحُزْنَ بَرَّتْها
وهي تُكْمِلُ:

- "فليَلْعَنُنِي اللهُ إِنْ كُنْتَ سَأَوَافِقَ على تَتَأَوَّلَ هذا اللَّحْمَ مُجَدَّدًا، فوالله لأَكل
الترابَ أَهْوَنَ عَلَيَّ من تلكِ الفِغْلَةِ".

انفعل الرَّجُلُ لِيَسْتَدِيرَ نحوها صائِحًا بها:

- "سوف تَأْكُلِيْهُ كي لا تموتِ جوعًا أَنْتِ وأَبناؤُكِ، لقد كَدْتُ أَنْ أَقْتَلَ من أَجل
الحصولِ على هذا اللَّحْمِ، وسوف أَطْعِمُكُمْ إِيَّاهُ مُكْرَهِينَ إِنْ اضْطَرَرْتُ لذلكِ".

تَظَرَّتِ الرَّوْجَةُ سَرِيعًا نحو طِفْلِها الآخر الذي يَغْفُو في تَوَمِهِ على الفراشِ
خِيفَةً من أَنْ يُوقِظَهُ صِيحاحُ رَوْجِها الغاضِبِ، ثم عَادَتْ لَتَنْتَظرَ نحو زوجها بَعِيْثَيْنِ

لوامتئين ترقرتا بالدموع، فما كان به إلا وأن هداً من روعه قليلاً ليكمل حديثه لها:

- " لقد بات هذا شأن الجميع.. إنها سنوات طوال مريرة، وسوف نحيا من خلالها مهما تطلّب الأمر".

فانهارت الزوجة في البكاء وهي تتحدّث في خفوت:

- "أتوسّل إليك ألا تُجبرني على أكل ذلك اللحم مرةً أخرى".

نظرت الزوجة وقتئذٍ إلى زوجها الذي تسمّر في مكانه.. وقد ارتسمت على وجهه علامات الدُعر وهو يُحدّق البصر نحو شيءٍ ما من خلفها، لتلتف سريعاً وتُنظر خلفها هي الأخرى لتعلم السبب وراء نظرات زوجها القريّة.

أدركت الزوجة حينئذٍ أنها قد عَقَلَت عن إغلاق الباب من وراء زوجها حينما دَلَفَ منذ قليل، بينما كانت مُنْشَغِلَةً في أمره وقت دخوله، لتُحدّق نحو ذلك الصَّبُع الجائع الذي دَلَفَ للدّار دون درايةٍ منهما، ارتعدت أوصالهما خوفاً جرّاء رَمَجَةِ ذلك الحيوان لهما، لِيَنْتَبِها حينئذٍ لتَواجِد ولدهما الآخر على الفراش بجوار ذلك الصَّبُع الغاشم، لِيَقْبِضَ بِقَکِّه على قدمِ الطُّفْلِ في محاولةٍ منه لجَذِبِهِ للخارج، لقد كان مَوْتُ الطُّفْلِ وشيكاً دون قدرة الزوجين على التّصدي له، لولا أن فاجأهما قدوم "غريّر" الأشيب، ذلك الرّجل الذي كان غِيَاب الشُّرْطَةِ عن الجِوار سبباً في عودته مرةً أخرى منذ حين، لربما كان القدر رَحيماً ليرسل لهما من يغيث ولدهما عن المصير الذي ينتظره، وحينها سارع "غريّر" في تَجَدّة الطُّفْلِ من براثن ذلك الحيوان بِشِقِّ الأنفُس، لِيَخُوض قِتالاً

كاد أن يُودي بحياته هو الآخر، لينتهي الأمر في النهاية بالموت المُحقَّق لذلك الحيوان الجائع.

وقف "غريِر" في نهاية الأمرِ بجوار الصَّنعِ النافِق وهو يُعيد خِنْجَرَه في عَمْدِه، يتنفس الصُّعداء بصَدْرٍ تتقاطع به الأنفاس جَرَّاء ذلك العِراك الضاري الذي حَدَثَ منذ قليل، لتنهَار الرِّوْجَة في البكاء وهي تعتصر جسد ولَدَها في سعادةٍ لَتَجاته، لِيَقِفَ "عبد الرازق" للحظات وهو يُشاهد الأمر من أَمَامِه، فَيَثِبُ بَعْدَها نحو "غريِر" وَبَدَّعَ جسده نحو الجِدَار قايضًا بيده على عِباءته في قوَّةٍ منه وهو يصيح به:

- "سوف تُعيِّنني على هروب وَلدي من هذا الجُحر المشؤوم".

غضب "غريِر" بشدة لِفعْلَةِ الرَّجُلِ تلك، لتبدأ يَدُه في الانسياب نحو خِنْجَرِه في هدوء، عازمًا على أن تَلْحَقَ يَدُ "عبد الرازق" برفيقيَّتها السَّابقة، لِئُبْصِرَ الرِّوْجَة فِعْلَتَه فتترك طفلها على الفور وتُسارع نحوهما لِتُبْعِدَ في عزمٍ منها قَبْصَة زوجها عن "غريِر"، لِيَهْدَأَ الوضع نِسْبِيًّا وتتنحى يد "غريِر" عن مُبتغاها في اللحظة الأخيرة، حينئذٍ التَفَقَّتِ الرِّوْجَة لـ "غريِر" وهي تحاول النَّظر إلى عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ جَاهَدَت كثيرًا لرؤيتهما وقد غابتا تحت عِباءة رَأْسِه، لِتَرَفَعَ يَدَها تجاه عِباءة رَأْسِه لِتُشِيحَ منها قليلًا أملًا في أن تُهديه حديثًا من القلب يملأه الامتِنان، وما أن لَامَسَتْ أطراف أناملها العِباءة، حتَّى أَشَاحَ برَأْسِه عنها في حَتَقٍ لِتَتَرَجَعَ عن فِعْلَتِها الأخيرة في حَوْفٍ منها، لِتَتَمَالَكَ أَمْرَها على الفور وهي تُحَدِّثُه بابتسامةٍ حنونة ارتسمت على وجهها:

- "أشكرك على إنقاذك لولدي.. فدون مَجيئك كان المَوْتُ من تَصيبه لا محالة".

فأجابها "غريز" دون مبالاة:

- "لقد كنت في الجِوار ورأيتَه أثناء دُلُوفه إليكم، فسَارَعت في المَجيء لقتلِه والمُطالبة بأَحَقِّيَّة امتلاك لَحْمَه".

ثم أَكْمَلَ على الفور بنبرة حازمة:

- "إنه أنا مَن قام بقتلِه وإنني من سَيَطْفُر بجثته".

فَنَظَرَت له الرَّوْجَة والابتسامة لم تُفارق وجهها لُتَّايَع:

- "سوف أظل مُمْتَنَةً لك لإنقاذك لولدي على أية حال".

ثم التَفَقَّت لِرَؤُوجِها في صَمَتٍ.. لَتَنْظُر في عَيْنَيْه وهي تعلم بالخُزْن الذي يختلج في صَدْرِهِ بشأن ما تَحَدَّثَ به منذ قليل، ولكن في صَمِيم قَلْبِها كانت تعلم بضرورة تلك الفِعلَة إن أرادت أن يُكْتَبَ لولِدهما النِّجاة، لَتُعَاوِد حديثها نحو "غريز" وهي تُعيد طَلَبَ رَؤُوجِها إليه.

- "نحن نعلم بأمرٍ تهريبك للأطفال من بُؤرة هذا الجحيم، ونُريدك أن تُسَاعِدَنَا في إبعاد ولدنا إلى مكانٍ آمِن".

عَرَفَ "غريز" عن الإجابة لثوانٍ لُتْسَارِع في الحديث له مجدداً:

- "نحن نعلم الثمن.. وسوف يكون صَـكَّ ملكية هذه الدَّار في حوزتك فور موافقتك على طلبنا هذا".

- "وماذا عن طفليكما الرَّضيع هذا؟".

أدار "غريـر" وجهه نحو الرَّضيع الرَّاقـد بجوار الطاولة الخشبية حين ذاك، لتتدَّرك الرَّوْجَة على الفور أمر "غريـر" وقد جَدَّبَ انتباهه قطعة اللَّحْم الموضوعة على الطاولة التي تَنضح الدِّماء من سطحها، فتَحَدَّثت في عجلة في محاولةٍ منها لتشتيت ذهنه، لتُجيبه في حزن:

- "لن نقوى على ترك وليدنا دون رعايةٍ منا.. لربما يأتي الوقت وتُعاود طَلَبنا هذا.. ولكن في الوقت الحالي سوف يظل معنا وليُعيننا الله على أمره".

ليَصْمُت "غريـر" يفكر لثوانٍ ويَعقد الأمر قائلاً:

- "حين يزورنا ليلٌ غدٍ سوف آتي لاصطحابه".

حينئذٍ تحدَّث "عبد الرازق" في تَعْجُبٍ منه مما سمعه للتو:

- "أليس من الأفضل مُصاحبة النَّهار عن اللَّيْلِ في تلك الأيام؟ فالخَطَرُ يُحدِّق بالجميع تحت حِلْكة طُلْمِته".

فأجابه "غريـر" في ثقةٍ من أمره:

- "إن عتمة اللَّيْلِ تؤذي من لا يعرفها حقَّ المعرفة وهذا ليس شأني.. كما أن القافلة لا تَسُدُّ رِجالها إلا تحت ستار اللَّيْلِ وعليَّ الانصياع للوقت الذي تُقرِّر

فيه الترحال".

ثم تَخَاطَهما لِيَتَحَرَّكَ على هدى تجاه الحيوان التَّافِقِ لِيُمْسِكَ بِقَدَمَيْهِ وَيَجْذِبَهُ نحو الخارج مُتَحَدِّثًا:

- "فلتُوصدا باب داركما حتى الغد".

ثم أكمل الحديث بنبرةٍ ساخرةٍ وهو شاخِص البصر نحو مَوْضِعِ قِطْعَةِ اللَّحْمِ فوق الطاولة:

- "إن لديكما من الطَّعام ما يكفي حاجتكما لوقتٍ طويل.. فلا حاجة للخروج وإراقة الدِّماء مجددًا".

أقبل العَدُوَّ بنهاره لتتوالى ساعاته وتنقضي، فيحل اللَّيْلُ مَرَّةً أُخْرَى على الرُّفَاقِ المنكوب، ليأتي "غريز" في المَوْعدِ المُتَّعَقِّ.. لِيَخْرُجَ "عبد الرازق" من داره بِضُحْبَةٍ ولده، بعد أن تَرَكَ حُصْنَ أُمِّهِ التي أجهشت بالبكاء فور وداعه دون أن يَدْرِي السبب من وراء فِعْلَتِهَا، حينئذٍ أَفْصَحَ "عبد الرازق" لـ "غريز" عن أمرٍ في نفسه، فقد طَلَبَ أن يُصَاحِبَهُ الأخير للذهاب إلى دار الشَّيْخِ "صالح" قبل بدء الترحال، لم يفهم "غريز" السبب وراء ذلك، ولكن كان صَكَّ الدَّارِ الذي في حوزته وقت ذاك كافيًا بأن تهدأ الشكوك في نفسه لِيَتِمَّا يَتَبَيَّنَ الأمر.

تَحَرَّكَ الجميع يَتَخَسَّسون الطَّرِيقَ في تَوَجُّسٍ، حتى وصلوا إلى دارِ الشَّيْخِ "صالح" لاستدعائه، حينها خرج الشَّيْخُ من داره ومن ورائه العبد الأخير للـ "ناصر" مُمَسِّكًا بِسَيْفِهِ كعادته، لِيَتَحَرَّكَ الشَّيْخُ وَيُدَاعِبَ بِيَدِهِ رَأْسَ الطِّفْلِ

في حَنَانٍ مِنْهُ، ثُمَّ التَّفَّتْ لِيُفْصِحَ لـ "غَرِيرٍ" عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ "عَبْدِ الرَّازِقِ" فِي صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِيَبْدَأَ الْحَدِيثَ:

- "سَوْفَ يُصَاحِبُكَ يَوْسَابُ فِي تَرْحَالِكَ الْيَوْمَ لَصَمَانٍ وَصُولِ الطِّفْلِ سَالِمًا لِلْقَافِلَةِ".

فَتَحَدَّثَ "غَرِيرٌ" بِبَرَّةٍ تُوشِكُ عَلَى قَيْضِ الْكِيلِ بِهَا:

- "إِنِّي أُرْتَجِلُ بِمُفْرَدِي دُونَ مُسَاعِدَةٍ".

ثُمَّ تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ نَحْوَ "يَوْسَابِ" قَائِلًا:

- "كَمَا أَنَّنِي لَا أَثِقُ بِأَحَدٍ لِيُجَاوِزَنِي الطَّرِيقَ".

لِيَتَحَدَّثَ الشَّيْخُ مُجِيبًا بِبَرَّةٍ إِصْرَارًا:

- "إِنْ تِلْكَ الْأَيَّامُ قَدْ نَزَعَتِ الثَّقَّةَ عَنِ الْجَمِيعِ حَتَّى أَنْتَ، وَلِهَذَا فَسَيُصَاحِبُكَ يَوْسَابُ الطَّرِيقَ".

حِينَئِذٍ فَاضَ الْكَيْلُ بِـ "غَرِيرٍ" لِيَسْتَدِيرَ مُوَلِيًّا إِيَّاهُمْ ظَهَرَهُ مُتَتَوِيًّا الْإِبْتِعَادَ وَالْإِنْسِحَابَ عَنِ الْإِتْفَاقِ الْمُبْرَمِ، فَكَادَ أَنْ تَتَعَرَّقَلَ خُطَاهُ بَعْدَ ذَاكَ لِيَجِدَ "عَبْدَ الرَّازِقِ" وَقَدْ جَنَّا عَلَى الْأَرْضِ لِيُمْسِكَ بِيَدِهِ إِحْدَى قَدَمَيْهِ، فَوَقَّفَ فِي مَكَانِهِ جَرَّاءَ ذَلِكَ، لِيَتَحَدَّثَ "عَبْدُ الرَّازِقِ" لَهُ عَلَى الْفَوْرِ رَاجِيًا:

- "أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَرْحَمَ وَلَدِي مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ.. فَيَدُونَ تَرْحَالَهُ عَنِ هَذَا الْمَكَانِ سَوْفَ يُصْبِحُ الْمَوْتُ مِنْ مَصِيرِهِ لَا مَحَالَةَ".

بكى الطُّفْلُ وقت ذاك في رهبةٍ منه لما يراه من فَعْلَةٍ والدِه وحديثِه، وحينئذٍ نظر "غريب" نحو الطُّفْل ونظرات والده المُتَوَسِّلَة إليه، ليَرُقِر صَدْرُه بحديثٍ يخشى أن يَندم عليه لاحقًا.

- "يَجِب عَلَيْنَا أَنْ نُسْرِعَ فِي الرِّحْلِ الْآنَ إِنْ أَرَدْنَا اللَّحَاقَ بِالْقَافِلَةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ".

تَهَض "عبد الرازق" حينها من جَنُوتِه وهو يَمْسَح بيده الدمع الذي قد انساب منه، لِيَلْتَفِتَ إِلَى صَغِيرِهِ مُطَمِّئًا إِيَّاهُ، فَأُمْسَكَ بِكَتِفِ طِفْلِهِ فِي عَزْمٍ مِنْهُ وَهُوَ يَبْتَسِمُ لَهُ قَائِلًا:

- "سَوْفَ تُسَافِرُ بِصُحْبَةِ صَدِيقَيْنَا الْآنَ.. وَعَلَيْكَ الْانْصِياعُ لِأَوَامِرِهِمَا دُونَ عِنَادٍ مِنْكَ أَوْ تَدَمُّرٍ".

زادت كلمات الرَّجُلِ مِنَ الرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ دَاخِلَ وَلَدِهِ لِيَعْلُو بِكَأُوهُ، فَصَاحَ بِهِ وَالِدُهُ فِي غَضَبٍ يَعْلُوهُ الْحُزْنُ:

- "أَنْتَ رَجُلٌ الْآنَ، فَايَاكَ وَالْبُكَاءَ مُجَدَّدًا".

ثم سارع باحتضانه وهو يُكْمِلُ فِي حِنُوٍ مُبَرَّرٍ:

- "إِنْ أَخَاكَ الصَّغِيرَ مَرِيضًا، وَلَنْ يَمُرَّ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى يَتَعَاْفَى.. وَشُرْعَانِ مَا تَلْحَقُ بِكَ عَنْ قَرِيبٍ".

اقترب "يوساب" لِيُمسك بيدَ الطُّفْل في هدوءٍ لِيبدأوا بالتحرك.. بينما كان الطُّفْل يلتفت إلى والده طيلة حُطَّاهم آبيًا أن يُشِيح بنظره عنه لحظةً واحدة، فوقف "عبد الرازق" حينها يُراقب أمرَ ولده، حتى اختفى الجميع عن البَصَر في رحلةٍ يأمل أن تُسْفِر عن الخير وألا يندم طيلة ما تَبَقَّى من عمره على اتخاذه لهذا القرار.

اللَّيْل وسِتاره المُعْتَم.. يَسْتَنجِد به الضَّعيف لِيُعينه، ويُغير به القوي على غيره.. هكذا أصبح الحال دائمًا.

مَرَّ وقتٌ ليس بالقليل على رحيلهم عن الرُّقَّاق، كان "غريز" يَتَصَدَّر الطَّرِيق ومن ورائه كان "يوساب"، يَحْكُم بيده على قبضة سَيْفِهِ المُعْمَد في جانبه مُصطحبًا الطُّفْل بالأخرى، مُتَتَبِعًا "غريز" في حُطَّاه والذي كان جَلِيًّا عليه معرفتها، ولكن يَتَبَدَّل الحال كل يوم من حالٍ إلى آخر، فالطُّرقات الآمنة بالأمس تصبح مُمَيَّتة اليوم، ولربما كان هذا سببًا في عُذُول "غريز" عن بعض قراراته في أن يسلك إحدى تلك الطُّرُق، خاصةً ما حدث وقتئذٍ حين توقف "غريز" بغتةً قُرابة مَدخل أحدِ الأَزِقَّة التي اعتادت أن يَشوبها الأمان، لَتَنسَاب إلى أنفه حينها رائحة صَدِئَة في الجِوار.. لِيُدرِك أن دماء الأبرياء قد أُريقَت في هذا المكان، فَعَدِلَ عن الدِّلُوف إليها لِيَتَحَرَّك مُكْمِلًا طريقه حتى وَصَلَ إلى أحدِ الأَزِقَّة المجاورة والتي يُحَيِّم عليها الصُّمُت المُطَبَّق.

تَشَكَّك "غريز" في أمرٍ ذلك الرُّقَّاق الذي أَحْكَمَه الهدوء الزائد والعَنَمَة المُقْبِضَة، فكانت دِيَارُه تَحْجُب انعكاس ضوء القمر من إِطْلَالِه على المكان، ولا يُؤَنَس وحدة الطَّرِيق ضوء دارٍ واحدة أو حتى تُنِير المشاعِل أحدِ جانبيه، ولكنهم كانوا قد أضاعوا الكثير من الوقتِ بِالْفِعْل وَتَحَنَّم عليهم تَعْوِيضه،

لِيُخْرِجَ خِنْجَرَهُ وَيَقْبِضَ عَلَيْهِ جَيِّدًا مُتَوَجِّسًا الْخُطَى لِلْأَمَامِ، حِينَئِذٍ أَشْهَرُ "يُوسَاب" هُوَ الْآخَرُ سِلَاحَهُ فِي وَجْهِ الْمَجْهُولِ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ مُسْتَرِقِ السَّمْعِ شَاخِصَ الْبَصَرِ لِيُكْمِلُوا تَحْرِكَهُمْ.. حَتَّى شَارَفَ الطَّرِيقَ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ وَأَوْشَكَتْ خُطَاهُمْ عَلَى الْمُرُورِ كَالْكَرَامِ، فَتَنَامَتْ بِدَاخِلِهِمْ وَقْتُ ذَاكَ سَعَادَةُ النَّجَاةِ مِنَ الْمَجْهُولِ.

وَوَسَطَ الشُّكُونِ الَّذِي يُحِيطُهُمْ.. أَتَتْ صَخْرَةً بَعِيدَةً عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ لِيُطَاحَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ بِالْقُرْبِ مِنْ "غَرِير"، لَتُشْعَلَ نَارُ الْحَدَرِ فِي دَاخِلِهِ لِيَنْظُرَ مِنْ أَمَامِهِ نَحْوَ الظَّلَامِ الْمُذْقِعِ، فَيُسْرِعَ بِالتَّقَاطِ أَحَدَ الْمَشَاعِلِ الْمُطْفَأَةِ مِنَ عَلَى الْجِدَارِ مِنْ جِوَارِهِ وَيَقُومُ بِإِشْعَالِ نِيرَانِهِ مُحَاوَلًا تَبْيُّنَ الْأَمْرِ، لِتَأْتِيَ أُخْرَى مِنْ بَعِيدٍ وَتَهْوِي عَلَى قَدَمِ "غَرِير" لِتَمَالِكَ نَفْسَهُ فِي أَلَمٍ مِنْهُ، فَأَقْدَمَ "يُوسَاب" حِينَئِذٍ عَلَى التَّحَرُّكِ سَرِيعًا وَالتَّاقِدِ لِلْوُقُوفِ أَمَامَ "غَرِير" شَاهِرًا سَيْفَهُ فِي شَجَاعَةٍ مِنْهُ، مُنْتَظِرًا قُدُومَ مَنْ يَنْتَوُونَ الْعَوْرَ عَلَيْهِمْ، لِيَسُودَ الصَّمْتُ حِينَ ذَاكَ لِثَوَانٍ وَيَعْمَ الْهُدُوءُ مِنْ جَدِيدٍ، فَالْتَفَ "يُوسَاب" نَحْوَ "غَرِير" مُنْتَظِرًا قَرَارَ الْخُطْوَةِ التَّالِيَةِ، لِتَتَسَّعَ عَيْنَاهُ دُهُولًا وَقَدْ أَبْصَرَ اخْتِفَاءَ الطِّفْلِ مِنْ جِوَارِهِمَا، فَالْتَفَتَ "غَرِير" هُوَ الْآخَرُ نَحْوَ مَوْضِعِ الطِّفْلِ لِيُدْرِكَ الْكَارِثَةَ الَّتِي هَوَتْ عَلَى رَأْسَيْهِمَا.

لَاخَ الْأَمَلِ لـ "غَرِير" وَقْتُهَا عِنْدَمَا أَبْصَرَ ظِلَالَ رَجُلٍ يَحْمِلُ الطِّفْلَ دُونَ صُرَاخٍ مِنْهُ وَيُبَارِحُ بَعِيدًا مُسْرِعًا مِنْ أَمْرِهِ، لِيَرْكُضَ "غَرِير" بِكُلِّ قُوَّةٍ يَتَّبِعُهُ رَفِيقُهُ عَابِرَيْنِ طَرِيقَ دُخُولِهِمَا، كَانَ حَمْلُ الرَّجُلِ لِلطِّفْلِ يُعِيقُ مِنْ سُرْعَةِ تَقَدُّمِهِ بَيْنَمَا كَانَ الْعَزْمُ فِي النَّفُوسِ يَدْفَعُ الْآخَرَيْنِ لِلْحَاقِ بِهِ وَمُقَارَبَةِ مَوْضِعِهِ، فَتَحَرَّكَ الرَّجُلُ سَرِيعًا لِيَتَوَجَّهَ لِرِزْقٍ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْآخِرِ، لِيَدْلِفَ إِلَيْهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى

المنتصف لِيَقِفَ مُنْتَظِرًا مُطَارِدِيَّهِ الْمُسْرِعَيْنِ مِنْ خَلْفِهِ، لِيَأْتِيَ الْاِثْنَانِ وَقَدْ شَارَفَا عَلَى الْوُصُولِ نَحْوَهُ بِبُضْعَةِ أَقْدَامٍ، وَحِينَئِذٍ فُتِحَتْ أَبْوَابُ دِيَارِ الرُّقَاقِ لِيُحِيطَ بِهِمَا عُضْبَةٌ مِنَ الرِّجَالِ، وَقَدْ حَاصِرُوهُمَا عَلَى الْفُورِ، كَانَتْ نِيرَانُ الْمِشْعَلِ الَّذِي يَحُودُهُ "غَرِيرٌ" قَدْ أَطْفَأَتْهَا نَسَمَاتُ الْهَوَاءِ قَبْلَ قَلِيلٍ إِنْ رَكَضَ "غَرِيرٌ" فِي مُطَارِدَتِهِ لِلرَّجُلِ، فَقَامَ حِينَهَا بِإِشْعَالِهَا مَرَّةً أُخْرَى لِيَرْفَعَ الْمِشْعَلُ لِلأَعْلَى، لِيَتَبَيَّنَ مِنْ أَمَامِهِ الْفَحَّ الَّذِي قَدْ وَقَعَ فِيهِ هُوَ وَرَفِيقُهُ.

أَحَاطَ وَهْجُ الْمِشْعَلِ "غَرِيرٌ" وَرَفِيقَهُ بِهَالَتِهِ لِيَتَّضِحَ الْمَشْهَدُ مِنْ حَوْلَهُمَا، كَانَ الرَّجُلُ يَقِفُ عَلَى مَقَرِبَةٍ مِنْهُمَا، يُمْسِكُ بِالطُّفْلِ الْقَزِيعِ بَيْنَمَا يَقْبِضُ عَلَى فَمِهِ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْقُمَاشِ، كَتَمَتْ الصَّوْتُ بِدَاخِلِهِ دُونَ اسْتِطَاعَةٍ مِنْهُ عَلَى الْحَدِيثِ أَوْ الصُّرَاحِ ⁴⁴. تَلَقَّتْ "غَرِيرٌ" مِنْ حَوْلِهِ لِيَرَى بَقِيَّةَ مَنْ يَحِيطُونَ بِهِمَا، لِيَجِدَ نِصَالَ سَيُوفِهِمْ شَاهِرَةً نَحْوَهُمَا، حِينَهَا أَلْصَقَ "يُوسَابُ" ظَهْرَهُ تَجَاهَ "غَرِيرٌ" فِي مُحَاوَلَةٍ لِلدِّفَاعِ عَنْ كُلِّ مِنْهُمَا فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَغَايِرِ، أَمَلًا فِي النَّجَاةِ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ.

حِينَئِذٍ أَبْصَرَ "غَرِيرٌ" رَجُلًا صَحْمَ الْجُنَّةِ، وَقَدْ أَتَتْ حَطَوَاتُهُ الْبَطِيئَةُ لِلْأَمَامِ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ رَفَقَائِهِ، لِيَتَّحَى خَاطِفَ الطُّفْلِ جَانِبًا مِنْ أَمَامِهِ لِيُتِيحَ لَهُ تَقَدُّمَهُ، كَانَ الرَّجُلُ يَمْتَلِكُ مِنَ الضَّخَامَةِ مَا تَكْفِيهِ لِلْبَطْشِ بِهِمَا فِي سَهُولَةٍ، تَكَادُ تُرْجِ الْأَرْضُ مِنْ جَمَلِ خُطَاهِ الثَّقِيلَةِ، تَسْحَبُ قَبْضَتَهُ سَيْفًا بَنَاءً مِنْ خَلْفِهِ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ آخَرَ عَلَى حَمْلِهِ دُونَهُ، يُزِيحُ كِبَرَ تَصْلِهِ الزَّاحِفِ تُرَابَ الْأَرْضِ مِنْ جَانِبَيْهِ.

سَكَنَ الرَّجُلُ مَوْضِعَهُ حِينَ ذَاكَ لِيَتَوَسَّطَ دَائِرَةَ الْفَحِّ الْمَنْصُوبِ، لِيَنْظُرَ نَحْوَ "غَرِيرٍ" فِي شَهْوَةٍ مِنْهُ لِلْفَتْكِ بِهِ، بَيْنَمَا صَاحَ بَقِيَّةُ رَفَقَائِهِ فِي نَشْوَةٍ مِنْهُمْ يَنْتَظِرُونَ إِرَاقَةَ الدِّمَاءِ، فَالْتَقَتْ "يُوسَابُ" فِي قَلْبِ نَحْوِ "غَرِيرٍ" الَّذِي تَقَدَّمَ

يَدَوْرِهِ هُوَ الْآخِرُ تَجَاهَ الرَّجُلِ الصَّخْمِ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ مِنْهُ، شَاهِرًا خِنْجَرَهُ الَّذِي لَا يُنَازِعُ حَجْمَهُ مِقْبَاضَ السَّيْفِ مِنْ أَمَامِهِ، وَمَعَ اقْتِرَابِ "غَرِيرٍ" مِنْهُ لَاحَظَ الدَّرْعَ الْكَبِيرَ الَّذِي يُحِيطُ بِصَدْرِ الرَّجُلِ الْغَاشِمِ، كَانَ الدَّرْعُ مُزَيَّنًا بِشِعَارِ الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ، لِيُذَكِّرَ أَنَّهُ أَمَامَ عَصَبَةٍ مِنْ فِرْقِ الْجَيْشِ الْمُنَشَقَّةِ، وَالَّذِينَ يَبْدُونَ وَأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا هَذَا الْمَكَانَ حِصْنًا لَهُمْ، لِيُغَيِّرُوا بِهِ عَلَى نَفُوسِ الْأَبْرِيَاءِ وَيَقْتَاتُوا مِنْ لَحُومِهِمْ، كَانَ هَذَا جَلِيًّا عَلَى أَجْسَادِهِمُ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ مَعْنَى لِلْهَزْلِ، وَكَانَ جَلِيًّا أَيْضًا عَلَى نُفُوسِهِمُ الَّتِي قَدْ اعْتَادَتْ الْقَتْلَ دُونَ أَدْنَى رَحْمَةٍ أَوْ شَفَقَةٍ مِنْهُمْ.

وَقَفَ الْاِثْنَانِ فِي مُوَاجَهَةٍ بَعْضُهُمَا الْبَعْضَ مُكْتَفِيَيْنِ بِتَرَاشُقِ النَّظَرَاتِ الْمَتَرَقِبَةِ لِبَضْعِ ثَوَانٍ، لِيَقْبِضَ الرَّجُلُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ عَلَى سَيْفِهِ وَيُطِيعَ تَصَلَّاهُ عَالِيًّا تَجَاهَ "غَرِيرٍ" الَّذِي سَارَعَ بِالتَّرَاجُعِ لِلْخَلْفِ دُونَ أَنْ يَطْوِلَهُ أَذًى، فَتَحَرَّكَ "غَرِيرٌ" لِيَلْتَفَ مِنْ جِوَارِ الرَّجُلِ الَّذِي تَبَاطَأَتْ حُطَاهُ الثَّقِيلَةُ فِي الْإِلْتِفَافِ هُوَ الْآخِرُ لِيُوَاجِهَ مَوْضِعَهُ مِنْ جَدِيدٍ، كَانَ عَقْلُ "غَرِيرٍ" حِينئِذٍ يُلْزِمُ أَفْعَالَ جَسَدِهِ وَتَحَرَّكَاتِهِ بِالْإِكْتِفَاءِ بِالِدَّفَاعِ فَقَطْ، عَازِمًا عَلَى الْهَجُومِ وَالْمَبَاغَةِ حِينَ تَتَّحِينَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِذَلِكَ، فَمُحَاوَلَةُ الْإِلْتِحَامِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الْغَاشِمِ تَعْنِي الْمَوْتَ الْمُحَقَّقَ عَلَى يَدَيْهِ.

فَعَادَ الرَّجُلُ مَجْدَدًا لِيُطِيعَ بِسَيْفِهِ عَالِيًّا نَحْوِ "غَرِيرٍ" مَرَّةً أُخْرَى، لِيَنْخَنِي الْآخِرَ سَرِيعًا مُتَّفَادِيًا إِيَّاهَا، لِيَطْوِلَ تَصَلُّ السَّيْفِ عَبَاءَةً رَأْسَهُ ظَافِرًا بِهَا دُونَ أَنْ يَمَسَّ رَأْسَهُ أَذًى، وَالَّذِي قَدْ كَادَ أَنْ يَطْوِلَهُ هُوَ الْآخِرُ، لِيَخْطُو عَلَى الْفُورِ لِلْأَمَامِ قَبْلَ أَنْ يُلَامِسَ السَّيْفُ ثُرَابَ الْأَرْضِ مَجْدَدًا وَيَطْلُعَنَّ فَخْذُ الرَّجُلِ وَيَنْشِثِلَ خِنْجَرَهُ سَرِيعًا، ثُمَّ يَثْبُجُ بِجَسَدِهِ مُبْتَعِدًا عَنْ عَدُوِّهِ، كَانَ عَقْلُ "غَرِيرٍ" حِينئِذٍ يَحِيكُ خِطَّةً

تمتاز بالبساطة والفاعلية، تعتمد على مُعادلة بسيطة.. وهي سرعة تحرك كل منهما، فكانت ضخامة الرَّجُل تُبطئ من حركته وتُتيح لـ "غريز" ميزة الكرّ والفرّ منه دون أن يطوّله أي أذى.

تَرَكَّت الطَّعْنة أَلَمًا جَلِيًّا على وجه الرَّجُل، بينما انسابت الدِّماء من فخذِهِ لِيَتَكَيَّ في حركته على قدميه الأخرى، حينها حَفَّت صِياح رفقائه قليلًا، وقد بدا عليهم التَّجَهُّم والقلق مما قد رأوه للتو، لِيَتَحَرَّك "غريز" مرةً أخرى ويلتف من حول الرَّجُل يَحْطُواتٍ واثقة عن ذي قبل، فقد كان يُوقن في داخلِهِ أن حَطُوتَهُ القادمة هي سبيلُهُ لِلنَّصْر، فَهَجَمَتِ التالية سوف تكون من نصيب القدم الأخرى وقريبًا سوف يخر هذا الثَّقَل أَرْضًا وَيَتِمَكَّن من الفُكِّ به على مرأى ومَسْمَع من رفقائه، وقريبًا سوف يَتَمَلَّكُهُم الخَوْف مما قد يَنَالُوهُ هُمُ الآخرون من بَطْشِهِ، فَيَكْفِي أن يَظْفَر برأس زعيمهم فَيَتَفَرِّقُون في خَوْف، حتى لا تَذوق أَنفُسُهُم المَوْتَ الذي قد أذاقوه لأنفسِ كثيرة من قبل.

ارْتَسَمَت ابتسامة واثقة على وَجْهِ "غريز" حينها، شاخِص النَّظَر نحو الرَّجُل ذي الملامح القَلِيَّة تجاهه، لِيُزِيح من شَعْرِ رَأْسِهِ يَدِيهِ دون الانتباه لعدم اعتلاء رَأْسِهِ للعباءة، فقد انْصَبَّ تركيزه وقت ذاك نحو شيءٍ واحدٍ فقط.. تَيَلُّ الفوز في ذلك النزال الذي يَصُمْن لهما النَّجاة من هذا المَأْرَق.

ها قد لاحت الفرصة وقتئذٍ من جديد، فابتسم "غريز" وهو يرى مُعاوَدَةَ الرَّجُل في تكرار هجمته دون أن يتعظ من سوء عاقبة تكرارها، لِيَتَقَدَّم ويبدأ في الانحناء مُتَوَقِّعًا حركة السَّيْف مثلما سَبَقَتْ، لتأتي حركة السَّيْف تلك المرة في تَوَسُّطٍ منها دون ارتفاع، لِيَحْتَضِنَ صَدْرُ "غريز" نَصْلَ السَّيْف الذي انغرز بين ضلوعه لِيَشِيق إياها، فَيَشْهَق من شِدَّة الألم وتجحظ عيناه دون القدرة منه

على الصُّراخ، لِيَقَع على الأرض شاخِص النَّظَر نحو حُلُكة السَّمَاء من أَمَامِهِ، تُصَارِع أنفاسه الدِّماء التي تَدَفَّقَت من قَمِهِ، بينما أخذ يَسْعُل في اختناقٍ من الدِّماء التي ملأت جَوْفَهُ، لِيَلْتَف برأسيه في وهَنٍ منه بنفسٍ تُنَارِع المَوْتَ، لِيَجِد الرَّجُل من جِواره يَنْظُر نحوَه وقد عَلَّت وجهه نشوة الانتصار على غريمه، لتتحرك مُقلتاه للأمام نحو رفيقه الذي انتفض يُطِيح بِسَيْفِهِ في وجوه الرِّجَال الذين أحاطوه من كل جانب، لتأتي طَعْنَةُ غَادِرَةٍ لَتَنْعَرز بظهره.. فيَجْثو على الأرض وهو يَجِر بِأسنانه من الألم الذي أحاق به، لِيُطِيح نَصْلُ برأسه عن رقبته بعيدًا وَتَهْوِي جثته على الأرض؛ لتبوح رقبته بما يَسْكُن جسده من دماء، حينئذٍ بدأت رؤية "غريِر" في الخفوت، لِيُزَاغ بصره نحو السَّمَاء مجددًا ويُغمض عَيْنَيْهِ وقد تَقَبَّلَت نفسه مصيرها الأبدي في نهاية الأمر.

ثوانٍ قد مَرَّت من السَّكِينَةِ على عقل "غريِر" وإطباقه لَجَفْنَيْ عَيْنَيْهِ، لِيَفْتَح عَيْنَيْهِ مجددًا وهو يقف من جوار "يوساب" وقد تراءى له المصير المحتوم الذي سوف يُلاقيه على يدي هذا الرَّجُل إن أقدم على ملاقاته، فوقف الرَّجُل من أَمَامِهِ مُنْتَظِرًا تَقَدُّمَهُ للنزال، لِيَعْتَرِيهِ الْعَصَب حينما أدرك وقوف غريمه دون حَرَاكِ مُعْلَنًا عُذُولَهُ عن ملاقاتِهِ، لِيَسْحَب السَّيْف من خلفه مُتَقَدِّمًا نحو "غريِر"، حتى لازمت حُطَاه الأرض بغتَةً وهو يَتَوَجَّس النَّظَر نحو "غريِر" الذي وَضَعَ يَدَهُ في عباة مُعْلَنًا خطوته القادمة.

كان "غريِر" قد لاحظ تَقَدُّمَ الرَّجُل نحوَه لِيُذِيقَ نَفْسَهُ المَوْتَ، فَدَسَّ يَدَهُ على الفور في ثنايا عباة ليُخرج يده بعد ذلك شاهراً إياها في وجه الرَّجُل، فَتَسَمَّرَ الرَّجُل وقت ذاك في مكانه وهو يُحَدِّق بالسَّلاح الذي يُمسكه غريمه، فقد كان "غريِر" يُحْكَم قَبْصَتَهُ على آنيّة فخارية بيضاوية الشكل ذات فُوهَةٍ

مُدَبَّبةً، تَنْبِت منها قطعة من القُماش تعمل كفتيلٍ لإشعالٍ لها، لِتُقارب يَدُه وَهَج نيران المِشْعَل الذي يُمسكه بيده الأخرى استعدادًا لإشعال قطعة القُماش، لِيُدرِكَ الرَّجُل هول ما يحوزه "غريِر" ويوشك على استخدامه.

كان "غريِر" يُواجه عُصْبَة من الرِّجَال الذين حَارَبوا تحت راية الجيش الفاطمي يومًا، فكانت لديهم من المعرفة العسكرية ما يكفي لِتَبَيَّن هذا السِّلَاح الفتاك، لِتَبْدَأ الهَمَّهَمَة القَلِيقَة وهم يُحَدِّقون في جِلَّة النفط⁴⁵ التي يُمسكها بيده، تلك الجِلَّة الفخارية التي تستطيع في ثوانٍ فور تَحَطُّمِهَا إغراق عشرات الرِّجَال في لهبٍ مُسْتَعِر، لِيَرَفَعَ الرَّجُل يَدُه نحو "غريِر" قبل أن يُوقِد فتيلها بلهب مِشْعَله، مُعلِّيًا استسلامه والابتعاد عن طريقه، لِيتراجع في حَذَرٍ منه نحو بَقِيَّة رفقائه الذين تفرقوا جانبًا بدورهم.. لِيتيحوا المرور الآمن لـ "غريِر" ورفيقه من الرُّقَاق.

تَوَجَّه "غريِر" حينها بِوَهَج مِشْعَله صَوْب الرَّجُل المُمسك بالطفِّل الصغير، لِيُدرِكَ الرَّجُل الأَمْر على الفور ويُبعد يَدَه عن قَمِ الصَّغِير ويُفلته من قَبْضَتِهِ، والذي قد أَفاض بالبكاء وهو يَهْرَع نحو مُنْقِذَتِهِ، لِيَرْتَمي بجسده نحو "يوساب" ويُحِيطه بيَدَيْهِ في حَوْفٍ، فسارَعَ "يوساب" بِحَمْلِهِ بينما لا زال يَقْفِض على سَيْفِهِ بيده الأخرى كعادته.

تحرك "غريِر" والآخِران نحو مَخْرَج الرُّقَاق في هدوء، شاهِرًا يَدَيْهِ للأمام وهو يُقارب جِلَّة النفط من المِشْعَل فيكاد قُماشها أن يَثُوق لوَهج نيرانها دون أن يَلْبِى له مَطْلَبًا، لِيَعْبِروا من جانِبَي الرِّجَال الذين تراجعوا بِخُطَاهِم في حَذَرٍ وَخَوْفٍ، لِيُبَارِحوا المكان بعد ذلك تاركين هذا الرُّقَاق المشوؤوم، وما أن لاذوا بالابتعاد عن المكان حتى أَطفَأ "غريِر" نارَ مِشْعَله، لِيَعُمَّ الظَّلام مَوْقِعَهُم وتعجز

الآعين الْمُتَرْقِبَةِ عن متابعتهم.. لِيَبْدَأُوا التَّوَجُّهَ نحو مَسْعَاهُمْ مرةً أُخْرَى للحاق بالْقَافِلَةِ.

سَتَرَ اللَّيْلُ بظلامِهِ تَحَرُّكَاتَهُمْ، يَتَوَجَّسُونَ الخُطَى عابرين الحواري والطُّرُقَاتِ مُتَحَاشِينَ مَخَاطِرَهَا دون أن يُفْصَحَ لَهُمْ أَمْرًا، حتَّى وصلوا في آخر المطاف للوقوفِ على أَحَدِ الطُّرُقَاتِ التي تَطُولُ الصَّحْرَاءُ جانبها وَيَدْفِنُ نهايتها كُتْبَانِ رَمَالِهَا، لتتراقص نَسَمَاتُ الصَّحْرَاءِ وَثُدَاعِبُ حُصَلَاتِ شَعَرِ "غَرِيرٍ" من جَانِبَيْهِ وهو يُطِيلُ الصَّمْتَ، تترقب عَيْنَاهُ وصول القافلة، ليأتي "يوساب" من جَانِبِهِ وهو يَجُولُ يَنْظُرُهُ في أَنحاءِ الصَّحْرَاءِ الشَّاسِعَةِ والتي أَطَلَّتْ بسهولة الناعمة من أمامهم على مرمى البَصَرِ، حاول حينها التَّمَعُّنُ في النَّظَرِ نحو الصَّحْرَاءِ التي عَمَرَهَا القَمَرُ بضوئه الخَافِتِ المُنْعَكِسِ على رمالِها للبحث عن أي أثرٍ للقافلة، لِيَمُرَّ وَقْتُ ليس بالقليل من صمتها المطبق وقد حَيَّمَ اليأسُ على رَأْسِ "يوساب" وهو يُحَدِّثُ "غَرِيرٍ" من جِوَارِهِ.

- "هل أَصَغْنَا الفرصة في لقاء القافلة؟".

لم يُلَاقَ من "غَرِيرٍ" إجابة لسؤالِهِ وقد اكتفى بِتَمَلُّي النَّظَرِ نحو الصَّحْرَاءِ في صَمْتٍ مِنْهُ.

حينها رَفَرَ "يوساب" بنفسٍ عَكِيزَةٍ من طول انتظارهم، لِيَلْتَفِتَ نحو الصَّغِيرِ الذي قد أَنَسَ وجودَهُمَا، فبدأ باللَّهْوِ وَتَحْرِيكِ الرَّمَالِ بِقَدَمِهِ في هَوَادَةٍ مِنْهُ، ثم قرر مُشَاكَسَةَ "يوساب" من جِوَارِهِ وقد أَزاح بعض الرَّمَالِ بِقَدَمِهِ جَانِبًا لَتَعْتَلِي تَعْلَ هذا الأخير وَتَرِدِمَهُ أَسْفَلَهَا، نظر "يوساب" لِفِعْلَةِ الصَّغِيرِ لِيُنْفِضَ الرَّمَالِ من فوق قَدَمِهِ وَيُقِضَ على كَيْفِي الصَّغِيرِ ويرفعه عَالِيًا في السَّمَاءِ، لتتعالى

ضحكات الطُّفل الصغير إثر صَنِيع "يوساب" وهو يَجَرُّ على أَسَنَانِهِ مُصْطَنَعًا الغضب في مزاحٍ منه.

انتبه "يوساب" حينئذٍ ليد "غريز" التي وُضِعَتْ على كَتِفِهِ لِيَلْتَفِتَ له.. فَيَجِدَهُ مُنْصَبَ النَّظَرِ نحو وَجْهٍ مُحدَّدٍ في الصَّحراءِ، لِيَضَعَ الصَّغِيرُ أَرْضًا وَيَنْظُرَ بِدَوْرِهِ نحو الصَّحراءِ الشَّاسِعَةِ لِثَوَانٍ دُونَ أَنْ يَجِدَ لِلْقَافِلَةِ أَيَّ أَثَرٍ، فَمَا لَيْثَ وَأَنْ رَفَعَ "غريز" يَدَهُ لِلأَمَامِ لِيَهْدِيَ نَظَرَ "يوساب" تَجَاهَ مَوْضِعٍ مَا، فَلَاخَتْ السَّعَادَةُ عَلَى وَجْهِهِ أَخِيرًا لَمَّا أَبْصَرَهُ.

عَلَتْ أَحْدُ السُّهُولِ البعيدةِ ظِلَالٌ لِمَوَكِبٍ كَبِيرٍ، تَتَحَرَّكُ أَقْدَامُ رِجَالِهِ عَلَى الْأَرْضِ فِي تَبَاطُؤٍ مِنْ ثِقَلِ رِمَالِهَا، بَيْنَمَا أَتَتْ مِنْ خَلْفِهِمْ سُنُنٌ طَوِيلَةٌ الْعُنُقِ تَعْبُرُ عَلَى الرَّمَالِ دُونَ كَلَلٍ، تَتَمَايَلُ بِأَجْسَادِهَا الصَّخْمَةِ وَتَتَمَايَلُ مَعَهَا تِلْكَ الْقَوَارِيرُ الَّتِي نُصِّبَتْ عَلَى جَانِبَيْهَا، تِلْكَ الْجِمَالُ الَّتِي تَنْقُلُ الْبُضَائِعَ وَالْمَدَدَ دُونَ تَدْمُرٍ أَوْ عَنَاءٍ، وَقَدْ آتَسَتْ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ طَوِيلَةَ الْوَقْتِ.

اِقْتَرَبَتِ الْقَافِلَةُ مِنْ مَوْضِعِ "غريز" وَرَفِقَتَهُ الَّذِينَ بَدَأُوا بِدَوْرِهِمْ التَّحَرُّكَ لِمُلَاقَاتِهِمْ، لِيَقِفَ الرِّجَالُ الْمُدَجَّجُونَ بِالْأَسْلِحَةِ كَجُنْدٍ مَصْفُوفٍ، فَعَبَّرَ مِنْ بَيْنِ صَفُوفِهِمْ أَحْدُ الرِّجَالِ لِيَتَقَدَّمَ عِدَّةَ خُطَوَاتٍ عَنِ الْبَقِيَّةِ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِمْ، لِيَنْظُرَ نَحْوَ الطُّفْلِ الصَّغِيرِ مِنْ جِوَارِ "يوساب" وَيُطِيلَ يَدَهُ تَجَاهَهُ دُونَ حَدِيثٍ مِنْهُ، كَانَتْ مَلَامِحُ الْجُمُودِ عَلَى وَجْهِ الرَّجُلِ وَرَفَقَتِهِ قَدْ أَصَابَتْ نَفْسَ الصَّغِيرِ بِالرَّهْبَةِ مِمَّا هُوَ آتٍ، لِيُعَاوِدَ الْبُكَاءَ وَقَدْ أَلْصَقَ جَسَدَهُ الْمُرْتَعِدَ فِي جَانِبِ "يوساب"، حِينَهَا تَحَرَّكَ "غريز" نَحْوَهُ لِيَجْثُو عَلَى قَدَمَيْهِ وَيَنْظُرَ مَلِيًّا نَحْوَ عَيْنَيْ الطُّفْلِ الْقَرِيعَتَيْنِ، وَهُوَ يَحْدِثُهُ بِابْتِسَامَةٍ قَلَّمَا تَزُورُ وَجْهَهُ:

- "بيدو أنك تَسَيِّت نصيحة أبيك الأخيرة لك أيها الصَّغير، فالرَّجال الأقوياء لا يعرف الحَوَاف أو البكاء لهم طريقًا، وأنت يَتَّ رَجُلًا منذ هذه اللَّحظة، وقريبًا سوف يَسْعُد والدك برؤياك وسوف تُبَلِّغُه بأنك قد وَقَّيْتَ بوعدك له، وأعدك أنه من اليوم لن يَطولك حُزنٌ أو حَوَاف".

نظر "غريِر" للطفل والذي قد بدء بتمالك بكائه، ليَضَع يده على كَتِفِه ويُشير إلى الرَّجُل من أمامه ليُكَمِّل:

- "هل تعلم السبب وراء تَجَهُُّهم أولئك الرِّجال؟ لقد نالت رِمَال الصَّحراء من وجوههم وأنوفهم وآذانهم أثناء رَحَلَتِهِمْ، وقريبًا سَتَجِد هذا الرَّجُل يَسْعُل فتخرج الرِّمال من قَمِه".

ثم صَمَت هو والطفُّل وهما ينظران في ترقبٍ نحو الرَّجُل المُتجهَم من أمامهما لثوانٍ، ليُكَمِّل "غريِر" الحديث في سخرية:

- "لربما لن يَسْعُل الآن.. ولكن يُمكنك إحصاء سُعال الرِّجال في طريق العودة وإبلاغ والدك بها حينما تراه في القريب".

ارْتَسَمَت على وجه الطفُّل ابتسامة بسيطة تَحولت سريعًا لَقَهْقَهة طفولية إثر حديث "غريِر" له، فابتسم "غريِر" مرةً أخرى وهو يُعاود التُّهوض من جَنُوتِه لِيَدْفَع الطفُّل برفقٍ منه نحو مَوْضِع الرَّجُل، فَنَظَرَ الطفُّل له في صَمَتٍ منتظرًا اصطحابه، ليُحدِثه "غريِر":

- "تَذَكَّر أنك رَجُل الآن.. ولا تَحْتَاج لِمُصاحبة أحدٍ لك في دربِكَ من اليوم".

ابتسم الطُّفْلُ له حينئذٍ لِيَتَحَرَّكَ فِي تَرُدُّدٍ مِنْهُ نَحْوَ الرَّجُلِ وَيُمْسِكَ بِيَدِهِ،
لِيَسْتَدِيرَ الرَّجُلُ مُصَاحِبًا إِيَّاهُ لِلْعُودَةِ نَحْوَ الْقَافِلَةِ.

حينها حَدَّثَ "غريِر" رَفِيقَهُ فِي هَدْوٍ:

- "لِنُعَاوِدِ التَّحَرُّكَ سَرِيعًا أَمَلًا فِي أَنْ يَكُونَ الْحِظُّ حَلِيفِنَا فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ".

فَأَفْصَحَ "يُوسَاب" عَنْ سُؤَالٍ قَدْ سَاوَرَهُ لِيَسْأَلَهُ:

- "وَكَيْفَ سَتَتِمَكُنِ الْقَافِلَةُ مِنَ الدَّهَابِ إِلَى الشَّامِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيرِ؟
فَالرَّحْلَةُ قَدْ تَسْتَغْرِقُ أَيَّامًا".

فَأَجَابَهُ "غريِر" فِي هَدْوٍ مِنْهُ:

- "إِنْ أَبَا الصَّلَاتِ يَمْتَلِكُ قَوَافِلَ تَمْتَدُّ عَلَى طُولِ الصَّحَرَاءِ، إِنَّهَا قَوَافِلُ تَسْكُنُ
الصَّحَرَاءَ تَرْتَجِلُ لِمَسَافَةٍ مَعْلُومَةٍ، لَثَلَاقِي قَوَافِلَ أُخْرَى وَتُسَلِّمُهُمْ بِضَائِعِهَا
وَتَعُودُ بِفَارِغِهَا".

اسْتَدَارَ "غريِر" لِلتَّحَرُّكِ مَجْدَدًا مُتَقَدِّمًا الطَّرِيقَ كَعَادَتِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ "يُوسَاب" فِي
صَمْتٍ مِنْهُمَا، كَانَ "يُوسَاب" يَنْظُرُ نَحْوَ رَفِيقِهِ مِنْ أَمَامِهِ فِي ابْتِسَامَةٍ مِنْهُ وَقَدْ
أَحْرَزَ النَّجَاحَ فِي مَسْعَاهُ الَّذِي صَاحَبَهُ مِنْ أَجَلِهِ، مُنْتَظِرًا الْعُودَةَ لِلشَّيْخِ وَإِبْلَاغَهُ
بِمَا حَدَّثَ وَمَا قَدْ أَوْصَاهُ بِهِ، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ "غريِر" السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ وَرَاءَ قُدُومِ
"يُوسَاب" مَعَهُ، لَقَدْ أَيقَنَ الْآنَ الْأَمْرَ.. لَقَدْ أَيقَنَ إِتْيَانَ بَدَايَةِ جَدِيدَةٍ لـ "غريِر"
الْأَشْيَبِ.

أَمَدَتِ الْحَقَائِرُ الْأَثَرِيَّةَ تَحْتَ أَنْقَاضِ مَدِينَةِ (الْفُسْطَاطِ) كَمِيَّاتٍ هَائِلَةٍ مِنْ جِلِّ
النَّفْطِ بِمَخْتَلَفِ أَحْجَامِهَا وَأَشْكَالِهَا، مَحْفُوظَةٌ حَالِيًّا فِي غَالِبِيَةِ مَتَاحِفِ (مِصْرَ)،
خَاصَّةً (مَتَحَفِ بَوْرَسَعِيدِ الْقَوْمِيِّ، وَمَتَحَفِ قَلْعَةِ صِلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ بِالْقَاهِرَةِ)،
كَمَا يَتَوَاجَدُ الْبَعْضُ مِنْهَا فِي (الْمَتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ) بِالْعَاصِمَةِ (لَنْدُنْ - بِالْوِلَايَاتِ
الْمَتَّحِدَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ) (British museum).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضة

عَادَ الرَّجُلُ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ عَمَلِهِ الْمُعْتَادِ فِي بَيْعِ الْحَصَائِرِ طِيلَةَ الْيَوْمِ
فِي سَوْقِ (الْفُسْطَاطِ) الْمُرْدَحِمِ كِعَادَتِهِ، وَحِينَ دَلَفَ إِلَى الدَّخْلِ أَطَلَّتْ عَلَيْهِ
زَوْجَتُهُ لِلتَّرْحِيبِ بِهِ وَالِابْتِسَامَةِ تُطِلُّ مِنْ وَجْهِهَا، لِيَجْلِسَ مِنْ جِوَارِهَا عَلَى
فِرَاشِهِمَا يُحْصِيَانِ حَصَادَ الْيَوْمِ، كَانَ يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِإِتْيَانِ قَافِلَةٍ مِنْ
(الْعِرَاقِ، وَالْمَغْرَبِ) لِلسَّوْقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِبَيْعِ كَثِيرٍ،
وَأَثْنَاءَ انْشِغَالِهِمَا بِمَا هُمْ مُنْصَبَّانِ عَلَيْهِ.. أُطِيحَ وَقْتُ ذَاكَ بَابُ الدَّارِ لِيَأْتِيَ مِنْ
تُصَاحِبِهِ الْمَتَاعِبِ دَوْمًا.

دَلَفَ قَتَاهُ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ مِنَ الْعُمُرِ الثَّانِيَةِ عَشَرَ عَامًا بَعْدَ إِلَى الدَّارِ، لِيُطِيحَ
الْبَابَ مِنْ وَرَائِهِ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ، فَنَظَرَ نَحْوَهُ وَالدَّاهِ دُونَ عِلْمٍ لِهَمَا بِسَبَبِ مَا
يَعْتَرِيهِ مِنْ غَضَبٍ، لِيَتَحَرَّكَ الشَّابُّ سَرِيعًا دُونَ أَنْ يَسْتَرْعِيَ لَوَالِدَيْهِ مِنْ أَمْرِ
نَحْوِ إِنَاءٍ مِنَ الْمَاءِ، وَيَصْحَبُهُ تَجَاهَ أَحَدِ الْمَقَاعِدِ الْخَشَبِيَّةِ لِيَضَعَهُ بِجِوَارِهِ، ثُمَّ
مَسَحَ الدَّمَاءَ مِنْ شَفَتَيْهِ اللَّتَيْنِ قَدْ تَوَرَّمَتَا إِثْرَ عِرَاكِهِ بِالْخَارِجِ، لِيَعُودَ وَيَأْتِيَ
بِخَنْجَرٍ وَالدَّاهِ الْمَوْضُوعَ فَوْقَ أَحَدِ الطَّاوِلَاتِ لِيَقْبِضَ عَلَيْهِ فِي تَعْصَبٍ جَلِّيٍّ
وَيَصْحَبُهُ مَعَهُ.

تَمَجَّلِسُ الشَّابَّ عَلَى مَقْعِدِهِ لِيَطُولَ الْمِيَاهُ بِيَدَيْهِ وَيَغْرُقَ بِهِ شَعْرَ رَأْسِهِ الْأَبْيَضَ
كَحَقْلِ مِنَ الْقَطَنِ، لِيَقْبِضَ عَلَى الْخَنْجَرِ مِنْ جِوَارِهِ وَيَبْدَأَ فِي تَخْلِ شَعْرَ رَأْسِهِ
مِنْ مَتْنَبِهِ بِقُوَّةٍ، دُونَ أَنْ يُبَالِيَ بِفُرُوعِ رَأْسِهِ الَّتِي تَجَلَّلَتْ مِنْ قَسْوَةِ فِعْلَتِهِ
وَأَسَالَتْ مِنَ الدَّمَاءِ مَا قَدْ انْسَابَ عَلَى جَبْهَتِهِ دُونَ أَنْ يَهْتَمَّ بِذَلِكَ.

نَهَضَ وَالِدُهُ مِنْ مَجْلِسِهِ عَلَى الْفُورِ لِيَتَوَجَّهَ نَحْوَ وَلَدِهِ وَيَقْبِضَ عَلَى يَدِهِ لِيُوقِفَ
فِعْلَتَهُ وَهُوَ يُحَدِّثُهُ مُسْتَنَكِرًا:

- "مَاذَا تَفْعَلُ يَا بُنَيَّ؟".

أَبْعَدَ الْفَتَى يَدَ أَبِيهِ عَنْهُ فِي عَصَبِيَّةٍ وَاضِحَةٍ، لِيَسْتَمِرَّ فِي جَرِّ شَعْرِهِ وَقَدْ انْسَابَتْ
مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ قَهْرٍ وَمَذَلَّةٍ.

حِينَئِذٍ رَبَّتْ وَالِدَةُ عَلَى كِتْفِهِ فِي حَزَنِ مِنْهُ وَهُوَ يَسْأَلُهُ:

- "فَلْتُخْبِرْنِي بِمَا بَكَ يَا بُنَيَّ؟".

- "إِنِّي أَكْرَهُ هَذَا الشَّيْبَ اللَّعِينُ، فَمَا بِهِ إِلَّا وَأَنْ أَذَاقَنِي الْمَرَارَ طِيلَةَ حَيَاتِي".

اسْتَدَارَ وَالِدُهُ لِيَنْظُرَ إِلَى زَوْجَتِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يُحَدِّثُهُ بِهِ لِيُرِيحَ قَلْبَهُ بِهِ، لِيُجِيبَهُ
حِينَهَا:

- "إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمُظْهِرِهِ أَوْ هَيْئَتِهِ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزُ.. وَلَكِنْ بِمَا...".

قَاطَعَهُ فَتَاهُ الصَّغِيرُ وَهُوَ يَنْتَفِضُ مِنْ مَكَانِهِ غَاضِبًا:

- "فلتقل هذا لغيث بن رماح وغيره ممن يُذيقونني المهانة كلما رأوني".

ثم عاد ليُحدِّث والدَه في حسرةٍ منه وهو يُشير نحو وجهه:

- "هذا الوجه اللعين ذو هيئة السبعين عامًا، أصبح السَّبيل لسخرية كل من يراني.. إني أكره ما بي وما وُلِدْتُ عليه".

ثم انحنى ليَطول الماء مرة أخرى ويدفن به الخنجرَ الدامي لتَنساب الدِّماء من التَّصل ويتعكر بها الماء، ليُعيد رفعه نحو فروة رأسِه ليُكَمِّل فِعْلَتَه دون أن يَجِد والده ما يُحدِّثه به، فما كان منه سوى أن عادَ ليجلس على فراشِه بجوار زوجته المهمومة فيما تراه بولدها الصغير.

تَحَسَّسَ الفتى فروة رأسِه بيده فور انتهائه من حَلْقِها، لتهدأ نفسُه قليلًا ويرتاح قلبُه، حينها تحرك نحو بعضٍ من ثياب والدِه ليبدأ البحث بها عن ضالَّتِه، فحدَّثته والدته في جنوٍ منها:

- "لقد أعددتُ لنا بعضًا من البيسار⁴⁶ الذي تُفضله".

لم يُجِبها الفتى وأكمل بحثَه عما لا يعلمان عنه شأن.. لتعود للحديث سريعًا وهي تنهض من مَجْلِسِها في حماس:

- "فلتُجالس والدك وسوف أقوم بإعداده على الفور".

ليُجيبها ولدُها دون أن ينظر لها مُنشغلًا في أمرِه:

- "لن أتناول الطَّعام.. أنا لستُ جائع".

ثم صاح غاضبًا وهو يُحَدِّثُ نفسه:

- "أين تلك العباءة اللعينة؟".

فَنَظَرَ له والدُه في تَعَجُّبٍ من أَمْرِه لِيَسْأَلَه:

- "عما تبحث يا بُنَيَّ؟".

لم يُجِبْهُ "غريب" وقد طالت يداه حينها غايته، ليرفع يديه عاليًا مُمسكًا بإحدى عباآت والده ذات غطاء الرأس، ليُشرع في ارتدائها ويُعدل من مَوْضِعِ الغطاء فوق رأسه وقد سَكَنَ قَلْبُه الهدوء فور اغْتِمَارِها، لِيَهْمُ بالتَّحَرُّكِ نحو بابِ الدَّارِ مغادرًا.

حينها نادته والدته في قلقٍ منها:

- "إلى أين أنت ذاهب يا وَلَدِي؟".

لِيُجِيبَهَا وَلَدُها في عَجالة وهو يفتح الباب:

- "سوف أهُم بالخروج قليلًا بعيدًا عن هذا الرُّقَاقِ اللعين وصُحْبَتِهِ".

أطاح الفتى بالباب من ورائه ليُغلِّقه ويَرَحَلَ بعيدًا عن الدَّارِ، لِيَتَبَادَلَ والداه النَّظَرَاتِ في صَمْتٍ دون حديثٍ منهما، كانا يعلمان بالحُزْنِ والمرارة اللذين أَشَقَّيا نفسَ ولَدِهما مما يُعانيه دائمًا من تَتَمُّرٍ نحو هيئته التي وُلِدَ عليها، آمِلَيْنِ أن يَتَقَبَّلَ الناس تلك الهيئة التي مَيَّرَه الله بها ولا داعي لإخفائها يومًا، ولكنهما

لم يكونا يعلمان أن قَسوة الناس ومَرارة أحكامهم سوف تكون السبب في
اغْتِمَارِه لعباءة الرأس طيلة حياته ⁴⁷.



الفصل العاشر

الغريبان

ظِلَالُ تَرَاءتِ لِمُقْلَتَيْهِ وَسَطِ نُعَاسٍ جَفْنَيْهِ، فَتَمَعَّنَ "غَرِيرٌ" النَّظَرَ نَحْوَهَا لِيَجِدَ وَالِدَيْهِ يُجَالِسَانِ الشَّيْخَ "صَالِحٌ" وَ"يُوسَابُ" بِالذَّارِ، يَبْدُو أَنَّ هَمَّهُمَ حَدِيثَهُمْ قَدْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمٍ عَمِيقٍ، لِيَسْتَفِيقَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ تَوَمِهِ وَيَنْظُرَ نَحْوَ السَّقْفِ لثَوَانٍ، لِيَنْهَضَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ فِرَاشِهِ فِي تَثَاقُلٍ مِنْ أَمْرِهِ وَيَتَحَرَّكَ تَجَاهَ إِنَاءٍ لِيَصُوبَ مِنْ مَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ دُونَ الْإِلْتِفَاتِ أَوْ الْحَدِيثِ إِلَى أَحَدٍ، وَمَا أَنْ قَرَعَ مِنْ فِعْلَتِهِ حَتَّى تَحَرَّكَ نَحْوَ إِحْدَى عِبَائِهِ لِيَبْدَأَ فِي ارْتِدَائِهَا قَاصِدًا مُغَادِرَةَ الدَّارِ.

- "فَلَتَأْتِي يَا وَلَدِي لِنَتَحَدَّثَ مَعَكَ".

قَاطَعَ حَدِيثَ وَالِدِهِ تَقْدُمَ خُطَاهُ لِلخَارِجِ، لِيَزْفِرَ فِي حَنَقٍ مِنْهُ وَيَسْتَدِيرُ لِلْعُودَةِ لِيُجَالِسَ أَبَاهُ وَالْبَقِيَّةَ دُونَ حَدِيثٍ، حِينَهَا اسْتَهْلَ وَالِدُهُ الْحَدِيثَ بِابْتِسَامَةٍ عَلَتْ وَجْهَهُ قَائِلًا:

- "لَقَدْ جَاءَ الشَّيْخُ صَالِحٌ لِنَتَحَدَّثَ مَعَكَ فِي أَمْرِ هَامٍ".

فَظَلَّ "غَرِيرٌ" غَارِقًا فِي صَمْتِهِ دُونَ أَيِّ مُبَالَاةٍ مِنْهُ، حِينَهَا بَادَرَ الشَّيْخُ "صَالِحٌ" قَائِلًا:

- "أَعْتَرَفْتُ بِأَنْ طَلَبْتَنِي لِمُصَاحَبَةِ يُوسَابَ لَكَ كَانَ يَحْوِي أَمْرًا آخَرَ بِجَانِبِ مُعَاوَنَتِهِ لَكَ فِي رَحْلَتِكَ، فَلَقَدْ اعْتَرَفْتَنِي الشُّكُوكَ مِنْ مَسْعَاكَ، وَلِهَذَا أَرْسَلْتَهُ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّةِ أَقْوَالِكَ.. وَالْآنَ قَدْ ارْتَاحَ قَلْبِي لِأُبُوحَ لَكَ بِمَطْلَبِي".

عَلَّتِ السَّخْرِيَّةُ مَلَامِحَ "غَرِيرٍ" مِمَّا قَدْ سَمِعَهُ لَتَوهُ، لِيُكْمِلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ:

- "لَقَدْ بَاتَ الْحَالُ لَا يُحْتَمَلُ وَكُلُّ نَفْسٍ تَخْشَى مَوْتَهَا وَمَوْتَ أَطْفَالِهَا، وَلِهَذَا فَإِنِّي أُرِيدُكَ أَنْ تَقُومَ بِتَهْرِيبِ أَطْفَالِ الرُّقَاقِ لِمَنْ يَرِيدُ ذَلِكَ، وَسَوْفَ أُذِيعُ الْخَبْرَ بَيْنَ أَهَالِي الرُّقَاقِ وَمُجَاوِرِيهِ، عَلَى أَنْ تَتِمَّكَنَ مِنْ تَهْرِيبِ أَطْفَالِهِمْ لِلنَّجَاةِ إِلَى الشَّامِ.. وَلَكِنْ دُونَ صُكُوكَ دِيَارِهِمْ".

حِينَهَا نَهَضَ "غَرِيرٌ" مِنْ مَجْلِسِهِ بَغْتَةً، لَتَقِفَ وَالِدَتَهُ فِي مَوَاجِهَتِهِ وَهِيَ تَقْبِضُ عَلَى يَدِهِ رَاجِيَةً إِيَّاهُ:

- "أَسْتَخْلِفُكَ بَلًّا تَرُدُّ عَلَيْهِ مَطْلَبَهُ يَا بُنَيَّ".

ثُمَّ اقْتَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهِ وَهِيَ تَبْتَسِمُ لَهُ فِي حَنَانٍ بَالِغٍ:

- "إِنِّهَا فُرْصَتُكَ الْوَحِيدَةُ لَتَنْتِيبِ أَنْكَ أَفْضَلُ مِمَّنْ عَاهَدْتَ الظُّلْمَ بِهِمْ".

صَمَتَ "غَرِيرٌ" لَوْهَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، لِيُحَدِّثَهَا فِي تَأْفِيفٍ مِنْهُ:

- "لَنْ يُوَافِقَ "أَبَا الصَّلْتِ" عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْعَهْدِ، فَهُوَ لَنْ يُؤْتِيَ ثَمَارَهُ وَلَا جَدْوَى مِنْ بَذْلِ مَشَقَّةِ الْأَمْرِ".

حِينَهَا سَارَعَ الشَّيْخُ بِالْحَدِيثِ لَهُ:

- "لَقَدْ شَاعَ شَأْنُ تَهْرِيبِكَ لِلْأَطْفَالِ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ فِي الْجَوَارِ، وَقَدْ أَتَانِي غِيثُ بْنُ رِمَاحٍ، وَمَأْمُونُ الْمَقْدُونِيِّ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ سَاكِنِي الرُّقَاقِ بِهَذَا الطَّلَبِ خِشْيَةً فُقْدَانِ دِيَارِهِمْ وَأَنْ يَبْنِيَتْ بِلَا مَأْوَى بَعْدَ مَرُورِ تِلْكَ الْأَزْمَةِ، وَلِهَذَا فَإِنِّي أَلْتَمِسُ

طَلَبِي هذا لساكني الرُّقَّاق ومُجَاوِرِيهِ، ويمكنك إكمال صَنِيعِكَ السَّابِق في
الْأَزِقَّة البعيدة بالتَّنَازُل عن صُكُوكِهِم لك مثلما عَهِدْتَ".

رَفَعَ "غريِر" من هَامَتِهِ قَلِيلًا وهو يتذكر أَمْرًا ما:

- "غِيث بن رَمَاح.. أتعلم أنك تُحَدِّثُنِي عن أَكْثَر من أَذَاقِنِي المَرَار في أَيَّام
صِبَاي، وَالْآن تَلْتَمِس لِه وَلَاسْرَتِهِ الْعَوْن عَلَى يَدِي؟".

قَارَبَتْ والدته يَدَيْهَا لَتَحْتَضِن وجنتيه بكفيها وهي تُحَدِّثُهُ بِأَكِيَّة:

- "أنت أَفْضَل من ذَلِكَ يَا بُنْتِي، لَا تَدْع الغُضْب والانتقام يَكُونَا سَبَبًا في أَن تُذِيق
أَنْفُسِي بَرِيئَةً مَا لَا دَنْب لَهَا بِهِ".

فَاقْتَرَب الشَّيْخ "صَالِح" مِنْهُ وَهُوَ يُسَارِع بالحديث:

- "لَدِيّ مِنْ أَمْوَال النَاصِرِي مَا يَكْفِي لِشِرَاء عِشْرَات البُيُوت عَوَضًا عَنْ تِلْكَ
الصُّكُوكِ، وَتَسْتَكُون مِنْ نَصِييِكَ لُطَالِب بِهَا فُور انْتِهَاء تِلْكَ الْأَزْمَةِ، مِثْلَمَا تَفْعَل
بِصُّكُوكِ كُل دَارٍ تَحْصُدهَا".

نَظَرَ "غريِر" لَعَيْنَيْ والدته الْمُتَوَسِّلَتَيْن وهو لَا يَعْلَم إِلَى أَيْن المَفْر من مَطْلِبِهَا،
بَيْنَمَا تَتَوَق أَذْنَهَا لِسَمَاع رِضَاه عَنْ طَلَب الشَّيْخ، لِيُجِيب حِينَهَا الشَّيْخ فِي
جَمُود دُونَ الِاتِّفَات لِه:

- "فِي لَيْلِ كُل جُمُعَةٍ قَادِمَةٍ مِنْذ الْآن، سَوْفَ آتِي لِاصْطِحَاب أَرْبَعَةِ أَطْفَالٍ،
وَسَوْفَ يَذْهَبُ يَوْسَاب لِمَعَاوَنَتِي عَلَى حِمَايَتِهِمْ".

أوماً الشَّيْخُ له برأسه مُبتسماً، ثم سارع للخروج بصحبة "يوساب" من دار الأَشْيَب وهو يشعر بسعادةٍ بالغة لما توصل إليه من عهدٍ معه، وقد ساعد بذلك على نِجاة أنفُس بريئة لا ذنب لها فيما يَمُرُّون به من بلاء.

وبعد مُرور يومين من ذلك الحديث الأخير، أتى صباح الجمعة الأولى التي كان ينتظرها الشَّيْخُ بفارغ الصَّبْر، تحرك البعض من بيوتهم نحو المسجد مُخْتَمِينَ بوقتِ الظَّهيرة ووضَّح نهارها، يترقبون بعض الأنفُس التي خرجت لثُلبي نداء الله هم الآخرون، يتوجسون الخُطى على أمل ألا يُطيلهم أذىً أو مكروه، ليجلسوا في دار الله الآمنة ينتظرون علو شَيْخِهِمْ مِنْبَره ليخطب بهم، لتأتي حُطبة الجمعة مُغايرة لسابقتها، فحدَّثتهم حينها الشَّيْخُ "صالح" عن رجلٍ منبوذٍ منهم عاش بينهم طيلة حياته، رَجُلٌ تَفَرَّ منه البَقِيَّة وقد قاموا بظُلْمِهِ منذ مَوْلده بجهلهم وأدانوا من هيئته وأذاقوه المرار دَوْماً، والآن بات هذا الرَّجُل هو السَّبيل لنِجاة أطفالهم من المَوْت الذي يترصد بهم كل يوم يَمُرُّون به ويعيشونه، أملاً لوصول أطفالهم لِبَرِّ الأمان والحياة حتى المَشْيَب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عُثِرَ على إحدى قُصاصات الصُّحف الخاصة بالعَصْر الفاطمي في واحدةٍ من عمليات التَّنقيب التي قاموا بها في أوائل الخمسينات داخل حُطام مدينة (الفسطاط)، ويُقال أن تلك الصَّحيفة هي من ضمن صُحفٍ أخرى من مُجلدٍ يخص مُذكرات شخصٍ يُدعى "يزن بن عبد الله بن حُتيط"، وقد تحدَّث فيها من ضمن ذكر أخباره عن ترحال ولَدَيْهِ بعيداً عن (الفسطاط) بمساعدة شخصٍ يُدعى "غريب بن مالك الكردي"، ولكن كانت بَقِيَّة المعلومات تَكْمُن داخل الصُّحف المفقودة والتي لم يُعثر عليها حتى الآن، ليأمل مُؤرِّخو هذا العصر

حتى هذه اللحظة في العثور على المزيد من المعلومات التي قد تُفيدهم في تدوين معلومات أكثر عن حياة "غريز بن مالك الكردي".

انتهى الشَّيْخ من حُطْبَتِهِ لتتبعها الصلاة، لِيُجَالِسَ بعد ذلك بعض المُصَلِّين الذين حَدَّثُوهُ عن رَغْبَتِهِمْ في تَرْحَالِ وَلَدَانِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى بَيْعِ دِيَارِهِمْ الَّتِي تَأْوِيهِمْ، لِتَهْلِلَ أَسَارِيرُهُمْ فورَ إِعْلَامِ الشَّيْخِ لَهُمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَقَدَهُ مَعَ "غريز"، أَمَلًا فِي أَنْ يَشِيعَ الْخَبْرُ فِي كُلِّ دَارٍ مَغْلُوبَةٍ عَلَى أَمْرِهَا، لِيَمُرَ وَقْتُ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ وَبُيَارِحَ الْجَمِيعُ الْمَكَانَ لِيَتْرَكُوا الشَّيْخَ فِي حِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَقَدْ اسْتَرَعَى انتباهه عدم مُصادفة "بيجاد" في صلاةِ جمعة اليوم على غير عَادَتِهِ، لِيُقَرَّرَ الذَّهَابُ إِلَى دَارِهِ لِلَاظْمَتَيْنِ عَلَيْهِ، فَأَسْرَعَ التَّحَرُّكُ حِينَهَا مُحْتَمِلًا بِتَجْمَعَاتِ الْمُصَلِّينَ الْعَائِدِينَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي عَجَالَةٍ، لِيَسْكُنُوا إِيَّاهَا لَمَّا تَبَقِيَ مِنَ الْيَوْمِ حَوْقًا مِنَ الْمَجْهُولِ.

طَرَقَتْ مُهَذَّبَةٌ أَتَتْ عَلَى دَارِ "بيجاد" لِيَنْتَظِرَ الشَّيْخَ بِالْخَارِجِ لِبُرْهَةٍ مِنَ الْوَقْتِ دُونَ أَنْ يَجِدَ لَهُ مِنْ مُجِيبٍ، فَأَعَادَ الطَّرْقَ فِي خَوْفٍ مِنْهُ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى مَنْ بِالْإِخْلَالِ، لِتَمُرَ ثَوَانٍ حَتَّى لَبِيَ "بيجاد" نَدَاءَ الطَّارِقِ وَفَتَحَ بَابَ دَارِهِ فِي تَوَجُّسٍ، وَمَا أَنْ أَطْلَعَ بِرَأْسِهِ وَرَأَى الشَّيْخَ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى فَتَحَ الْبَابَ لِيَسْمَحَ لَهُ بِالْإِدْخَالِ.

دَلَفَ الشَّيْخُ لِلدَّارِ لِيَقْفَلَ "بيجاد" الْبَابَ مِنْ وَرَائِهِ سَرِيعًا، لِيَتَحَرَّكَ نَحْوَ مَقْعَدَيْنِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْفِرَاشِ الَّذِي يَغْتَلِيهِ الْأَبُ وَوَلَدُهُ الصَّغِيرُ كَعَادَتِهِ، أَلْقَى حِينَهَا الشَّيْخُ السَّلَامَ عَلَى وَالِدِ "بيجاد" لِيَجِدَ الرَّجُلَ يُجِيبُهُ بِصَمْتٍ مُطْبَقٍ وَعَيْنَيْنِ شَارِدَتَيْنِ وَعَقْلٍ مَلَّهِ فِي أَمْرِهِ، حِينَهَا نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى "بيجاد" الَّذِي أَجَابَهُ وَالْحُزْنَ يَمَلَأُ قَلْبَهُ:

- "إنه على تلك الحال منذ فترة طويلة، حتى الفئات التي أتحصل عليها يشق الأنفس يعزف عنها ويكتفي بإطعامها لأخي".

- "أعانه الله وعافاه عن قريب.. فلا تستهين بمُصيبته يا ولدي".

تحدث الشيخ حينها وهو يتأمل حال الرجل العجوز الذي تحل الجوع من ملامحه فصار ككهل يناهز المائة عام، ومن جانبه صغيره الذي غلبه الثعاس، ليوجه الحديث لـ "بيجاد" قائلاً:

- "لم أرك في صلاة الجمعة اليوم، فجئت للاطمئنان عليك، ولأبشرك بخبر قد يحمل السعادة لقلبك".

حينها حدثه الشيخ عن تولى أمر ترحال صغار الأزقة والحواري المجاورة لبر الأمان بمساعدة "غريز"، ليقتراح تدبير أمر ترحال أخيه هو الآخر، فما كان من "بيجاد" إلا وأن أجابه حينها:

- "ليتني أستطيع، ولكن والدي يأبى ترك الصغير من كتفه ولو للحظة واحدة".

ثم تحرك "بيجاد" ومن ورائه الشيخ حينها نحو فراش والده ليجلس بجواره ويخبره بالأمر، فلم يجبه الرجل العجوز بينما أطل النظر للأمام، فما به إلا وأن أمسك بيد أخيه النائم ليحاول مقاربتة له، فما كان من والده سوى أن جذب ذراع الصغير بعيداً عن "بيجاد" واحتضنه بقوة.

تَكَسَّ "بيجاد" رأسه في حزنٍ لينهض ويُعاود التحرك بعيداً، وتكاد الدموع أن تغالبه وهو يُكْمِل الحديث للشيخ من جواره:

- "إنه لم يُحدثني بالأمر، ولكنني على يقين بأنه في قَرارةِ نَفْسِهِ يُحَمِّلَنِي ذَنْبَ
فُقْدانِ أَخِي الآخر".

لُجْبِيهِ الشَّيْخُ مُواسِيًّا:

- "إنها إرادة الله يا بُنَيَّ، وهي نافذة فوق رؤوس العباد".

فنظر له "بيجاد" ليُكْمِلَ في حزن:

- "فليعيننا الله على ما هو قارِم، لقد بات النَّحْضُلُ على ما تَتَقَوَّتُ به صَعْبُ
المنال، وأخشى أن يكون المَوْتُ جَوْعًا من نصيب هذه الدَّارِ عما قريب".

قاطع حديثهما صَوْتُ يعلو لامرأة تَسْتَعِيثُ بالخارج، ليَصِلَ صُراخها إلى الجِوارِ
يرافقه صَوْتُ أَجَشٍ لرجلٍ يصاحبها، فنظر الاثنان في تَوَجُّسٍ نحو الباب،
ليُطِيلَا الصَّمْتَ مُرْهِفِي السَّمْعِ لما يدور بالخارج.

- "النَّجْدَةُ، اسْتَخْلِفُكُمْ بالله أن تغيثونا".

شعر الشَّيْخُ "صالح" بأن هذا النَّداء قد أتى بِنَبْرَةٍ صادقة من نفسٍ بريئة، خاصةً
وأن استغاثة المرأة لخروج من يُعينها قد أتى في وَصَحِ النَّهارِ لِيُناقِضَ فِعْلَةَ
المُحتالين والقتلة، ليُعاد صُراخ المرأة المُستنجدة ورفيقها لِيُعَمَّ الرُّقاقَ مرَّةً
أخرى، فَتَظَرَ الشَّيْخُ إلى "بيجاد" وقد تحركَ لِيَقْبِضَ على البابِ بيده وينظر
نحوه مُنتَظِرًا أن يُصاحِبَهُ، فوقف "بيجاد" لوهلة يَنْظُرُ نحو الشَّيْخِ بنظراتٍ
مُترددة وخائفة مما هو على وشك الإقدام عليه، ولكن سُرْعان ما عَزِمَ الأمرُ
في نَفْسِهِ لِيَقْبِضَ على سَيْفِهِ ليُخْرِجَ الاثنانَ سَريعًا لِعَوْثِهِما، لِيَتَحَرَّكَ لبضعة

أقدامٍ ليجدا "يوساب" يخرج هو الآخر شاهراً سَيْفَهُ لينضم إليهما، والذي كان يُراقب الأمر حينها من مَشْرِيبَةِ الدَّارِ.. وما أن لاح له قدومهما حتى سارع لمُصاحبتهما.

تحرك الثلاثة نحو المرأة التي انحنى ظهرها من كثرة صرخاتها المُستنجدة، ومن جوارها كان يقف رجلاً يكبرها، وحين رأى الرَّجُل الرفقاء الثلاثة، أشار إلى المرأة في خَوْفٍ لَتَنْظر نحوهم مُتوسلةً إياهم لثُحامي عن الرَّجُل من خلفها.

- "أَسْتَحْلِفُكُمْ بالله ألا تقتلونا.. أتوسل إليكم".

أسرع الشَّيْخ "صالح" ورفاقه الخُطى حتى وصلوا إليهما وهو يُجيبها رافعاً يده نحوهما ليُهدئ من روعهما:

- "لا تقلقي يا بُنَيَّتِي، فنحن لا نَصُمِر لكم سوءاً".

ثم أشار بيده نحو صَدْرِهِ قبل أن يُشير نحو رفاقه.

- "إنني أدعى الشَّيْخ صالح مُؤذن المسجد وإمامه، وهذان هما رفيقاي من سُكان هذا الزُّقاق وقد جننا لكما فور سماع ندائكما".

هدأت نظرات المرأة المُتوترة تجاههم، لِثُحَيْطَ يداها بكَتِفَيِّ الرَّجُل الكبير وهي تحدّثهم:

- "هذا هو زوجي مأمون بن عثمان.. وأنا أدعى بادية بنت رحيل".

ثم تحركت من جانبه تجاههم وهي تحدّثهم:

- "كُنَّا نَسْكُنُ إِحْدَى قُرَى الرَّيْفِ وَقَدْ تَقَشَّى مَرَضٌ لَمْ نَعْهَدْهُ ⁴⁸ مِنْ قَبْلِ
لِيُصِيبَ غَالِبِيَةِ أَهْلِنَا، وَيُنَالَ مِنْهُمْ الْمَوْتَ دُونَ أَنْ نَعْرِفَ لَهُ مِنْ سَبَبٍ أَوْ دَوَاءٍ،
فَلَدُّنَا بِالْفِرَارِ نَحْوِ (الْفُسْطَاطِ) أَمَلًا فِي النَّجَاةِ".

ثم انهارت بالبكاء وهي تُكْمِلُ:

- "كِدْنَا أَنْ نُقَتِّلَ مَرَّاتٍ عِدَّةً طِيلَةَ تِرْحَالِنَا.. وَلَكِنْ كَانَ اللَّهُ يَشْفِقُ عَلَيْنَا وَيَكْتُبُ
لَنَا النَّجَاةَ دَائِمًا".

فَأَمَالَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ رَأْسَ زَوْجَتِهِ نَحْوَ كَتِفِهِ مُوَاسِيًا إِيَّاهَا، لِيُتَابِعَ هُوَ الْحَدِيثَ:

- "لَقَدْ صَاحَبْنَا فِي الطَّرِيقِ ابْنَ أَخِي، وَقَدْ قُتِلَ وَهُوَ يُدَافِعُ عَنْ زَوْجَتِي لِيُدْفَعَ
ثَمَنُ هَرُونَا بِرُوحِهِ الثَّمِينَةِ.. لِنُوَصِلَ التِّرْحَالَ دُونَ تَوَقُّفٍ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى هُنَا..
وَلَمْ تَتَلَّ شَفَقَةً مِنْ أَيِّ أَحَدٍ سِوَاكُمْ.. وَلَا نَدْرِي إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ الْآنَ".

لِيُجِيبَهُ "بِجَادٍ" بِنَبْرَةٍ هَادئةٍ:

- "فَلتَغْفِرِ لِلنَّاسِ عَزْفَهُمْ عَنْ مُسَاعَدَتِكُمَا يَا شَيْخَنَا.. فَخَلْفَ كُلِّ بَابٍ مُغْلَقٍ
أَنْفَسٌ خَائِفَةٌ.. تَهَابُ أَنْ تُلَاقِيَ الْمَوْتَ الَّذِي يَطْرُقُ بِأَبْهَمِ كُلِّ يَوْمٍ".

- "إِنَّهُ مِنْ دَوَاعِي سُرُورِنَا أَنْ نَسْتَضِيفَكُمَا.. وَسَوْفَ تُكْرَمُ ضِيَافَتُكُمَا بِإِذْنِ اللَّهِ".

ابْتَسَمَتْ "بَادِيَةُ" لِلشَّيْخِ "صَالِحٍ" مِنْ حَدِيثِهِ الْمُطْمَئِنِّ لِهَمَّاهُمَا، لِيَتَحَرَّكَ قَلِيلًا بِرَفْقَةٍ
صَدِيقِيَّهِ وَيَتَّبِعَهُمْ مِنْ خَلْفِهِ الْغَرِيْبَانِ، لِيَبْدَأَ "يُوسَابُ" فِي الْحَدِيثِ نَحْوَهُ فِي

خفوت:

- "إلى أين يُمكننا استضافتهما وقد ملأنا دارك الصغير؟ فلا يوجد به مُتسع آخر".

ارتسمت الحيرة على وجه الشَّيْخ لِيَنْظُرَ نحو "بيجاد"، لِيُجِيبَهُ الأخير وهو يعلم ما سوف يُخبره به مُسَبِّحًا:

- "ليتني أَسْتَطِيعُ عَوَّهَهما يا شَيْخِي الفاضل، ولكن عِلَّةَ والدي والرَّيبة التي ملأت قلبه لن تُمكنني من إيوائهما في داري".

تَظَرَّ الشَّيْخُ نحو حصي الأرضِ والأفكارِ تَعْصِفُ برأسيه.. حتى تَبَوَّأت إحداها عقله لِيَبُوحَ بها لرفيقه قائلاً:

- "ما قولكما في أن نستضيفهما في دار أم البراء؟".

نظر له "يوساب" مُسْتَنَكِرًا لِيَسْأَلَهُ:

- "وكيف تَسْتَأْمِنُها على أرواحٍ أخرى وقد أزهَقت من قَبْلِها الكثير؟".

فأجابه الشَّيْخُ مُعَلِّلاً:

- " ليتك رأيت النَّدَمَ الذي أحاقَ بها حين ذاك، لقد كانت تُقسم قبل مغادرتي لها في المرة الأخيرة بأنها لن تتذوق اللَّحْمَ مرةً أخرى ما حَيَّيت".

ثم عاد للحديثِ مُكْمِلاً في حزنٍ من الأمر:

- "تلك العجوز في أمس الحاجة لِصُحْبَةٍ تُؤْنِسُهَا وَتُهَوِّنُ عَلَيْهَا وَحَدَّثَهَا الْمَرِيرَةَ".

- "فلندعو من الله أن يكون في قرارِك الصَّواب أَيُّهَا الشَّيْخُ".

تحرك "بيجاد" بعد كلماته الأخيرة لِیُحَدِّثَ "بادية" وَرَوْجَهَا بِقَرَارِهِمْ:

- "سوف تُقِيمَانِ كَصَيَقَيْنِ لَدَى سَيِّدَةٍ عَجُوزٍ وَسَتَأْتَسَانِ رَفَقَتَهَا، وَبِإِذْنِ اللَّهِ
سوف تكون خير صَحْبَةٍ لَكُمَا".

حينها هَمَّ رَوْجُهَا بِالْحَدِيثِ لِـ "بيجاد" وَرَفَقَتَهُ فِي هَدْوٍ مِنْهُ:

- "أَتَمْنَى أَلَّا تُرْهِقَهَا بِضِيَافَتِهَا لَنَا".

فابتسم الشَّيْخُ وَهُوَ يُجِيبُهُ:

- "إِنْ أُمَّ الْبَرَاءِ تَعِيشُ وَحِيدَةً مِنْذُ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَسَوْفَ يُسَعِّدُهَا وَجُودُ مَنْ
يُؤَانِسُهَا فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ الْعَصِيبَةِ".

تَوَجَّهَ الْجَمْعُ نَحْوَ دَارِ "أُمِّ الْبَرَاءِ" لِیَقْرَعَ "بيجاد" الْبَابَ وَیَنْتَظِرُ الْجَمِيعَ إِيَّانَ
الْعَجُوزِ مِنَ الدَّخْلِ، لِیَمُرَّ الْوَقْتُ وَلَا يُقَابِلَ طَرَقَهُمْ سِوَى السُّكُونِ، فَنَظَرَ
"بيجاد" فِي قَلْبِهِ مِنْهُ نَحْوَ رَفِيقِهِ، خَاصَّةً وَأَنْ فِي ظِلِّ الظُّرُوفِ الرَّاهِنَةِ تَعَدَّرَ
الْخُرُوجَ كَثِيرًا وَتَعَدَّرَ مَعَهُ مُقَابِلَةَ الْعَجُوزِ مِنْذُ فِتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ.

وَهُنَا طَرَقَ "بيجاد" الْبَابَ بِيَدِهِ فِي شِدَّةٍ مِنْهُ، لِیَتَقَدَّمَ "يُوسَابُ" نَحْوَ صَدْرِ الْبَابِ
وَيَرِطُمُهُ بِقُوَّةٍ ارْتَعَدَتْ أَوْصَالَ الْبَابِ مَعَهَا، لِیَنْسَابَ الْقَلِيلُ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ دَاخِلِ
ثَنَائِيهِ نَحْوَ أَنْفِ "يُوسَابِ" وَیُدْرِكُ مِنَ الْأَمْرِ هَوْلَهُ.. لَقَدْ اشْتَمَ رَائِحَةَ تَعَفُّنٍ.

توالت لَطَمَات الرَّجُلَانِ عَلَى الْبَابِ حَتَّى حَرَّ سَاجِدًا لِيَعْبُرَ "يوساب" و"بيجاد" من فوقه في عَجَالَةٍ إِلَى دَاخِلِ الدَّارِ وَقَدْ عَبَّقَتْ رَائِحَةُ النَّعْنَعِ الْمَكَانَ، لِيُغْطِيَ الْاِثْنَانِ أَنْفِيهُمَا مِنْ بَشَاعَةِ الرَّائِحَةِ وَيَتَحَرَّكَانِ فِي الْجَوَارِ، لِيُلاحِظَ "بيجاد" تَسَمُّرَ "يوساب" مِنْ أَمَامِ غُرْفَةِ نَوْمِهَا، فَيَهْرَعُ نَحْوَهُ هُوَ الْآخِرُ وَيُشَاهِدُ مَا حَلَّ بِالسَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ.

كَانَتْ "أُمُ الْبِرَاءِ" تَتَوَشَّحُ بِجُلْبَابِهَا الْأَسْوَدِ كِعَادَتِهَا وَقَدْ أَصَابَ جَسَدَهَا شَحُوبُ الْمَوْتِ وَغَمَقَةُ تَعَفُّنٍ لَحْمِهِ، لِيَتَيَبَّسَ جَسَدُهَا النَّحِيلَ وَتَتَمَدَّدَ عَلَى فِرَاشِهَا فِي نَوْمَةٍ آخِرَةٍ بَعِيْنَيْنِ تَوَارَبَتَا وَقَدْ غَادَرْتَهُمَا الرُّوحُ وَفَاهٍ مَفْتُوحٍ يَشْتَاقُ لَشَهِيقٍ آخِرٍ.

أَتَتْ مِنْ خَلْفِهِمَا "بَادِيَةَ" لَتُبْصِرَ جُثَّةَ الْمَرْأَةِ فَشَهِقَتْ فِي فِرْعٍ وَدَقَنْتَ وَجْهَهَا فِي صِدْرِ زَوْجِهَا الْعَجُوزِ، وَالَّذِي اعْتَلَاهُ الْحُزْنُ لَمَّا قَدْ رَأَى هُوَ الْآخِرَ، لِيَقِفَ "بيجاد" شَارِدَ الذَّهْنِ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ يَدَهُ لِيُمَرِّرَ أُنَامِلَهُ عَلَى جَفَتَيِ الْعَجُوزِ لِيُغْلِقَهُمَا، فَتَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَنَامُ فِي سَلَامٍ مِنْ أَمْرِهَا، لَتَمَرَّ أُنَامِلُهُ لَتَغْبُرَ فَاهُ الْعَجُوزِ لِيَطْبِقَهُ مَعًا، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا التَّقَطَّتْ عَيْنَاهُ أَمْرًا غَرِيبًا جَعَلَهُ يَتَوَقَّفُ عَنْ إِكْمَالِ مَسْعَاهُ، لِيَتَحَنَّى لِلْأَسْفَلِ وَيَقْتَرِبُ مِنْ قَكِّ الْمُتَوَفَاةِ وَيُمَعِنُ النَّظَرَ بِدَاخِلِهِ، تَبَيَّنَ "بيجاد" حِينَهَا اعْوَجَاجًا بَسِيطًا فِي أَسْنَانِهَا الْأَمَامِيَةِ، بَيْنَمَا ظَهَرَتْ أَثَارُ لِبَعْضِ الدَّمَاءِ الْمَتَجَلِّطَةِ عَلَى مَنْبَتِهَا، لِيَغْزُو ثَنَائَاتُ تَرَاضُفِ أَسْنَانِهَا بَعْضٌ مِنْ شَطَايَا الْخَشَبِ الَّتِي سَكَنْتْ إِيَّاهَا وَانْغَرَزَتْ فِي اللَّثَّةِ الْمُحِيطَةِ بِهَا.

أَقَامَ "بيجاد" مِنْ وَفْقَتِهِ لِيَتَفَحَّصَ الْفِرَاشَ مِنْ أَمَامِهِ، وَقَبْلَ أَنْ تُغَادِرَ عَيْنَاهُ مَوْضِعَ الْفِرَاشِ تَوَقَّفَ عَنْ تَحْرِكِهِ.. لِيَقْتَرِبَ بِرَأْسِهِ مِنْ طَرَفِ الْقَامَةِ الْعَرْضِيَّةِ

للغراش، والذي قد اسْتَقَرَّتْ أطراف قَدَمَيْهَا نحوه، لِيَجِدَ مَوْضِعًا بها وقد قُرِضَ
لْتُنْبِشَ أليافُه الجافَّةُ شاهرة شظاياها الجارحة.

حينها أرجع "بيجاد" ظهرَه للوراء مُبتعدًا عن مَوطئِ قَدَمَيْهَا لِيَقِفَ ساكنًا وسط
تَعَجُّبِ الجميع من حوله، لِيَتحدَّثَ بعد ذلك في حزنٍ مَرِيرٍ.

- " يبدو أن العجوز كانت تُعاني من التضور جوعًا لوقتٍ طويل.. وقبل أن
توافيها المَنِيَّةُ نهشت بأسنانها خشب الفراش لِيَحُولَ بينها وبين المَوْتِ، لَتَمُتَ
بعد ذلك بقليلٍ دون أن تُسْكِنَ من جوعِها مَطْلَبًا".

حينها انتحبت "بادية" وهي بين ذِرَاعَيَّ زوجها لتحدِّثهم:

- "لماذا لا ينقضي هذا البلاء عَنَّا؟".

لم تكن هناك من إجابته على سؤالها، فلم تَجِدْ لها من مُجيبٍ، لِيَقُومَ "بيجاد"
بالالتفات نحو الشَّيْخِ المُبتلى بِحُزْنِهِ هو الآخر لِيُحدِّثه:

- " علينا دَفْنُهَا كي لا تَطُولَ الأيادي العائِثَةُ من جُثْمَانِهَا".

فأجابه الشَّيْخُ وهو يُحدِّقُ النَّظَرَ نحو جُثْمَانِ العجوز:

- " سوف ندْفِنُهَا في قبر "الناصري" فهو أأمن مكانٍ نعرفه حتى الآن لِمَثْوَى
أخيرٍ كريمٍ".

ثم نظر الشَّيْخُ نحو "يوساب" وهو يَبْتَسِمُ في سخريةٍ مَرِيرَةٍ من أَمْرِه لِيُكْمِلَ:

- " يبدو أن الناصري قد تَغَرَّ لقاء الناس في حياته، ولكن جمعهم المَوْت
لِيُجاوروه طيلة الوقت بعد ذلك".



الفصل الحادي عشر

المصامدة ⁴⁹

مع مُرورِ الوقتِ بدأت أعدادُ البشرِ تتضاءل شَيْئًا فَشَيْئًا، لقد تلاشى إيمانهم بالمولى عَزَّ وَجَلَّ، وتزعزعت عقيدتهم رويدًا رويدًا، حتى فقدوا ثقتهم بأن الله سيرفع عنهم ذلك الكَرْبَ العظيم، فمنهم من سُفِكَت دماؤه غدْرًا وأصبح وسيلة ينجو بها غيره، وتم تَهَبُ العديدُ من الدِّيارِ تحت سِتار اللَّيْلِ دون أن يُحَرِّكَ أَحَدُهُمْ ساكنًا، كما حُطِقتْ أطفالُ لا ذَنْبَ لها ولم يَبْقَ لهم من أَثَرٍ، حتى العجائز لم يَشْفَعْ لَهُمْ عَجَرَهُمْ وقُتِلوا بدمٍ باردٍ كذبيحةٍ يتلذذون بَلَحْمِهَا ويتناولونها من أجل صِراعِ البقاء على قَيْدِ الحياة، وفُقد أَثَرُ الكثير من البشرِ ولم يُسْمَعْ عنهم بعد ذلك قط، أما البعض الآخر فمنهم من ظلوا حَبِيسِي ديارهم يخشون الخروج للبحث عما يَسِيدُّون به رَمَقَهُمْ، وآثروا المكوث بَعْقَرِ ديارهم وعدم الظُّهور على أَعْتَابِ الرُّقَاقِ، خِشْيَةٌ أَنْ تُنَحَرَ رِقَابُهُمْ على أيادي هؤلاء القَتَلَةِ، فتضوروا جَوْعًا حتى قُضِيَ نَحْبُهُمْ.

هنالك من أَسْعَفَهُ حَظُّهُ لِيُعْتَرَّ على رِفَاتِهِ ويتم تَكْرِيمُهَا بالدَّفْنِ، ومنهم من لاقى رَبَّهُ دون أن يَدْرِيَ أَحَدُهُمْ حتى تَحَلَّلَ جُثْمَانُهُ ولم يَجِدُوا لَهُ مِنْ بَقِيَّةٍ، لقد لَاقَتِ البشرية خلال تلك الحقبة العسيرة من صُنُوفِ العذابِ والأهوالِ أَشَدُّهَا، حتى أن أهل الدَّارِ الواحدة كانوا ينامون دون مِلءِ جفونهم بالنَّومِ خِشْيَةٌ أَنْ يَسْتَحُوذَ الْجُوعُ على أَحَدِهِمْ فينال الغدْرُ من بعضهم البعض.

- "حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ... حَيَّ عَلَى الْقَلَّاحِ" ..

"حَيِّ عَلَى الصَّلَاة ... حَيِّ عَلَى الْقَلَاَح" ..

تعالى صَوْتُ حَنْجَرَةِ الشَّيْخ "صالح" مُعلنًا أَذَانَ الفجرِ من أعلى مِئْبَرِ مسجد (ابن عمروس)، كان يعلم جيدًا أنه لم يَعدْ أحدٌ يُقارب المسجد ليلاً، إلا أن ذلك لم يَنْعِ عَزيمَتَهُ يومًا، فكان صَوْتُهُ يعلو في كل مِيقَاتِ للصَّلَاة يَصْدَحُ عاليًا فوق مِئذنة المسجد، كان يأمل أن تَهدي كلماته تلك الأنفس التي أذنبت في حق نفسها وغيرها، فلعل صَوْتُ الأذان يُفيق ضَمِيرًا غائبًا في ظل تلك العُمة.

وما أن انتهى من الأذان حتى وقف في هدوءٍ يتنفس تَسَمَاتِ اللَّيْلِ العليل، بينما يتأمل المكان الذي أحاطه الظلام من كل جانب، لِيَلْتَفِتْ بعد ذلك جانبًا فيجد ما لم يَتَوَقَّعْهُ قط، أبصر الشَّيْخَ قدوم وَهَجًا بعيدًا يُضيء إحدى الطُّرُقَاتِ المُجاورة، لِيَلُوح له في الأفقِ صَوٌّ مشاعِل كثيرة يحملها عُصْبَةٌ من الرجال ثابتي الخُطى يتقدمون ناحية الرُّقَاق، فأطال النَّظر نحوهم مُحاولًا تَبَيُّن الأمر، فترأى له العشرات من الرِّجال، من يُناهِز عددهم الثلاثين رجلًا، رجالٌ مُقْفِرُو الوجه يُعلن تَجَهُم وجوههم عن نواياهم السيئة، مُدَجِّجِينَ بالأسلحة والعتاد يحملون مشاعلهم دون الاكتراث بِقَصْحِ أمرهم، حينها أدرك الشَّيْخ حجم الكارثة المُوشِكة على الوقوع، فانقبض قلبه قَرَعًا وهو يخشى الأسوأ.

وقتئذٍ صاح عاليًا من أعلى المِئبر:

- "يا عِبَادَ الله، اخرجوا من بيوتكم ودافعوا عن دَوِيكم، لقد جاءوا من يريدون إِرَاقَةَ دِمَائكم".

- "يا عِبَادَ الله سارعوا إلى الشهادة".

أتى صباح الشَّيْخ بينما يُعيدُه المرة تلو الأخرى دون هَوادة عبر المئذنة عاليًا.. ليصل إلى مسامع جميع أهالي الرُّقَاق، فارتعدت أوصالهم واعتراهم الهَلَع مما هو آتٍ، البعض منهم قد أَوْصَدُوا أبوابهم ليَحْتَمُوا بها هم وعائلاتهم من خلفها بينما يَرْتَجِفُونَ خَوْفًا وَرَهَبَةً من أولئك الغرباء، وكان من بينهم "عبد الرازق" وعائلته، والذي أَلَصَقَ ظَهْرَهُ نحو باب دارِه وَسَكَّنِيَّهُ يجاور يده الوحيدة، أما البعض الآخر فقد دَفَعَهُ الدُّعْرُ إلى الخروج من دارِه مُوَصِّدًا الباب من خلفه ليَحْمِي أُسْرَتَهُ ويدافع عنهم تجاه ذلك الهجوم الغاشم، وعلى رأسهم "بيجاد" الذي أبى أن يَفْقِدَ أَحَدًا من عائلته مرةً أخرى، ليَخْرُجَ الشَّيْخُ من المسجد وَيَهْرَعَ نحو دارِه لِيَفْتَحَ الباب سريعًا ويتناول سِكِّينًا من أمامه وسط هَمِّهِ قَلِقةً من زوجته ورفيقتَيْهَا اللاتي انتابهن الفرع مما هو مُوشِكٌ على الحدوث، حينها تحرك "يوساب" في خِفَّةٍ للخارج ليرافق الشَّيْخَ وقد أَوْصَدَتِ إحدى الفتاتين البابَ من ورائهما مباشرةً، ليتوسط الرُّقَاق عُصْبَةٌ من ساكنيه التي تتألف من خمسة عشر رجلًا يقفون شاهري الأسلحة بينما تَرْتَجِفُ أوصالهم وتتقاذف قلوبهم داخل صدورهم خَوْفًا، وقد أدركوا فور رؤيتهم لـ (مصامدة) ⁵⁰ أن المَوْتَ قَادِمٌ لا مَحَالَةَ.

لتمر الدقائق طويلة حتى وصلت خُطَى (المصامدة) إلى الرُّقَاق، كانت نظراتهم تَنُمُّ عن تعطشهم لإِراقة الدِّماء، مُنْتَظِرِينَ حَصَادَ هَذَا الْعَوْر، فقد أتوا بحثًا عن اللحم البشري إما ليقتاتوا عليه أو للقيام ببيعه، مُنْتَظِرِينَ إشارة البدء بالهجوم من قائدهم، حينها تحرك زعيمُهم ليتقدمهم وهو يتأمل ديار الرُّقَاق العتيق من أمامه وأولئك الذين يقفون من أمامها مُتَأَهِّبِينَ لمواجهتهم، لِيَتَبَهَ سكان الرُّقَاق حينها إلى صَرِيرِ أَحَدِ أَبْوَابِ الدِّيارِ بينما يُفْتَحُ.. وقد خرج ساكناه

منه لِيَعْبُرَا من وسط "بيجاد" ورفقائه مُتَقَدِّمَيْنِ نحو زعيم (المصامدة) في هدوء.

تحركت "بادية" و"مأمون" نحو زعيم (المصامدة) والابتسامة ترتسم على وجهيهما، وما أن اقتربت منه "بادية" حتى زادت ابتسامتها لترتمي بين أحضانه في سعادة غامرة، لم يكن أحدٌ يعلم حقيقة أمر "بادية"، فقد كانت هي وزوجها الزَّائِف مجرد عَبْدَيْنِ لدى الرَّجُل، وقد أُوْكِلَ لهما مهمة جليلة الشأن، فقد كانا يرتحلان إلى أحدِ الْأَزَقَّة في كلِّ مرةٍ كجاسوسَيْنِ، من شأنهما الاطلاع على حال الْأَزَقَّة وأهلها وما يحوزون من عُتاد، وما أن يتعاطف معهما أحد أهالي تلك الْأَزَقَّة وَيُرَّجِبُون باستضافتهما حتى يُدركا صَعْفَ قلوب ساكنيها، فيَطْلَعَان على أخبارهم وخباياهم، فيرتحل العبدُ بعد ذلك لنقل الخبر إلى سيده استعدادًا للْعَوْر.

وهنا مالت "بادية" نحو أذن زعيمهما لَتَهْمِسَ له بخبرٍ جَلِيلٍ، فَتَهَلَّلَتْ أساريه فور سماعه، فقد عَلِمَتْ مؤخرًا بما يَحُوزُهُ الشَّيْخ "صالح" في داره من ثروة طائلة يستخدمها في عَوْث أهالي هذا الرُّقَاق، فَعَلَتْ ابتسامة عريضة وجهه وهو يُشْهِر سيفه للأمام نحو جَوْفِ السَّمَاء.. لتتعالى صيحات رجاله في شهوةٍ منهم للقتل، لِيَتَدَافِعُوا إلى الأمام تجاه الرُّقَاق ومن يقومون بحمايته، بينما وقف زعيمهم ثابتًا في مَكَانِهِ دون حَرَكَ لثوانٍ قليلة من خلفهم، ليتبع هو واثان آخران من رجاله تلك الْعَبْدَةَ التي توجهت نحو دارِ الشَّيْخ الملاصق للمسجد مُرَافِقَيْنِ إياها.

تَفَرَّقَ (المصامدة) لِيَتَطَوَّلَ سيوفهم الرُّقَاق وِدْيَارُهُ، فغار البعض على الأبواب المُوصدة ليقتحموها عُنُوةً، يُطِيحُونَ بأبوابها شاهرين سيوفهم نحو من ظلوا

يحتمون بداخلها أملاً في النجاة، فقاموا بقتل رجالهم وجذبوا نساءهم من شعورهن، يَسْحَبُوهُنَّ للخارج وسط ضراخٍ مُستغيث، يَصْحَبُوهُنَّ وأطفالهنَّ نحو قفصٍ من حديدٍ ذي عجلاتٍ جاريةٍ له من أسفله، يُلقِي بهم سُجَّان القفص للداخل لِيَهْرَعَ رفاقه للإتيان بالمزيد، بينما أخذ بَقِيَّة (المصامدة) يُقاتِلون سُكَّانها في معركةٍ غير متكافئةٍ الأطراف.

أخذ "يوساب" يُطِيحُ بِسَيْفِهِ في وجهِ أحدِ (المصامدة)، يَصْطُكُ تَصْلِيَّهما في تقاربٍ من وجهيهما، لَتَتَدَافِعَ بعيدًا وتعود للقاء سريعًا، ولكن خارت قوى إحدى هجمات تَصَلُّ الرَّجُلُ أمام تَصَلُّ "يوساب" لَتَنَحْرَفَ بعيدًا إلى جانبه، فيُسَارِعُ "يوساب" بِلِقَاءِ تَصَلُّهِ في صَدْرِ الرَّجُلِ لِيَخِرَّ أرضًا في الحال، فيَهْرَعُ لملاقاة آخر بنفسٍ تُرَجِّبُ بِلِقَاءِ المَوْتِ في أي وقت، بينما أخذ أحدُ ساكني الرُّقَّاق في الدِّفاع المُسْتَمِيتِ عن نفسه بِسِكِّينٍ أمام أحدِ المغيرين، لِيَبْطِشَ تَصَلُّ الأخير بِذِرَاعِهِ، فَتَأَوَّه في أَلَمٍ رهيبٍ وَخَفَّتْ دفاعه لِيَهْوِيَ تَصَلُّ سيف الرَّجُلِ على رأسه دون هواده، فيتركه على الفور غارقًا في دمائه لِيُكْمَلَ القتال، اسْتَمَرَّت المعركة في الاحتدام، لقد آثر بعض الساكنين الفرار من المعركة، في حين زاد إقبال الآخرين عليها، فنال البعض من رؤوسِ أولئك المُغيرين من أمامهم والبعض الآخر طال رؤوسهم بَطُشٍ مَن أمامهم.

عَلَّتْ صَيِّحات القتال في الخارج لِتَصَلُّ إلى دار الشَّيْخ "صالح" فانقبضت قلوب النِّساء الثلاث القابعات بالداخل، ليزداد قَرَعُهُنَّ وَهُنَّ يَنْظُرْنَ تجاه الباب الذي بدأ الطرقُ عليه بقوةٍ من أمامهنَّ.

- "فَلِتَأَمِّنَّ على حياتِكُنَّ إِنْ فَتَحْتُنَّ الباب، وَأَتَيْتُنَّ بشروات "الناصري" لنا".

ثم عادت "بادية" لحديثها المُخادع وهي تُكْمِل في ابتسامَةٍ منها:

- "إن سيدي سوف يَهْم بالرحيل هو ورجاله فور تَسْلِيمِكُنَّ لها، وبِصْنِيعِكُنَّ هذا سَتُكْتَب لَكُنَّ النِّجَاة وَلِرِجَالِكُنَّ أَيْضًا".

تَأْمَلَت الزَّوْجَةُ العَجُوزُ حَدِيثَ الجَارِيَةِ من خلف بَابِهَا في سَكِينَةٍ من أَمْرِهَا، لَتَلْتَزِم الصَّمْتَ المُطْبَقَ وعلى جَانِبِهَا كانت تَتَمَسَّكُ الفَتَاتَانِ بِيَدَيْهَا وقد أَلْصَقْنَ ظُهُورَهُنَّ خَلْفَ أَحَدِ الْجِدْرَانِ فِي حَوْفٍ مِنْهُنَّ، لِيَطُولَ السُّكُونُ وَلَا تَجِدَ "بَادِيَةَ" رَدًّا عَلَى طَلِبِهَا، لِيَزْفِرَ سَيِّدُهَا فِي حَتَقٍ وهو يَشِيرُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ من جَوَارِهِ، لَتَتَدَافَعَا أَكْتَافَهُمَا فِي قُوَّةٍ مِنْهُمَا لِتَحْطِمَ الْبَابَ من أَمَامَهُمَا.

كَانَ الْبَابُ يَرْتَعِدُ حِينَئِذٍ مَعَ كُلِّ صَدْمَةٍ تُحِيقُ بِهِ، لِيُنْ مَعْلَنًا أَنَّهُ قَدْ وَشَكَ اسْتِسْلَامَهُ لَهَا، بَيْنَمَا انْزَوَتْ النِّسَاءُ وَقَدْ انْخَلَعَتْ قُلُوبُهُنَّ فِي صُدُورِهِنَّ مِمَّا سَوْفَ يَحِلُّ بِهِنَّ مِنْ مَصَابٍ، لَتَفِيقَ إِحْدَاهُنَّ مِنْ صَدْمَتِهَا وَتَقْلِتَ مِنْ يَدِ الْعَجُوزِ وَتَهَرَّعَ نَحْوَ الْبَابِ لِفَتْحِهِ أَمَلًا فِي الْحِفَاطِ عَلَى فُرْصَةٍ نَجَاتِيَّهِنَّ.

أَطَاحَ الرَّجُلَانِ بِالْمَرْأَةِ أَرْضًا فَوْرَ فَتْحِهَا لِلْبَابِ لِيَذِلِفَا لِلدَّخْلِ عَلَى الْفُورِ وَمِنْ وَرَائِهِمَا زَعِيمُهُمَا وَجَارِيَّتُهُ، لِيَتَأَمَّلُوا الدَّارَ الْفَقِيرَةَ مِنْ أَمَامِهِمْ لِبُرْهَةٍ.. ثُمَّ بَدَأَ الرَّجُلَانِ الْعَبَثَ فِي الْمَكَانِ وَالْبَحْثَ عَنْ ضَالَّتَيْهِمَا وَسَطَ قَرَعِ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدَا أَيَّ صَنَادِيْقٍ تَحْوِي الْمَالَ وَلَا أَيَّ زَكَاثٍ تُخْفِيهَا أَيْضًا، لِيُكْمِلَا الْبَحْثَ لِدَقَائِقٍ دُونَ جَدْوَى.. فَيَعُودَا لِيَقِفَا بَيْنَ يَدَيِ زَعِيمَهُمَا بِأَيَادٍ خَاوِيَةٍ، حِينَمَا تَحْدُثُ الْجَارِيَةُ فِي غَضَبٍ مِنْهَا نَحْوَ الْعَجُوزِ وَرَفِيقَتِهَا الْآخَرَى الَّتِي تَجَاوَرَهَا.

- "أَيْنَ تَخْتَبِي أَمْوَالَ النَّاصِرِيِّ أَيْتَهَا اللَّعِينَتَانِ؟".

نظرت إليها العجوز شزراً يَعْثَيْنِ تملأهما الكراهية بينما يُخيم عليها صمْتُ مُهيب، فنظرت الفتاة إلى العجوز من جوارها يَعْثَيْنِ مَذْعُورَتَيْنِ كادت أن تفضحا السر الذي تخفيهنَّ تلك النساء، ليلمح أحد الرجال نظراتها ويتحرك لِيَقْبِضَ على يدها مُنتَوِيًا اصطحابها لزعيمهم، ولكن أتت شهقة أَلَمٍ منه فور إمساكه بيد الفتاة، ليتراجع بضع خطواتٍ للوراء بينما يَلْفُظُ جرحُ غائر الدِّماء من مِعْدَتِهِ لِيَهْوِي على الأرض مُنازع المَوْت، لينظر زعيمهم نحو يد العجوز المُقْبِضة على سِكِّينها الدامي وهي تُشْهَرُه نحوهم بيدٍ مُرتعشة من شِدَّةِ الخَوْف.

فتقدم الرَّجُل في غضبٍ منه لِيُشْهَر سَيْفَه من جانبه وَيَبْطِش به يد العجوز لِيَسْقُط السَّكِّينَ أرضًا وسط صُراخٍ منها، ثم دفع سَيْفَه لِيَتَغَرَز ببطء في صَدْرِها، لتئن في أَلَمٍ فور ملاقاته لَصَدْرِها وتنساب الدِّماء من فَمِها، لِيَجْذِب تَصُل سَيْفَه من صَدْرِها بعد ذلك بعنفٍ فيعلو الهواء صَدْر العجوز لثوانٍ ثم يُغَادِرُه للأبد، فَعَلَا صُراخ الفتاة وهي تدفن وجهها في صَدْر العجوز في مرارة حزن، بينما أصابت الفتاة المطروحة أرضًا بجوار الباب نَوْبَةً من الصُّراخ وهي تنظر نحو جسد العجوز المُزْهَق روحها، لِيَتَجَه المُساعد الآخر لزعيمهم وَيُسْكِن سيفه في أمعائها، لَتَجَحَّظَ عيناها من الألم وَيَتَكَوَّر جسدها وهي تئن من الألم وهَوْلِ مُنازعة المَوْت.

وهنا تحركت "بادية" لَتَتَجَه نحو الفتاة على الفور من جِوار العجوز وهي تُحَدِّثُها في سخريةٍ منها:

- "لقد أُنْذَرْتُكُنَّ أيتها الغبية".

ثم انكفأت لتطول يدها شعر الفتاة وتجذبها نحوها وهي تُكْمِل:

- "والآن.. أين أموال الناصري؟".

لم تَقُ الفتاة على الحديث من قَرطِ بكائها، ليزداد غضب "بادية" أكثر فأكثر.. فتجذب رأسها في جنونٍ وتدفع به نحو الجدار من خلفها عِدَّة مرات، ليتلطح الجدار بدماءٍ رأسها، حينئذٍ رفعت الفتاة الباكية يدها للأعلى مُعلنة استسلامها والانصياع لها، لَتُقِلت الجارية رأس الفتاة تاركةً إياها وتتحرك نحو سَيِّدها لتقف إلى جواره بصبرٍ يُوشك على النَّفاد، وهنا اعتدلت الفتاة في مَجَلسها وهي تبكي بخُرقة، لتدفع جسد العجوز عِدَّة مرات وتُرْخِزحه عن الحصيرة التي كُنَّ يَجْلِسُن من فوقها، ثم قامت بتدوير الحَصِيرَة وجَدَّبَتْها بعيدًا عن موقعها لتَظهر من أسفلها حُفْرة وقد سَكَن فوقها لَوْحٌ خشبي، وهنا سَارَعَ مُسَاعِدُهُ الأخير يَجْدُب اللَّوْح بعيدًا لتَظهر أخيرًا مُمتلكات "الناصرى" المدفونة.

التَقَت زعيم (المصامدة) نحو جَارِيَّتِهِ ونظر إليها بعَيْنَيْن فَرِحَتَيْن تملأهما السَّعادة، بينما أخذ الرَّجُل من أمامه في إخراج الحَقائب المُكْتَنَزَة بالأموال من حُفْرة الأرض الواحدة تلو الأخرى، ليتحرك الزعيم عائدًا للخارج مرة أخرى بِصُحْبَةِ جَارِيَّتِهِ التي أخذت تتمايل في أنوثَةٍ من جِواره.

كانت المعركة الأخيرة لا تزال مُختدة على أَوْجِها، لقد قَرَّت بعض النِّساء، بينما قُتِلت أخريات، كما أُسِر العديد مِنْهُنَّ، قام المُغيرون بحشد من تبقى من ضحاياهم على قَيِّد الحياة من شيوخٍ وأطفالٍ ونساء في انتظار أمرٍ قائدهم لمعرفة مَصيرهم القادم، بينما أُفْترِشت الأرض بجثث الصَّرعى من الطرفين، لَتَشْتد صَراوة القتال بين من تبقى من الفريقين، فَشَرَعَ "بيجاد" يُكَيِّل بطشات

سَيِّفَهُ فِي وَجهِ أَحَدِهِمْ لِيُبَاغِتَهُ عَدُوٌّ آخَرٌ وَيَطُولُ تَصُلُّ سَيِّفِهِ إِحْدَى قَدَمَيْهِ، فَيَتَلَوَّى مِنَ الْأَلَمِ جَارًّا عَلَى أَسْنَانِهِ، لِيَتِمَّاكَ "بِيَجَاد" نَفْسَهُ سَرِيعًا وَتَعُودَ ضَرَبَاتُ سَيِّفِهِ فِي الدَّفَاعِ عَنْ حَيَاتِهِ ضِدَّ الرَّجُلَيْنِ، لِيَأْتِيَ الشَّيْخُ "صَالِح" مِنْ خَلْفِهِمَا وَيَطْعَنَ ظَهْرَ أَحَدِهِمَا بِسِكِّينِهِ بَيْنَمَا تَرْتَعِدُ أَوْصَالُهُ خِيفَةً مِنْ مُوَاجَهَتِهِ، لِيَصْرُخَ الرَّجُلُ مِنَ الْأَلَمِ وَيَسْتَدِيرُ نَحْوَ الشَّيْخِ مُحَاوَلًا تَوْجِيهِ صَرْبَةٍ آخِرَةٍ لِيَنْطَلِشَ بِهِ.

لِيَتَبَّ "بِيَجَاد" سَرِيعًا وَيَصْدُ الصَّرْبَةَ عَنْ وَجهِ الشَّيْخِ يَنْصُلُ سَيِّفِهِ فِي اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ، وَانْهَالَ بِصَرَبَاتِ سَيِّفِهِ فِي غَضَبٍ حَتَّى انْصَاعَ لَهَا الرَّجُلُ وَسَكَنَ جَسَدُهُ إِحْدَاهَا، لِيَتِمَكَّنَ "بِيَجَاد" مِنْ إِنْقَاذِ رَوْحَيْهِمَا مِنَ التَّغْلُبِ عَلَى الْآخَرِ بِشِقِ الْأَنْفَسِ، لِيُظْهَرَ "يُوسَاب" عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ مِنْ "بِيَجَاد" حِينَهَا وَقَدْ غَاقَلَ أَحَدَ الْمُغِيرِينَ وَبَطَشَ بِهِ لِيَسْقُطَ صَرِيعًا، لِيَجِدَ مِنْ أَمَامِهِ أَحَدَ رِجَالِ الرُّقَاقِ فِي مُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الْعَبْدِ اللَّعِينِ جَاسُوسِ (المصامدة)، حِينَهَا اسْتَشَاطَ غَضَبًا وَانْدَفَعَ مِنْ خَلْفِهِ لِيُذَيِّقَهُ مَرَارَةَ سَيِّفِهِ فِي جَانِبِهِ، فَخَرَّ الْعَبْدُ سَاجِدًا مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، لِيَرْفَعَ "يُوسَاب" سَيِّفَهُ حِينَهَا بِعِزْمٍ وَيُسْكِنَهُ فِي ظَهْرِهِ فَيَلْحَقُ سَرِيعًا لِيُرَافِقَ جَثَّ أَسْيَادِهِ.

رَأَتْ "بَادِيَةَ" مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ شَرِيكِهَا، لَاقَتْ عَيْنَاهَا مَشْهَدَ مَقْتَلِهِ بَيْنَمَا سَقَطَ صَرِيعًا، لَتَسْتَشِيطَ غَضَبًا وَتَتْرَكَ سَيِّدَهَا وَتَرْكُضَ لِلْأَمَامِ نَحْوَ أَحَدِ الْقَتْلَى وَتَنْتَشِلَ خَنْجَرَهُ الْعَالِقَ فِي يَدِهِ لَتَعْبُرَ وَسَطَ سِيُوفِ الْمُتَنَاحِرِينَ قَاصِدَةً رَأْسَ "يُوسَاب"، لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ أَمْرَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَكَانَ مُنْشَغَلًا بِالْبَطْشِ بِأَحَدِ الرِّجَالِ صَاحِبًا كَافَةً انْتِبَاهَهُ نَحْوَ ذَلِكَ الْغَرِيمِ مِنْ أَمَامِهِ، بَيْنَمَا يُطِيحُ بِسَيِّفِهِ فِي قُوَّةٍ أَمْلًا فِي الظَّفَرِ بِرُوحِهِ، لِيَتَفَاجَأَ "يُوسَاب" بِيَدٍ تَجْذِبُ رَأْسَهُ مِنَ الْخَلْفِ وَتَنْحَرُ عُقْبَهُ،

فأحاط رقبته بإحدى يديه وهو يَجِرْ غضبًا لِيَسْتَدِيرَ نحو الجارية التي تراجعت بضع خطواتٍ في ابتسامة ظَفَرٍ منها، فتقدم "يوساب" نحوها وهو يَقْبِضُ على رقبته بجسديٍّ مُتَرَنِّجٍ يُنَارِعُ المَوْتَ أَمَلًا في أن يطول سَيْفُهُ عُثْقَهَا، لِيُطْلِقَ صَرْخَةً أَلَمَ لَتَجْحِظَ عيناه وهو يُحْدِقُ نحو تَصَلُّ السَّيْفِ الذي شَقَّ صَدْرَهُ مُنْدَفِعًا من الخلف، فَجَأًا على رُكْبَتَيْهِ لِيَفْلَتَ يده من رقبته وتتناثر الدِّمَاءُ منها، وتُنَارِعُ أنفاسُهُ السُّعَالِ من الدِّمَاءِ التي ملأت رئتيه وَقَمَهُ، لِيَسْقُطَ جانِبًا على الأرض يُنَارِعُ المَوْتَ مُشْخِصَ البصر نحو "بادية".

بَاتَتِ المعركة غير مُتَكَافئةٍ أكثر من ذي قبل، فكيف لِبَضْعَةِ رجالٍ لم يَحْمِلْ أغلبهم السَّيْفَ يومًا أن يجابهوا رجالًا بات كل ما يقومون به هو القتل، لقد أذاقوا لغالبية المُدَافِعِينَ عن الرُّقَاقِ مرارة المَوْتَ لِيَتَبَقَى عُصْبَةٌ قليلة بالكاد تُدَافِعُ عن حياتها في يَأْسٍ من أَمْرِهَا، لِيُؤَوِّلَ الأمر في التَّهَيُّةِ إلى تراجعهم مُؤَلِّينَ ظُهُورَهُمْ نحو ديارِهِمْ مُتَمَسِّكِينَ بآخر أمل في الدِّفَاعِ عن حياتهم، وهنا جَمَعَ (المصامدة) شَتَاتِ أَمْرِهِمْ لِيُحِيطُوا بهم من كل صَوْبٍ، لِيَتَحَرَّكَ زعيمهم نحو المقدمة وتعود الجارية لمرافقة سَيِّدِهَا مرةً أخرى.

وهنا أتى هُجُومٌ أخيرٌ من أحدِ ساكني الرُّقَاقِ، كان تَرَحَّالَهُ الدائم في الأَرِقةِ والحواري المُجَاوِرَةِ سببًا في تأخره عن المعركة، وما أن اقترب من الرُّقَاقِ قبل قليل حتى عَلَا أذْيَتُهُ صَوْتُ المعركة فَهَرَعَ لملاقاتهم، ربما يكون قد وَصَلَ مُتَأَخِّرًا، ولكن كان في قدومه العَوْتُ الوحيد لتلك الرُّمَّةِ المُسْتَضْعَفَةِ، فتحرَّكَ سريعًا لِيُعْتَلِيَ أَحَدَ الأَسْطُحِ، فإذ به يرى (المصامدة) يُحِيطُونَ بما تبقى من رجال الرُّقَاقِ، لِيَدْفَعَ بِفِعْلَةٍ أخيرة في مواجهة المُغِيرِينَ من أَمَامِهِ.

أطاح "غريـر" بأحدِ جِلَلِ النَّفْطِ المشتعلة لتَطولِ عنان السَّمَاءِ وتَهْوِي نحو ثلاثة رجالٍ من مَيِّمَنَةِ زعيمِ (المصامدة)، موثٌ لم يشهده أولئك الطُّغاة من قبل، فقد غرقت أجساد الرِّجال في نَفْطٍ مُشتعل ملتصقًا بهم ويشوي لحومهم، بينما يركضون بأجسادٍ مُحترقة تتآكل في ألمٍ مُحقق، يعلو صُراخهم فيتفرق المجاورون لهم في قَرَع، دون أن ينجدهم أحدٌ مما هم فيه، ليتساقط الواحد منهم تلو الآخر وتهوي جثثهم المُتفحمة لتَسكن الأرض يعلو منها رائحة السَّواء.

نظر زعيمِ (المصامدة) حينها للأعلى نحو "غريـر" في خَوْفٍ بادٍ على وجهه لم يَسْتَطِعَ إخفائه، ليتجزع فور رؤيته لِحِلَّة نَفْطٍ أخرى تهوي تجاهه، ليتحرك قَزَعًا بحركة أفقدته هَيْبَتَهُ، ليُصيب النَّفْطُ المُشْتَعِلُ الأرض من تحت أقدام بعضٍ من رجاله، ليعلو صُراخهم ويفرّون في هَلَع، فيمتد النَّفْطُ المُشْتَعِلُ فيهم ليُصيب أجسادَ من يجاوروهم، ليُدرك البَقِيَّة المصير الذي ينتظرهم فتُسابق أقدامهم الرياح للفرار من الزُّقاق، تاركين غنائمهم التي أتوا من أجلها، لتمر دقائق وَيَعُمُّ السُّكون على المكان فلا يُرى للـ (مصامدة) أثرًا في الزُّقاق بعد ذلك.

ليَهْرَع من تبقى من رجال الزُّقاق لإغاثة مُصابيهم وإطلاق سراح أسراهم، بينما وقف الشَّيْخ ينظر نحو "غريـر" الذي سَكَنَ أحدَ الأسطُح دون حَرَآك، يراقب المشهد من خلف عِمَامَةِ رَأْسِهِ وأنيسة رفقته، تنساب النسائم على وجهه لثوانٍ قبل أن يُسْرِعَ مغادرًا للاطمئنان على أولئك الذين كان يُقاتل من أجلهم وحمايتهم وحُدْهم.. ليفتح باب داره فيرى والديه في سلامٍ آمين، فيُعَجِّلُ باحتضانهما في سعادة.. وقد اطمئن وارتاح قلبه لرؤياهما على قَيْد الحياة.

ومضة

لقد جَنَّ جُنُونَهُ.. فلم يكن أمامه من خيارٍ آخر.. عليه إجبار ذلك الرَّجُل على مساعدته مهما كَلَّف الأمر، لقد وَجَّب عليه التَّصرف سريعًا قبل فوات الأوان، وفُقدان آخر أمل في إنقاذ أعز ما يملك.

وحين عَسَّعَسَ اللَّيْلُ وبات الكل مَلْهِيًا فيما حَلَّ بهم من نكبات، حَطَا مُتوجسًا في أرجاء الرُّقَاق، يَخْفِي وجهه كي لا يتعرف إليه أحدٌ أو يُدينه بِفِعْلَتِهِ إن رآه وأدركه، قاصِد الخُطى نحو دارٍ قَلَّمَا يَتَوَاجَد بها صَاحِبُهَا، حيث يُغَادِرُهَا طيلة اليوم، اقتحم الدَّار في حَذَرٍ منه بينما يَزِيح البابَ بهدوءٍ من أمامه، كان سَيُفْهِ بجانبه خِيفة أن يَلْتَقِيَ بساكنها، فإنه على درايةٍ بأن ذلك الرَّجُل لا يأتي إليها سوى للمَمِيت وقضاء اللَّيْلِ، ولربما يُصادفه حَطُّهُ العَائر في أن يكون صَاحِب الدَّار بداخلها، فلا يُبَارِحُهَا وهو على قيدِ الحياة.

أطل برأسه نحو الفراش المُجاور لأحد الجُدران بالداخل فور دُلُوفه، فلم يجد من يعتليه، فتحرك بخطواتٍ خَثِثَةٍ في أرجاء المكان.. ليُدرك أن صَاحِب الدَّار لم يَأْتْ بعد، حينها بدأ بالسَّعي في مهمته التي جاء من أجلها أَمَلًا في أن يعثر على ضالته، فأخذ يَبْحَث في أرجاء الدَّار.. ولكن دون جَدْوَى من مَسْعَاه، أزاح من حصيرة كانت تفترش الأرض، فلم يجد من أسفلها دَفِينًا، لِيَتَحَرَّك نحو أحد الأركان التي تَسْتند عليه لفائف طويلة من الحِصائر، لِيُطِيع بها فلا تنال عيناه من أثرٍ لضالته، قام ببثرة أواني الطَّعام بيديهِ في عَصَبِيَّةٍ واضحة.. فلم يجد ما يُخْبَأ بداخلها، أثارت الحيرة فضوله وهو يخشى أن تكون ضالته في مكانٍ

آخِر غير هذه الدَّار، ولكن كيف ذلك وصاحبها لا يأمن الغَيْر، وليس لديه من الود والطمأنينة لِيُخفيها لدى أحدٍ آخر.

إنه يَعِي جيدًا أن صاحب الدَّار يُوقن عدم امتلاك أي شخصٍ للجُرأة الكافية التي تَدفعه لاقتحام داره وسَرِقته، ومن يُقَدِّم على تلك الفِعلَة فسيكون التَّحر من نصيب رقبتة، فأكمل مَسْعاه حينها مجددًا دون مَلَلٍ أو كَلَل.

قاده فُضوله في التَّهابة لِيَنظر بأسفل كل ما يَسْكُن الأرض، حتى هداه تفكيره الأخير إلى أن ينظر أسفلَ الفراش، وقد عَيَّمت حَيَبُه الأمل فوق رأسه حينها، لم يكن هناك سوى بعض الجِرار الفخارية المُهشمة تفترش بالأسفل، كاد أن ينهض من جَثْوَتِه في يَأْسٍ منه ويَزوغ ببصره بعيدًا.. لولا أن لَمَح من الأمل حَفِيئًا، فكانت لاتزال إحدى تلك الجِرار سليمة لم يَطْلُها أذى، تستند إلى الجِدار بينما تَسْتتر خلف حُطام مثيلاتها.

أطال الرَّجُل يده لِيَجذب طَرَفَها ويأتي بها نحوه، فأزاح حينها قطعة القُماش خاصَّتْها عن فُوهَتِها، لِيَجِد أخيرًا ما كان يَبحث عنه طيلة الوقت، فاتبعت عيناه شاردًا فيما هو آتٍ من مُحَطَّطه، لم يكن أحد يعرف سبب تلك النظرات التي اعتلت وجهه، لربما أطلَّت من عَيْنِيهِ نظرة سعادة بنجاح حصوله على مَسْعاه ممزوجة بنظرات الجنون الذي قد صاحبه منذ فترةٍ قصيرة، ولم يُفارق عقله ونفسه الوحيدة مُنذئذٍ.



الفصل الثاني عشر

الطَّاغُوتُ ⁵¹

لم تَكَدْ تمر تلك الأشهر المريرة على العبادِ حتى أَطَلَ عليهم ابتلاءٌ جديد، لقد خَلَقَت الأزمة وحشًا ضارًّا يَنْهَشُ الأنفس ويُذيقها المَوْتَ دون هَوادة منه أو رحمة، لقد تَكَالَبَت الأوبئة لِطُطِيحِ بالدولة وَتَكْتَسِيحِ مَغَارِبِهَا وَمَشَارِقِهَا، فاشتد المرض في البلاد ⁵². فكان يموت كل يومٍ ما لا يقل عن الألف نفس، ثم ارتفع عدد الصَّحَايا بعد ذلك لِيَصِلَ إلى العشرة آلاف، ويُذَكَّرُ أنه في يومٍ واحد مات ما يُقارب ثمانية عشر ألف شخص، حتى قُتِلَ ثُلُثُ أَهْلِ (مصر) خلال تلك الأزمة ⁵³ فَخَرِبَت ضواحي (الفسطاط والعسكر والقطائع)، وَتَحَوَّلَ في ذلك الوقت غالبيتها إلى طلالٍ وخطام ⁵⁴.

وفي صباح ذلك اليوم.. تحرك ثلاثة من الرِّجال مُلْتَمِي الأوجه لا يظهر منهم سوى ما يُعينهم على البَصَرِ خِشْيَةُ انتقال العدوى، يَجْذِبُونَ عجلة حَشَبِيَّة من ورائهم قاصِدِينَ النهر الغائب، في طريقٍ لا يُرى به بشر، بينما تَحْمِلُ العربة فوقها جُثْمَانَيْنِ فَتَكُ بهما الوباء كغيرهما، لِيَتَوَقَّفَ أَحَدُهُم حينها أمام ذلك المجرى العميق لِقَيْضٍ قد تَصَّبَ منذ أمدٍ بعيد، بينما يُخِيمُ عليه حزنٌ شديدٌ من أمره، وَتَتَرَفَّرُ الدموع من عَيْنَيْهِ المُسْتَتِرَةِ تحت عباءته لِتَنْسَابَ على وَجْهِهِ، وَتَغْرُقُ من خلف تَلْثِيمة وجهه لِخَيْثِهِ البِيضَاءِ في صَمْتٍ منه، فتتحرك الاثنان من جواره لِيَدْفَعَا العربة للأمام نحو طَرَفِ المجرى، لِيَرْفَعَا مِقْبِضَ الْعَرَبَةِ للأعلى فَتَنْزَاحَ الْجُثَّتَانِ لَتَهَاوِيَا للأسفل وتسقطان لتنضمَّا إلى جثث من سبقوهما..

لقد صار مجرى نهر النيل كما لو كان تل قمامة عالٍ مُهيب، تَرَكَه الناس لِيَتْرَاكُم فوق بعضه البعض، هكذا كانت جثث المَوْتَى المَوْبُوءِينَ الذين رمى بهم ذويهم خَشْيَةً أَنْ يَدْفَنُوهُمْ فِي ديارهم فَتَنْتَقِلَ إِلَيْهِمُ الْعَدُوّ، وَيَصْبَحُوا فِي عَدَادِ المَوْتَى شَأْنُهُمْ شَأْنُ ذَلِكَ التَّكْدُّسِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ ⁵⁵. ترى الجُثَّةَ التي تَعَفَّتْ فوق الأخرى يطوف بها الدُّبَابُ الأزرق من كل حَدْبٍ وَصَوْبٍ، كانت صورة مُقْبِصَةٍ وَمُزْرِية لما آلت إليه الحياة وقتها.

نظر "غريز" حينئذٍ إِلَى جُثْمَانِيٍّ وَالدِّيَّةِ اللَّذَيْنِ تَمَدَّدَا فوق بَقِيَّةِ الجثث الأخرى بينما يعتصر الحُزْنَ قلبه، تَمَنَّى لو كان هناك شيء استطاع فِعْله لَدَفْعِ المرض عنهما، ولكن قد تسلل المَوْتُ إِلَى داره رُغْمًا عنه ليصحبهما إِلَى دارِ الآخرة، وها هما يرقدان من أمامه الآن بين جثثٍ عَفِنَةٍ وَمُهْمَلَةٍ دون فرصة لَدَفْنِهِمَا كما ينبغي.

- "فلتدعوا لهما، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرًا".

كانت كلمات الشَّيْخِ "صالح" له من جواره كفيّلة بأن تُزِيحَ أَيَّ هَيْبَةٍ مِنْ جَسَدِ "غريز"، فانتفض ظهره حينها وهو يجهش بالبكاء، فقد تجمع بعقله ذكريات طفولته ومُعَانَاتِهِ بِهَا وَنِقْمَتِهِ المُسْتَمِرَّةَ، وكل المتاعب التي تحملها والداه في صَبْرٍ مِنْهُمَا وَحَنَانٍ، فَعَلَّتْ دَعَوَاتُ الشَّيْخِ "صالح" المكان ووقف إِلَى جِوَارِهِ "غريز، و"بيجاد" فِي صَمْتٍ مِنْهُمَا.

لتمر الدقائقُ بعد ذلك وَيَهْمُ الْجَمِيعُ لِلْمَغَادِرَةِ مَصْطَلِحِينَ الْعَرَبَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ لِيَعُودُوا أَدْرَاجَهُمْ، كان "غريز" يتقدمهم ومن ورائه رَفِيقًا الطَّرِيقِ، كان "بيجاد" وَالشَّيْخُ "صالح" يَتَوَجَّسَّانِ خِيفَةً بِشَأْنِ أَمْرِ مَا يُوْرِقُهُمَا وَيُفْزِعُ قَلْبَيْهِمَا، فَكَانَا

يتهامسان طيلة الطريق، فلقد كان والدا "غريز" هما الشيء الوحيد الذي كان يربط "غريز" بالزُّقاق الذي طالما مَقَّت ساكنيه، والآن برحيلهما قد يُخْلَف عَهْدَه مع الشَّيْخ ويرحل بعيدًا ولا يُرى له أثرٌ بعد اليوم، فآل الأمر إلى أن تَقَدَّمَ إليه الشَّيْخ لِيُحَدِّثَه عن أسوأ مخاوفِه:

- "أَسْتَخْلِفُكَ بالله ألا تَنْقُضَ عَهْدَكَ معنا بعد وفاة والديك، وتَذَكَّرَ دائمًا أن هذا كان مَطْلِبُهُما الأخير منك".

فَحَدَّثَه "غريز" دون الالتفات له مُكْمِلًا طريقه:

- "لا تقلق أيها الشَّيْخ العجوز، سوف تجدني في الجِوار دائمًا، وسأبقى على عهدي معك ما حَيَّيْتُ".

ثم صَمَتَ لثوانٍ في شُرُودٍ قبل أن يُكْمِلَ:

- "كما أنني أعلم أنه لا يوجد أي شيء آخر سوف يُسَعِدُ والديَّ أكثر من علمهما بأنني ما زلتُ نفس الشخص الذي تَمَنَّيَا أن أكونه".

حَيَمَ الصَّمْتُ على ثلاثيهم، وخاصةً كلِّ من الشَّيْخ "صالح" و"بيجاد"، فلقد ارتاح قَلْبُهُما مما كان يُورِقُهُما بعد أن استمعا إلى حديث "غريز".. ليعود الجميع بعد ذلك إلى مساكنهم آمنين.

وبمرور الأيام بدأ يُلاحَظ غياب "غريز" كعادته عن الزُّقاق نهائيًا ليزوره ليلاً للمبيت فيه فقط، بينما أكمل عَهْدَه بالمجيء في ليلة كل جمعة للشَّيْخ

"صالح"؛ لِيُؤْصِلَ الأطفال بمفرده بعد مقتل "يوساب" إلى الترحال بعيدًا لماوى لا زال الأمل به قَتِيًّا.

وفي يومٍ مشؤومٍ خرج "بيجاد" كعادته مُحْتَمِيًّا بضوء الظَّهيرة بحثًا عن الزاد، رفع رأسه في حِسْرَةٍ لتلك السَّماء التي اعتاد أن يُرْفِرَفَ بها الطير يومًا، ليكمل مَسْعاه باحثًا لساعاتٍ عن أي شيءٍ يَسِدُّ به رَمَقَ والده وأخيه لِيَفْشَل مَسْعاه دَوْمًا، أحاط به الحُزن بعدما فشل في إيجاد أبسط البدائل للطعام، فحتى حشائش الأرض قد أُتْزِعَتْ من جذورها بأيدي الجَوْعى، ولقد تَشَقَّق طَمِي مجرى النيل منذ وقتٍ مديد، لِيُذْفِن تحته ما تَبَقَّى من سمك الطَّمِي دون أن يُسْتَدَل له على أثر، لم يَعد لديه أي فكرة عما يُمَكِّنه فِعْله حينئذٍ وقد قَشَل مَسْعاه لليوم الثالث على التَّوالي، ولا مَقَر من استمرار معاناة التضور جَوْعًا.

فتحرك لطريق العودة قاصدًا الرُّقَّاق خائب الرجاء، وهنا تَبَدَّل الحال من سيءٍ إلى أسوأ، فبمجرد اقترابه من الرُّقَّاق تنامى إلى مسامِعه صَوْت صُراخٍ قَزَع، ليركض سريعًا حتى وصل إلى مصدر الصَّوْت فأدرك ما حل بالرُّقَّاق من كارثة أثناء غيابه، فما أن وطأت قدماه الرُّقَّاق حتى وَجَدَ جُثًّا دامية تَنَاطَرَت أَشْلاؤها على الأرضِ وسط بكاءٍ من ذويهم، يُؤْلُولون وَيَبْكُون صَارخين يَنْدُبون فقدانهم، بينما كانت بعض الأبواب قد تَحَطَّمت وتَهاوَت أرضًا إثر اقتحامها عُنُوة، لِيَرْكُض في دُعرٍ منه نحو داره ليجد بابها مفتوحًا على مصراعه، لِيَذِلِفَ سريعًا ويجد والدَه مُلقًى جانبًا على الأرض.

هَرَعَ "بيجاد" مُسْرِعًا نحو والدِه لِيَجْثُو نحوه، فإذ به يَجِدُه في نزاعٍ مع لحظاتِ مَوْتِه الأخيرة، وقد طالت آثار صَرْب التَّعال أنحاءً مُتَفَرِّقة من جسده، بينما

كال أحدُهم له لكُماتٍ قوية في وجهه تَسَبَّت في نزيهِ حادٍ لأنفه كما حَطَّمت إحدى أسنانه الأمامية، لم يعرف "بيجاد" ما عليه فَعَله تجاه والده وقتها، فأجهش بالبُكاء بينما يَحْتَضِن أباه في مرارٍ وحسرةٍ منه، فابتسم والدُه وهو مُعْمِض العَيْنَيْن وقد ارتاح قلبُه حين شَعَرَ بِصَمٍّ ولِدِه إليه للمرة الأخيرة، لثُبَاح تلك الابتسامة وجهه وتَلاشَى شَيْئًا فَشَيْئًا بعد لحظات.. ويَحِل عليه السُّكون الأخير.

حينها أطلق "بيجاد" صرخة ألم منه تنتفض لها الجدران بينما يَنْبِض قلبُه مَرَارَةً وحزن، لِيَعْتَصِر جسد والدِه في كَنَفِه وهو مُعْمِض العَيْنَيْن يَذرف الدَّمع دون تَوَقُّف، حينئذٍ طرأ على عقله أمرٌ هام، ففتح جِفْتَيْهِ في رعبٍ منه لما أدركه من كارثةٍ قد حَلَّت به أيضًا، فأفلت جسد والدِه لِيَنْهَض سريعًا باحثًا عن أخيه الصغير، هَرَعَ فَزِعًا نحو الفراش الخالي لِيَجْثُو على رُكْبَتَيْهِ سريعًا وَيَتَقَفَّد أسفلَه وهو يُنادي باسم أخيه عاليًا ولكن دون مُجِيب، فَتَظَر نحو العُرفة الأخرى لِيَجِدَهَا خاوية من أمرِها، فَتَحَرَّكَ في جنونٍ منه نحو كَوْمَةٍ من الأواني الكبيرة الصَّدِيئة والمُتراكمة في أحدِ الأركان، لِيُعْثَرها في عجالة فلم يجد لأخيه أي أثر.. لقد حَلَّت الصدمة على عقلِه وقد أدرك أنه قد فَقَد أخيه الصغير هو الآخر.

ركض "بيجاد" سريعًا نحو الخارج يَتَلَقَّت بنظراته السريعة نحو الجثث المُتناثرة دون أن تَلَمَح عيناه مُبتغاها، حينها هَرَعَ نحو الشَّيْخ "صالح" فور رؤيته له بجانب إحدى الجثث، وقد افترش الأرض إلى جوارها أحدُ الأشخاص المُصابين يَنوح ويبكي بين طِيَّات صَدْر فقيدته الغارقة في بِرَكَةٍ من الدِّماء بِشَهَقَاتٍ مُتقطعة

وضُرَّاحٍ مُتَوَاصِلٍ لَا يَنْقَطِعُ، حِينَهَا جَذَبَ "بِجَاد" كَتَفَيَّ الشَّيْخِ نَحْوَهُ بِقُوَّةٍ وَهُوَ يَصِيحُ بِهِ:

- "أَيْنَ أَخِي؟ مَا الَّذِي حَدَثَ هُنَا؟".

تَحَدَّثَ الشَّيْخُ فِي حَزَنِ مِنْهُ وَهُوَ يُجِيبُهُ:

- "لَقَدْ عَادَ (المَصَامِدَةُ) مَرَّةً أُخْرَى يَعْوُنُ إِضَافِي لِلانْتِقَامِ مِنَّا دُونَ أَيِّ هَوَادَةِ أَوْ رَحْمَةٍ، لَقَدْ بَاغَتُوا الرُّقَاقَ فِي وَصَحِ النَّهَارِ، فَفَتَكُوا بِرِجَالِنَا وَخَطَفُوا مَا تَبَقِيَ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ، وَرَحَلُوا تَارِكِينَ الرُّقَاقَ غَارِقًا فِي بَحْرِ مِنَ الدِّمَاءِ بَعْدَ أَنْ أَبَادُوهُ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِ".

نَظَرَ لَهُ "بِجَاد" وَقَدْ أَصَابَهُ الْجُمُودُ مِنْ هَوْلٍ مَا سَمِعَهُ، لِيَتَذَكَّرَ لِسَانَهُ الْقَوْلَ:

- "وَأَيْنَ كُنْتُمْ حِينَئِذٍ؟ لِمَاذَا تَرَكْتُمُوهُمْ يَرْحَلُونَ بَيْنَمَا مَا زَالَتْ أَرْوَاحُكُمْ تَسْكُنُ بَيْنَ أَضْلَعِكُمْ؟".

حِينَهَا رَفَعَ الرَّجُلُ الْمُصَابَ إِلَى جَوَارِهِمَا رَأْسَهُ الْمُتَكَفِّيَّ فِي صَدْرِ فَقِيدَتِهِ، لِيُحَدِّثَهُ وَدُمُوعَهُ تَنْصَاعُ لِلْحَزَنِ وَالْحَسْرَةِ فِي قَلْبِهِ:

- "لَمْ يَتَبَقْ مِنْ أَهْلِ الرُّقَاقِ سِوَى الْعِزَّةِ وَالشُّيُوخِ، كَيْفَ لَنَا بِرَدِّ قُوَّةٍ مِثْلِهِمْ؟".

ثُمَّ أَخَذَ "عَبْدَ الرَّازِقِ" حِينَهَا فِي رَطْمٍ عَظُمَ يَدُهُ الْمَبْتُورَةِ فِي الْأَرْضِ فِي انْهِيَارٍ مِنْهُ وَهُوَ يُكْمِلُ:

- "ليتني قُتِلْتُ على يَدِهِم قبل أن أتذوق هذا المرار، ولكن يبدو أنني لم أكن أستحق عَنَاءَ رَفْعِ نِصَالِهِم في وجهي".

لم يكن "عبد الرازق" يَتَذَكَّرُ شيئًا منذ أن سَقَطَ مَغْشِيًّا عليه فور أن باغته أحدُ (المصامدة) بِرَطْمَةٍ عَنيفَةٍ من قبضة سَيْفِهِ، لُذْمِي رَأْسَهُ على الفور فيسقط أرضًا ويُبَارِحِ الوعي عقله، كان آخر ما أبصرته عيناه حينها زوجته وهي تُصارع أحدَ الطغاة كي يَكُفَّ يديه عنها وعن وليدها.

لِيُكْمِلَ "عبد الرازق" حديثه وهو يُمَلِّسُ بيده المُعَافاةَ على وجه زوجته الصَّريعة بجواره، والذي برز منه عظام وجنتيها من قسوةِ عَنَاءِ الجُوع:

- "يبدو أن زوجتي كانت أكثر بسالةً مني.. أو لربما لم يَجِدْ الطُّغَاةُ بها ما يستحق عَنَاءَ حَطْفِهَا لِيَتْرَكُوها جُثَّةً هَامِدةً".

ثم عاد لِيَذْفِنَ رَأْسَهُ نحو صَدْرِهَا البارزةِ عِظَامِهِ وهو يُكْمِلُ في مرارة:

- " فليُتَسَامِحْنِي يا زوجتي العزيزة.. أتوسل إليك أن تفعلني".

وقف "بيجاد" شارد الذَّهن في مُصِيبَتِهِ، فيبدو أن أخاه الآخر على وشك مُلاقاة مصير أخيهما المفقود منذ زمنٍ طويل، فترك الشَّيْخُ لِيَتَحَرَّكَ سريعًا نحو داره ليستل سيفه، وما أن خرج حتى وَجَدَ الشَّيْخُ في مُوَاجَهَتِهِ رادِعًا إياه عن عَزِيمَتِهِ في مُلاحَقَتِهِم وهو يُحَدِّثُهُ:

- "لقد رَحَلَ (المصامدة) منذ وقتٍ طويلٍ ولن تتمكن من اللحاقِ بهم، ولا جَدْوَى من أن ينالك المَوْتُ أنت الآخر يا بُنَيَّ في مُحَاوَلَةٍ لن تُؤْتِيَ ثمارها".

نظر له "بيجاد" يَعْيَتْنِ يملأهما الغضب، لَتَسَابِ الدموع منهما في مرارةٍ وألمٍ، فاحتضنه الشَّيْخُ "صالح" مُرَبِّيًا على كَتِفِهِ في صَمْتٍ، ثم تحدث بعدها مُوَاسِيًا إياه:

- "لا تَقْسُوْا على نَفْسِكِ يا ولدي".

فأعاد الشَّيْخُ وجهه للأمام وهو يُكْمِلُ:

- "فلتُساعدني على دفن والدكِ كما ينبغي في مَثَوَاهِ الأخير، فلعله يرتاح في قبره مما عاناه في حياته".

ساعاتٌ طوال قد انقَضَتْ منذ أن عَادَرَ (المصامدة) الرُّقَاق في حالةٍ من القَوْصَى، والحُزْنُ يُخِيمُ على كلِّ من بَقِيَ على قَيْدِ الحياةِ يفتقد مُحِبَّهُ، لِيَنْشَغِلَ بَقِيَّةُ ساكنيه في النَّحِيبِ، يذرفون دموع الحُزْنِ والألم على فِراق موتاهم، لِيَمُرَّ اللَّيْلُ بوجهه الحزين وَيَهْرَعَ أولئك البَقِيَّةُ للاحتماء ببيوتهم كعادة كل يوم غارقين في مرارة حَسْرَتِهِمْ وقسوة الفِراقِ تُمزق قلوبهم، ولكن لم يكن أحدهم يُكابِدُ الشَّقاءَ كما كان يفعل "بيجاد" في تلك اللَّيْلَةِ.

لقد انزوى في أحدِ أركان داره يَفِيهِ مُطَبَّقٌ وَعَيْتَيْنِ جاحِظَتَيْنِ لا يفارقهما التفكير في مصير أخيه القادم، يجلس وهو يُحِيطُ رُكْبَتَيْهِ بِذِرَاعِيهِ، بينما يهتز جسده في ترنيمَةٍ حزنٍ منه مُسَلِّطًا عَيْنَيْهِ نحو باب داره المفتوح على مصراعه دون أن يكثرث بغلقه، ينتظر المَوْتَ بكلِّ ترحابٍ بنفسٍ أصابها اليأس والإحباط، لِيَزِيحَ عن كاهله عناء ما يَشْعُرُ به، تتراءى لمخيلته مشاهدٌ عِدَّةٌ بينما يقومون بذبح أخيه الصغير وتقطيعه إِرَبًا على إحدى طاوولات أولئك

الْقَتْلَةَ، تَارِكًا الْعِنَانَ لِمَخِيلَتِهِ لُتُصِيبَهُ بِالْجُنُونِ الَّذِي أَوْشَكَ عَلَى مُصَاحَبَةِ عَقْلِهِ فِي وَحْدَتِهِ، لِيَهْتَدِيَ عَقْلُهُ لِلْقِيَامِ بِفِعْلَةٍ آخِرَةٍ.. فَإِذَا أَنْ يَعْتُرَ عَلَى أَخِيهِ الصَّغِيرِ، أَوْ أَنْ يَمُوتَ أَثْنَاءَ سَعْيِهِ نَحْوَ تَحْقِيقِ مَرَادِهِ.

أَتَى ظِلَامُ اللَّيْلِ التَّالِي عَلَى زُقَاقٍ (أَتْرُجَة) الْمُنْكَوبِ، لِيَتَحَرَّكَ فِي الْحَوَارِي رَجُلٌ لَا تُفَارِقُهُ عِبَائَتُهُ، يَمْشِي عَلَى هُدًى بَعِيَّتَيْنِ يَقْطَعَتَيْنِ وَخَنْجَرٍ لَا يُفَارِقُ يَدَهُ، لِيَصِلَ إِلَى الزُّقَاقِ عَائِدًا لِدَارِهِ كِعَادَتِهِ لِيَسْكُنَ بِهَا حَتَّى مَطْلَعِ النَّهَارِ، وَلَكِنْ فُورَ وَصُولِهِ لِبَابِ دَارِهِ لَاحِظَ الْبَابَ وَقَدْ انْصَاعَ لِاقْتِحَامِ أَحَدِهِمْ، لِيَزْدَادَ حَدْرَهُ وَيَحْكُمُ قَبْضَتَهُ نَحْوَ خَنْجَرِهِ وَيَخْطُو لِلدَّخْلِ فِي تَوَجُّسٍ، لِيَلُوحَ لَهُ فُورَ دَلُوفِهِ شَخْصَيْنِ يَجْلِسَانِ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ حَرَائِكَ، حِينَهَا تَنْحَى جَانِبًا دُونَ مُقَارِبَتِهِمَا وَهُوَ مُنْصَبٌ النَّظَرَ نَحْوَهُمَا لِيُشْعَلَ أَحَدُ الْقَنَادِيلِ وَيَرْفَعَهُ لِلْأَعْلَى نَحْوَهُمَا، لِيَرَى "غَرِير" كُنْيَةَ مَنْ يَفْتَرِشَانِ الْأَرْضَ مِنْ أَمَامِهِ، لَقَدْ كَانَ "بِيْجَاد" يُجَالِسُ الْأَرْضَ وَمِنْ جَوَارِهِ "عَبْدُ الرَّازِقِ" يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ غَارِقَيْنِ فِي صَمْتِهِمَا، لَمْ يَفْهَمْ "غَرِير" أَيَّ مَعْرَى لَوْجُودِهِمَا فِي عُقْرِ دَارِهِ، لِيَلْتَفِتَ نَحْوَ طَاوِلَةٍ مِنْ جَوَارِهِ وَيَصَّعَ الْقَنْدِيلَ مِنْ فَوْقِهَا.

- "أَيْنَ كُنْتَ حِينَمَا أَغَارَ (الْمَصَامِدَةُ) عَلَى دِيَارِنَا؟".

لَمْ يَلْتَفِتْ "غَرِير" لِحَدِيثِ "بِيْجَاد" لَهُ، فَأَكْمَلَ الْآخِرَ حَدِيثَهُ فِي غَضَبٍ بَيْنَمَا نَهَضَ لِيُبَارِحَ مَجْلِسَهُ:

- "لِمَاذَا لَمْ تَتَوَاجَدَ حِينَهَا لِلدَّفَاعِ عَنَّا؟".

حِينَهَا أَجَابَهُ "غَرِير" فِي سَخَرِيَّةٍ مِنْ حَدِيثِهِ:

- "إنني لستُ بالمنقذ الذي حَلِمْتُم به يومًا، فأنا لم أَعُدْ آتي إلى هنا إلا للمَيِّتِ، معاوِدًا التَّرحال في الصَّباح الباكر".

ثم التَّفت ليتجه نحو فراشه ليُريح ظهره وهو يُكْمِل:

- "إن عَهْدِي مع الشَّيْخ لإكمال مَهامي ليس باليوم، ولا شأن لكما هنا".

نهض "عبد الرازق" هو الآخر بدوره ليُصاحِب "بيجاد" في حُطَّاه وهو يَتَحَرَّك نحو "غريِر"، ليُعاوِد "بيجاد" الحديث نحوه:

- "لا زِلْتُ لا أعلم سبب مجيئكَ لزقاقٍ تَمَقِّئُهُ كل يوم، لربما تشْتَاق لمجلِس والدَيْكَ، تتمدد على فراشِهِما كطفَلٍ صَغِيرٍ غارقٍ في ذكرياته".

ثم تحرك "بيجاد" حينها لِيَقِفَ بالقرب من "غريِر" وهو يُكْمِل:

- "أو ربما تأتي فقط للاطمئنان على كَنَزِكَ الثمين الذي لم تَتَوَقَّعْ أن يُغَيِّرَ أَحَدٌ على دار الأَشْيَبِ يومًا للبحثِ عنه".

التفت "غريِر" نحوه في تَوَجُّسٍ، ليُكْمِلَ "بيجاد" حديثه على الفور:

- "لا داعي لأن تبحث عن جَرَّتِكَ الثمينة والصُّكوك التي بداخلها.. لقد عَثَرْتُ عليها وأَحَقَّقْتُ أي أثرٍ لها".

انتفض "غريِر" على الفور من الفراش ليُشْهر خَنَجَرَهُ وَيُقَرِّبُهُ من صَدْرِ "بيجاد" في غضب، لِيَتَرَجَعَ "عبد الرازق" في خوفٍ منه، بينما ابتسم "بيجاد" نحو الأَشْيَبِ دون اكتراثٍ لما هو قارِم، لِيُطبق سريعًا على قبضته المُمسكة

بِالْخُجَرِ وَيَبْدَأُ بِجَذْبِهَا نَحْوَ صَدْرِهِ حَتَّى لَامَسَ تَضَلُّهُ مَنَّبَتَ صَدْرِهِ، فزَادَ مِنَ الضَّغْطِ عَلَيْهِ بِيَدِهِ لَتَقَطَّرَ الدَّمَاءُ مِنْهُ وَتُلَطِّخَ ثِيَابَهُ، لِيَتَحَدَّثَ فِي سَخَرِيَّةٍ مِنْهُ وَقَدْ طَالَ عَقْلُهُ الْجَنُونُ:

- "فَلْيَقُتِّلْنِي، لَعَلَّكَ تُرِيحُنِي مِنْ عَنَاءِ الْحَيَاةِ، أَوْ تَنْصَاعَ لِمَا سَأُطْلِبُهُ مِنْكَ، وَلرَبَّمَا تَحْيَا حِينَهَا لِتَرَى ضَالَّتَكَ مَرَّةً أُخْرَى".

نَظَرَ "غَرِيرٌ" نَحْوَ وَجْهِ "بِيَجَادٍ" فِي تَعَجُّبٍ مِنْهُ، فَتِلْكَ النُّظَرَاتُ الَّتِي عَلَّتْ وَجْهَ "بِيَجَادٍ" لَمْ يَعْهَدْهَا بِهِ مِنْ قَبْلُ، فَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ مَسَّ الْجَنُونَ عَقْلَهُ لِيَتَقَبَّلَ الْمَوْتَ بِصَدْرِ رَجَبٍ، وَلَكِنْ بِقَتْلِهِ إِيَّاهُ سَيَفْقِدُ كَنْزَهُ الثَّمِينِ لِلأَبَدِ، لَتَمُرَ لَحْظَاتٌ وَيَجْذِبُ قَبْضَتَهُ بَعِيدًا عَنْ قَبْضَةِ "بِيَجَادٍ" وَهُوَ يُحَدِّثُهُ فِي ثَوْرَةٍ عَارِمَةٍ دُونَ رَجْعَةٍ فِي حَدِيثِهِ:

- "أَيْنَ الْجَرَّةُ أَيُّهَا اللَّعِينُ؟".

- "سَوْفَ أَسْلَمْتُكَ إِيَّاهَا فَقَطْ إِنْ سَاعَدْتَنِي فِي مَسْعَايَ".

حَيَّمَ الصَّمْتُ لِلْحِظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ "عَبْدُ الرَّازِقِ" نَحْوَ "غَرِيرٍ" حِينَئِذٍ:

- "نَرِيدُكَ أَنْ تَسَاعِدَنَا فِي اللَّحَاقِ بِـ (الْمَصَامِدَةِ) لِإِنْقَاذِ أَطْفَالِنَا".

نَظَرَ "غَرِيرٌ" نَحْوَهُ لِيُجِيبَهُ بِاسْتِخْفَافٍ مِنْ أَمْرِهِ:

- "لَقَدْ رَحَلَ (الْمَصَامِدَةُ) مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، وَلَا فَائِدَةَ تُرَجَى مِنْ تَقْفِي أَثَرِهِمِ الْآنَ".

فَتَحَدَّثَ "بيجاد" حينها قائلاً:

- "إن عبد الرزاق يَعْرِفُ وَجْهَهُمُ التَّالِيَةَ".

أوماً عبد الرزاق برأسه مُوافقاً وهو يقترب من جانبه لِيُكْمِلَ:

- "لقد انتشر الحديث بين سُعاة اللَّيْلِ مع كثرة هجمات (المصامدة) على الأَزَقَّةِ والحواري، عن قيامهم ببيع المُخْتَطَفِينَ لأحد الطَّبَّاخِينَ⁽⁵⁶⁾ في مدينة القطائع، ذلك الذي يبيع لحوم البشر بمبالغٍ طائلة للأثرياء".

هز "غرير" رأسه غير مُبالٍ بينما ارتسمت ابتسامة سخرية على وجهه قائلاً:

- "وما الجديد بشأن ذلك؟ فقد انتشر الكثير من طُهاة لحوم البشر في كافة أنحاء البلاد".

أوماً "عبد الرزاق" برأسه موافقاً على الحديث لِيُضِيفَ إليه:

- "ولكن هناك طاهٍ وحيد يتواجد بمدينة القطائع، وقد شاع في الأرجاء بأن الشُّرْطَةَ العُلُويَّةَ تقوم بمعاونته في توصيل اللحوم الآدمية لِعَلِيَّةِ القوم بمدينة القاهرة، وأني على يقينٍ بأننا سوف نَعُثِرُ على ضالتنا هناك".

ثم عاد لِيُكْمِلَ وهو يتذكر:

- "لقد أتى (المصامدة) في عَوَرَتِهِمُ الأخيرة بضُخْبَةٍ بعضٍ من رجالِ الشُّرْطَةِ العُلُويَّةِ، لقد رأيت الدِرْعَ الذي يرتديه ذلك الرَّجُلُ الذي أفقدني الوعي حينما أغار علينا، لقد كانت شارة الشُّرْطَةِ العُلُويَّةِ تَعْتَلِي صَدْرَهُ، وحيث أنه لا شأن

له ورفاقه بالمجيء إلى هنا من الأصل، فهؤلاء حتمًا من يساعدون (المصامدة) في مَسْعَاهم وتسليم اللحوم لطاهي القطاع.

حينها تحدث "بيجاد" على الفور:

- "سوف نحاول اللّحاق بهم، ولربما نتكمن من إنقاذهم قبل أن يطول المَوْت أنفسهم، أو نموت ونحن نُحاول".

نظر له "غريز" حينها باستخفافٍ وهو يُكْمِل:

- "يا له من مَسْعَى أحمق ونظرية واهية، وحتى إن صَحَّ حديثكما فلا طاقة لنا لمحاربة أولئك الرجال، وسوف يطول المَوْت رقابنا لا مَحَالَة".

فَقَهَّقَه "بيجاد" بسخريةٍ وهو يُجيبه:

- "لقد أخبرتك أنه من الأفضل أن نموت بينما نُحاول على الوقوف مَكْتُوفِي الأيدي".

ثم زاد من سخرية حديثه:

- "كما أنه من الأفضل لك أن تموت أنت الآخر، على أن تَعيش وحيدًا فقيرًا أيها البائس".

كاد الغضب يدفع "غريز" للبطش بعُنُق "بيجاد" ليرفع يده قليلًا نحوه لثوانٍ.. ثم عاد ليُريحها مجددًا وقد حَكَّمَ عقله في نهاية الأمر، ليَزرِف في حَنَقٍ وهو يُجيبه:

- "فلنُسارع الترحال إذن، إن أردنا اللحاق بهم".

خَرَجَ الجميع من دار الأُشُيب حينها نحو مَسْعَاهم، ثم نظر ثلاثتهم نحو ذلك الرُّقَاق المُتَوَشِّح بعِتمة اللَّيْلِ الحزين قبل مغادرته، فقد انطفأت مصابيح كافة الدِّيار، وَخَبَت نيرانها كما خَبَت أرواح ساكنيه، صار الصَّجِيج سَكُوتًا لا كاسر له، بات الرُّقَاق كُتْلَةً من الأنقاض الجاثمة على أجساد من بعثوا فيه الحياة يومًا، فقد تَسَجَّت دماء الصَّحايا خيوطها على أعتاب الدِّيار، حَفَّت ضجيج الدِّيار وتلاشى صُراخ الأطفال، لقد تَبَدَّلَت الأحوال وصار رُقَاق (أترجة) مجرد ذكرى يأملون العودة إليها يومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يُقال على لسان "طولون بن زيدان" أحد مُؤرَّخي العصر الفاطمي، إنه يُرَجَّح أن بقايا ذلك الدَّار المتواجد في أنقاض (الفسطاط) هو دار "غريز بن مالك الكردي"، حيث وُجِدَ بين حُطامه خِنَجَرٌ من النوع الـ (قزيني) ⁵⁷ ، وهو من أنواع الخناجر الكردية، حيث يُرَجَّح أنه الخِنَجَر الذي صَاحَب "غريز" في حياته، وقد استندت غالبية الآراء إلى وجود عائلة واحدة كردية الأصل سكنت رُقَاق (أترجة) بمدينة (الفسطاط)، وهي عائلة "مالك الكردي"، حيث كان غالبية الأكراد يُقيمون بحارة الأكراد والتي كانت تُعرف أيضًا بحارة (البستان) ⁵⁸.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث عشر

ما بعد المَوْت

اقترب الفَجْر ليُعلن عن بَصِيصٍ من الضوء الذي بدأ في إرسال خيوطه الأولى إلى السَّمَاء، لِيبدأ الرّجالُ الثَّلاثَةُ رحلتهم التي لا يعلمون لنهايتها من مَصير، فقط تقودهم الخُطى إلى السَّيْر داخل العديد من الحواري والأزِقَّة الحافلة بالمخاطر، بينما يَهْرَعون من تلك الأهوال بِشِقِّ الأنفس، فقد كان الطريق طويلاً وعَصِيْباً، وَيَضْعُب اجتيازَه في خِصَم وجود العديد من أولئك القَتلة الذين يتربصون بالعباد ليقوموا بذبحهم ليملؤوا بهم حَواء بطونهم، ولكن ما كانوا يدركونه جيِّداً أنهم يخوضون بدايتها في ذلك الوقت، ويجب عليهم أن يُثابروا ويُكابدوا العَناء حتّى يَصلوا إلى مَسْعاهم، لقد كانت بداية مُخَطَّطهم بسيطة للغاية.. فقط عليهم الوصول لَقَصَّاب (القطائع)، ذلك الذي تُعاونهُ الشُّرْطَة العُلوية لإيصال اللحوم البشرية إلى (القاهرة)، فإن أرادوا اللحاق بـ (المصامدة) فعليهم الوصول لتلك المدينة أولاً.

ولكنه طريقٌ عَسِير وسوف يضطرهم ذلك للارتحال أيامٍ عدة، وسيُوصِلون اللَّيْل بالنَّهار دون أن يعرفوا للراحة أو للزاد سبيلاً، حتّى يتمكنوا من اللحاق بـ (المصامدة) قبل أن يتم ذبح أطفالهم، ويصبحون وجباتٍ تُطْرَح على طاولات أثرياء (القاهرة).

ها قد أتى ضوء النَّهار لُشرق الشَّمْس وتغمر الكون بضوئها، رغم أن ذلك لم يَعد كافياً لحمايتهم من هَجَمَات القتلة، لِيَتحرك الثَّلاثَةُ نحو أحدِ الطرقات في حذرٍ منهم، حيث قُتحت أبواب غالبية الديار على مِصراعيها، دون أن يلمحوا

أي أثرٍ للحياة بداخلها، ربما سُلِبَت أرواحهم كما حدث مع غالبية سُكَّان الأَرَقَّة، أو ربما لاذوا بالفرار نَجاةً بأرواحهم فلم يَبْقَ لهم من أَثرٍ، لكن كان ذلك يَشْحَذ من حَذَر "غريـر" ورفاقه أَكْثَر فأكثر، فأخذوا يتحركون على هُدًى من أَمْرهم يَتَلَقَّتون من حولهم بين الفِئَةِ والأُخْرَى استعدادًا لأى عَوْرٍ مُبَاغِت كعادة الأمر وقتئذٍ، وفي أَثناء تَوَعُّلِهِم من وسط الديار المهجورة لإحدى الحوارى لآخ لهم صَوْتُ بكاءٍ مستمر لا ينقطع لطفلٍ صغير، لِيَتَسَلَّح ثلاثتهم بِعَتَادِهِم بينما يترقبون ويخشون ما هو أسوأ، لَتَمُر الثوانى وهم يسرعون الخُطى دون أن يكشف الخطر عن وجهه حتى تلك اللحظة، وبينما يتقدمون في سَيْرِهِم تراءت لهم هيئة الطُّفل من بعيد على امتداد البصر، كان الطُّفل يبكي في حُرْقَةٍ من أَمْرِهِ وهو يطرق باب إحدى الديار من أمامه، فتحرك الجميع في تَوَجُّسٍ من أَمْرِهِم حتى قاربوا مَوْضِعَهُ ببضعة أمتار.

كان "غريـر" لا يشعر بالطمأنينة جَرَّاء العديد من المكائد التى رآها تُحَاق في تلك الآونة الأخيرة، ربما كان هذا الأمر هو ما دَفَعَهُ لِيَمْنَع "بيجاد" من الذهاب للطفل ومعرفة ما قد أصابه، فَعَوَّر تحرك "بيجاد" بِخُطَاه نحو الطُّفل، قبض "غريـر" على يده ليدفعه لداخل إحدى الديار المهجورة.. لِيَدْلِف الثلاثة للاختباء بها.

- "هل جِئْتِ يا رَجُل؟ علينا مُساعدة ذلك الطُّفل على الفور".

أشار "غريـر" نحو "بيجاد" بيده حينها ليلزم الصَّمْتُ وَيَكُف عن حديثه، ثم أَطَلَّ بجانب رأسه للخارج لِيَتَبَيَّن الأمر في حِيْطَةٍ منه، وهو يُشَاهِد بكاء الطُّفل على مَقَرَبَةٍ منهم.

كان الطُّفْل الصَّغِير الذي لم يتجاوز الثماني أعوام يبكي ويَتَنَحَب في حُرْقَةٍ من أَمْرِهِ مُسْتَنِدًّا بجبهته على باب الدَّار من أمامه.

- "أبيي فَلِتَفْتَحِ البابَ أرجوك".

خرجت تلك الكلمات البائسة من الطُّفْل ممتزجة بلُعايِهِ الذي امتلأ به فمه إثر شِدَّة بكائه، ليمسح بيده عينيه مُستمرًّا في نحيبه:

- "أريد أُمي...".

فعاد لِئُرْطِمَ الباب بكِلتا يديه وهو يتطلع بنظره عاليًا نحو مِقْبَضِ البابِ بينما يصيح باكيًا:

- "أُمي، أرجوك.. فَلِتَفْتَحِ لي".

ثم أسند جَبْهَتَهُ على البابِ مجددًا في انكسارٍ ويأسٍ ليواصل النَّحِيبَ.

كان هنالك صَوْتُ يعلو من الداخل مُتضاربًا مع صُراخ الطُّفْل وقتئذٍ، كان ذلك صَوْتُ انهيار الزوجة في البكاء والعويل بينما تتوسل إلى زوجها أن يفتح الباب لطفلهما ويغيثاه مما هو فيه، ليرتفع صياح الرَّجُل في وجهها ناهرًا إياها مُعللاً فِعْلَتَهُ تلك بأنها الحل الوحيد من أمامه، لتنهار الزوجة في البكاء بصورةٍ أكثر حِدَّةً، وتبدأ في الصياح باسم ولدها القابع في الخارج، والخُزن يَخْتَلِج صَدْرَهَا وَيُمَرِّق قلبها إربًا.

حينها عَمَّ الصَّمْتُ بالداخل لثوانٍ، لِيَعْلُو صَوْتُ والد الطِّفْلِ من الداخل موجِّهاً حديثه عاليًا إلى صغيره بالخارج:

- " فَلِئَنصَبَ لِيَّ جِدًّا يَا بُنَيَّ.. إِنَّكَ مَرِيضٌ ⁵⁹ وَعَلَيَّ إِبْعَادُكَ عَنْ إِخْوَتِكَ كَيْ لَا تَنْقُلَ الْعِلَّةَ إِلَيْهِمْ فَيُصَابُوا هُمُ الْآخَرُونَ، فَلْتَرْحَلْ بَعِيدًا عَنِ الدَّارِ وَلَا تَحَاوِلِ الْعُودَةَ إِلَى هُنَا، فَلَنْ تَدْخُلَ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى.. وَلْتَحْتَمِيَ بِإِحْدَى الدِّيارِ الْمجاوِرَةِ، وَسَوْفَ آتِي لَكَ فِي الْقَرِيبِ.. فَقَطِّ ارْحَلْ الْآنَ بَعِيدًا عَنِ الدَّارِ".

اغْتَلَّتْ نَظَرَاتُ الْحُزْنِ وَالْأَسَى وَجْهَ "غَرِيرٍ" مِمَّا آلَتْ إِلَيْهِ الْأَحْوالُ وَمِمَّا يَرَاهُ مِنْ فِظَاعَةٍ حَلَّتْ عَلَى قُلُوبِ كُلِّ مَنْ أَرَادُوا التَّجَاةَ لَهُمْ وَلَأَسْرِهِمْ مِنْ تِلْكَ النِّكْبَةِ، لِيَفِيقَ عَلَى الْفُورِ مِنْ حُزْنِهِ مُنْتَبِهًا حَيْثُ وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِهِ وَقَعَ أَقْدَامُ شَخْصٍ يَقْتَرِبُ، فَتَرَاوَعَ قَلِيلًا بِهَدْوٍ عَنْ مَوْضِعِهِ لِيَتَوَارَى جَانِبًا خَلْفَ مَشْرِيبَةِ الدَّارِ، وَبَسَّطَ النِّظَرَ بِطَرَفِ عَيْنَيْهِ لِيُرَاقِبَ ذَلِكَ الزَّائِرَ الْغَامِضَ الَّذِي ظَهَرَ بَغْتَةً، لَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةٌ نَحِيلَةُ الْجَسَدِ خَرَجَتْ مِنْ إِحْدَى الدِّيارِ الْمجاوِرَةِ وَهِيَ تَتَوَشَّحُ بِالسَّوَادِ بَيْنَمَا تَتَوَارَى مَلَامِحُ وَجْهِهَا أَسْفَلَ الْخَمَارِ الرَّقِيقِ الَّذِي تَرْتَدِيهِ، لَتَذْهَبَ نَحْوَ الطِّفْلِ وَقَدْ بَدَأَ أَنَّهَا سَمِعَتْ حَدِيثَ الرَّجُلِ إِلَيْهِ هِيَ الْأُخْرَى، وَحِينَ وَصَلَتْ نَحْوَ الصَّغِيرِ حَدَثَتْهُ فِي هَدْوٍ لَتَبَّتْ الطَّمَانِينَةَ فِي قَلْبِهِ:

- "لَقَدْ أَنَهَكْتَ عَيْنَيْكَ بِكَائِكَ الْمُفْرِطِ هَذَا يَا بُنَيَّ.. فَلَا تَبْكُ أَبَها الصَّغِيرِ".

ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا إِلَيْهِ لَتَمْسِكَ بِمَعْصَمِ يَدِهِ وَتَجْذِبَهُ تَجَاهَهَا وَهِيَ تَهْمُ بِالتَّحَرُّكِ قَائِلَةً:

- "إِنِّي أَعْلَمُ بِأَنَّكَ جَائِعٌ.. لَدَيَّ مِنَ الطَّعَامِ الْوَفِيرِ لِأَطْعِمَكَ إِيَّاهُ".

تَشَبَّثَ الفتى في مَوْضِعِهِ آبِيًا التحرك.. بينما يبكي وَيَصِيحُ بِخُرْقَةٍ مُنَادِيًا أمه،
لتجذبه المرأة في عنادٍ منها وهي تُكْمِلُ:

- "سوف يأتي والدك قريبًا لاصطحبك.. فليُطِئْني وتأتي معي الآن".

علا صَوْتُ بكاء الطُّفْل ليزداد حَتَقَ المرأة حينها وتذكر أنه لا مفر من القيام
بِفِعْلَيْهَا، فَدَسَّتْ يدها الأخرى في ثوبها لُتُخْرِجَهَا سريعًا وفي حَوَزَتِهَا سِكِّينٌ..
طعناتٌ مُتتالية أصابت صَدْرَ الصغيرِ وسط بكاءٍ وصدمةٍ منه، لَتَقْلِتْ يدها
الأخرى عن يده وتقبض بها على فمه لتكتم صَوْتَهُ وتُكْمِلُ تسديدات سِكِّينِهَا
نحو صَدْرِهِ، لتبدأ الحياة بالانزياح من عينيه البَرِيئَتَيْنِ لَتُكْمِلَ طعناتها المستمرة
حتى تُنَكَّسَ رأسه في استسلامٍ للموت، فأصبح سهل الانقياد والانصياع بين
يديها، حينها جذبتَه المرأة من كَتِفَيْهِ لتقوم بسحب جسده نحو دارها لَتَلَوَّنَ
الأرض بسيلٍ من الدِّمَاءِ صَاحِبِ انزياح قدميه من فوقها.

أدرك "غريز" حينها رهبة المَوْتِ، والتي جعلت الرَّجُلَ يمتنع عن عَوْثِ فَلَدَةٍ
كَبِيدِهِ، بينما يُدرك جيدًا أن مَصِيرَ ولده المحتوم هو المَوْتِ في كل الأحوال،
حتى أنه أدرك مرارة وألم الجُوع اللذَّيْنِ دفعا المرأة لَتَقْتُلَ طفلًا مريضًا لتقوم
بالاقتيات على لحمه المُوْبُوءِ دون أن تعترى همًّا لما سوف يُصيبها بعد ذلك،
فلعلها تأمل أن يخالف القدر ظنونها ويُكْتَبَ لها مواصلة العيش بعد أكل لحمه،
أو لعلها تأمل بأن تُطِيلَ وقت انتظار المَوْتِ لها بضعة أيامٍ أخريات على أن
تموت من التَّصَوُّرِ جوعًا في أي لحظة قادمة.

تراجع "غريز" لينظر نحو رفيقيه اللذَّيْنِ اعتراهما القلق ليحدثهما بنبرة جامدة:

- "لقد لقيَ الطُّفْلُ مَصْرَعَهُ".

ثم تخطاهما ليُكْمِلَ تحرّكه للداخل دون أن يفهما مَقْصِدَهُ، فأطلا بوجهيهما للخارج في تَوَجُّسٍ، ليلمحا أثرًا من الدِّماء ارتسم على الأرض في خطٍّ واحدٍ متجه نحو إحدى الديار التي أُحْكِمَ إِغْلَاقُ بابها.

فتبادلا نظرات خوفٍ ممزوجة بالقلق بين بعضهما البعض، ليتحدث "بيجاد" إلى "غريّر" على الفور:

- "علينا الرّحيل من هنا سريعًا".

حينها أجابه "غريّر" بينما يمر بجانب إحدى الغرف:

- "لا تقلق.. فالوحش القابع بالداخل لديه ما يكفيه لِيَسْكُنَ دَارِهِ لبعض الوقت".

ثم تمهلت حُطًى "غريّر" عند عتبة إحدى الغرف التي عُيِّقَت برائحة الدِّماء الرّفِرة، لينظر بداخلها فيجد ما لا يَسُرُّ العَيْنَ، كان هنالك جُثَّةٌ حديثة العهد لشخصٍ بالغ تتمدد على الأرض، قام القَتْلَةُ بِسَلْخِ اللحم عن ذلك الجسد حتى آخره دون هَوادة أو رحمة، لِيَتَبَقَى من تلك الجُثَّة التي افترشت الأرض من أمامه فقط هيكلها العظمي غارقًا في بِرْكَةٍ من الدِّماء اللزجة التي انسابت من حوله، تحرك "غريّر" نحو الهيكل العظمي ليُحدّق النَّظْرَ به، فلم يَرِ سوى عظام وجهه الذي أنْثَرَ اللحم منه وَنُجِلَتْ شحومه عن بَكَرَةِ أبيها، لتبقى مُقلتا عَيْنَيْهِ الجاحظتان فقط لئُونِسا وحدته وقد لم تبارحا مَوْضِعَهُما.

تحرك الاثنان في أعقاب "غريز" إثر دخوله تلك الغرفة ليُبصرا هما الآخران
قِطاعة ما قد حَلَّ بتلك الجُثَّة، لِيَحْدِثَهما "بيجاد" على الفور بينما يتراجع
بخطواتٍ قَزَعَةٍ للوراء:

- "لن تَمُكُثَ في هذا الرُّقَاق اللعين لحظة واحدة أخرى".

- "لا.. بل سَتَسْكُنُ هذا المكان لِيَضَعَ ساعاتٍ أخرى".

ثم التفت "غريز" نحو الاثنين لِيُكْمِلَ:

- "سوف نعتزم الرّحيل بعد أن ننال قسطًا من الرّاحة، ونُذيق جفوننا القليل
من النوم حتّى نتمكن من مُواصلة الطريق مجددًا حين يأتي اللَّيْل، فبالرغم
من هَول ما لاقيناه إلا أننا لا زلنا في كبد النَّهار، وهذا وقتٌ آمِنٌ للقيام بذلك".

ثم تحرك "غريز" إلى الخارج لِيُوصِدَ مِقْبِضَ الباب ويفترش الأرض من أمامه،
ليجلس رفيقاه هما الآخران وقد انصاعا للمنطق لِيُرْجِحَا رأيَه في نهاية الأمر،
لِيَمُرَ وقتٌ كافٍ لترتاح أبدانهم وعقولهم التي يَعْصِفُ بها التفكير.

عَمَّ السُّكون أرجاء المكان لوقتٍ ليس بالقليل والكل مُنْشَغَلٌ بأمره، كان
"عبد الرازق" يأمل أن يرى قَتَاة الصغير عن قريبٍ وأن يستطيع تَجِدْته قبل أن
يَطُولَه الأذى، لترتسم ابتسامة بسيطة على وجهه الصامت، بينما يحلم باليوم
الذي يجمعه بصغيره ووَلَدَه الآخر بعد انقضاء تلك الأزمة، بينما كان "بيجاد"
يَتَعَقَدُ شَاغِلُهُ في أَمْرَيْنِ لا ثالث لهما، فإما العثور على أخيه ونجدته، وإما
الانتقام له ولكل طِفْلٍ مَفْقُودٍ ذاق المَوْتَ على يد أولئك القَتَلَة.

وعلى خلافهما كان "غريز" يجلس إلى جوارهما ولا يوجد بعقله من شاغل،
مُغمض العينين يستند برأسه إلى الجدار من خلفه، وبجانبه عتاده التي لا
تُبارحه طيلة ترحاله، فتمعن "عبد الرازق" حينها في الخنجر الذي أخرجه
"غريز" ليضعه بجانبه، بينما استقر بجواره عددٌ من جَلَلِ النفطِ التي يحوزها
ولم يرَ أحدٌ منهما مثلها من قبل.

- "من أين لك بتلك الأشياء؟".

خرج ذلك التساؤل من بين شَفَتَيَّ "عبد الرازق" وعيناه لا تُبارحان مَوْضِعَ عَتَادِ
الرَّجُلِ، لِيُجيبه "غريز" دون النظر إليه:

- "تلك الأشياء؟! أَتَقْصِدُ جَلَلِ النفطِ هذه؟".

أوماً "عبد الرازق" برأسه وهو يُكمل:

- "لقد سمعت القليل عنها منذ زمنٍ طويل.. إنها تعود لعتاد رجال الجيش، من
أين أَتَيْتَ بها؟".

فابتسم "غريز" وهو يُجيبه مجدداً:

- "لربما أَعَزْتُ على أحد سَكَنَاتِ الجيش المهجورة وسرقت عَتَادَهَا.. ولربما
عَثَرْتُ عليها بين أنقاض إحدى الديار التي لَدَّ منها ساكنيها.. وربما قَتَلْتُ
أَحَدَهُما للوصول إليها وحيَارَتِهَا".

ثم أكمل وقد عَلَتْ شَفَتَاهُ ابتسامة سخرية:

- "ولكنك لن تعرف الحقيقة أبدًا ⁶⁰".

تبادل كلُّ من "عبد الرازق" و"بيجاد" نظرات التَّعجب فيما بينهما مما سمعاه لِتَوَهُّيهما، لِيُحَدِّث الأخير "غريّر":

- "لا زال الغموض يَكْتَنِفُكَ ويُمَثِّلُكَ دائمًا يا غريّر بن مالك".

كان "غريّر" ينظر نحوهما حينها كعادته بنظراتٍ خاوية لا تحمل أي تعابير، تَنْطَلِي من أسفل غِطاء رأسه الذي لا يُبارحه، فأكمل "بيجاد" حديثه نحوه في عَجَبٍ منه:

- "لقد أُغْلِق علينا باب هذه الدَّار، فلا داعي لِتَحَقُّيكَ واستمرارك في تَتَكُّرك الدائم هذا؟".

حينها أطلال "غريّر" النظر نحوه وقد اعتراه الغضب لِجِيبه:

- "الْتَتَكُّر هو من شأن القَتلة واللصوص ⁶¹. أولئك من يَتَوَارون خلف عِباءاتهم وملابسهم الخادعة، ويَتَوَارِئ معها مَسْعاهم الخبيث الذي يَسْكُن أنفُسَهُمْ.. أما أنا.. فإنني أتخفى أسفل عِباءتي حتى أتَحَاشِ نظراتكم وأحكامكم اللعينة لي".

ثم شَرَعَ سريَّعًا في توجيه الحديث لهما محاولاً لَجْم غضبه:

- "يجب علينا جميعًا أن ننال النوم ونملاً جفوننا به حتى نكون في يقظةٍ من أَمْرنا حين نُعاود استكمال الطريق.. ولهذا فسوف تَتَنَاقَب مَوْضِع الحراسة،

فيغفو اثنان منا بينما يستيقظ ثالثنا ليحرس مَوْضِعَ نومنا، لَتَنْقَلِبَ الأدوار بعد ذلك".

ثم نظر إلى رفيقيه وهو يسألهما:

- "من منكما لديه القدرة على القيام بالمناوبة الأولى؟".

حينها أوماً "بيجاد" على الفور مُشِيرًا بيده لَيْنَالِ تَوْبَةِ الحراسة الأولى، فأعدل "غريز" من مَوْضِعِهِ دون أن يَنْبِسَ بِشَيْءٍ مُؤَلِّيًا جانب رأسه نحو الجدار ليضع عَتَادَهُ فِي كَنَفِهِ، لِيُغْمِضَ عَيْنَيْهِ فِي سَكِينَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، لِيَحْذُو حَذْوَهُ "عبد الرازق" فِي مَحَاوِلَةٍ مِنْهُ لِيُعْطِيَ النَوْمَ، بينما جلس "بيجاد" فِي مَوْضِعِهِ بِذَهْنٍ يَقِظٍ وَعَيْنَيْنِ مُتَسِعَتَيْنِ فِي شُرُودٍ، بينما بدأ ذهنه يَعِصِفُ بِذَكْرِيَاتِهِ الْأَلِيْمَةِ لِيُرحبَ عقله مجدداً برفيقه ومُؤَنَسَ عقله الوحيد... الجنون.

مر الوقت المطلوب ليتبادل كل واحدٍ منهم مَوْضِعَ غيره، فَتُعْلَقُ الجفون لتحرسها أخرى ويرتاح العقل قليلاً من صِراعاته، لِيَسْتَعِدَّ الْجَمْعُ لِأَهْبَةِ التَّرحال مجدداً بعيداً عن هذا الرُّقَاق المشؤوم بالقتل والوباء، ولكن لم يكن يعلم أحدهما بشأن الأمر الذي سوف يَقْصِحُ عنه "غريز" حينذاك، الأمر الذي لربما كان المَوْتُ أَهْوَنُ لَدَى البعض منهم عن فِعْلِهِ.

نهض "غريز" من مَجْلِسِهِ حينئِذٍ لِيَلْفِظَ بِعُصَارَةِ فِكْرِهِ وهو يحدثهما:

- "سوف نُكْمِلُ الطريق دون هَوَادَةٍ مُسْتَمِرِّينَ فِي مَسْعَانَا أَمَلًا فِي النَّجَاةِ، لا أحد يعلم كم من الأهوال التي سوف نلاقها سوى المولى، ولهذا فعلينا أن نكون على أَهْبَةِ الاستعداد لأي قتالٍ بعقولٍ يَقِظَةٍ وَأَبْدَانٍ قَادِرَةٍ".

ثم صَمَتَ لثوانٍ وهو ينظر نحو رفيقيه ليُكْمِلَ حديثه بعد ذلك قائلاً:

- "منذ متى ذاق جَوْفَيْكُما فيها طَعْمُ الزاد؟".

تبادل الآخران النظر إلى بعضيهما في حيرةٍ من أمرهما، ليُجيبه "بيجاد" حينها:

- "لا يوجد لدينا أي زادٍ منذ وقتٍ مَضَى.. ماذا عنك؟".

فابتسم "غريز" في سخريةٍ منه:

- "إن حالي لا يختلف كثيرًا عن حالكما".

صَمَتَ الاثنان في تَعَجُّبٍ من حديث "غريز"، ليتحرك "غريز" مُبتعدًا عنهما مُتوغلًا لداخل الدَّار وهو يُكْمِلُ:

- "إن أَرَدْنَا البقاء على قَيْدِ الحياة، فيجب علينا أن نُطْعِمَ أجوافنا الزَّاد قبل أن نَعْتَزِمَ الرحيل".

ثم تَوَقَّفَ حينها مُوجِّهًا نظره نحو الغرفة التي يَسْكُنُ بها الهيكل العظمي لِيَلْتَفِتَ نحوهما دون حديثٍ منه، فتحرك الاثنان تجاهه لينظرا نحو العظام الدامية وقد أدركا مَقْصِدَه، فتراجع "بيجاد" في فزعٍ منه وهو يجيبه:

- "هل جُنِنْتَ؟ أنا لن أُقْدِمَ على أكل لحوم المَوْتَى ما حَيِّتُ، فالمَوْتُ أَهْوَنُ لديّ من فِعْلة كهذه".

فأجابه "غريز" بنبرةٍ هادئة:

- "نحن لا نعلم متى يمكننا أن نحصل على فرصة تالية لتتقوّت أبداننا قبل أن يُغافلنا المَوْتُ جوعًا، أو تَوْهَّن أجسادنا فلا نقوى على رَدِّعِ الخطر عنا من أمر".

ثم صمت لثوانٍ قبل أن يُكْمِل وهو يُشير نحو القتل:

- "إنها الفرصة الوحيدة إن أردتما العَيْش والقتال لرؤية أحبائكما مرة أخرى".

عَلَا الجمود وجه "بيجاد" حينها وهو في حيرةٍ من أمرِه ولا يدري ما يجب عليه فِعْلُه، فكان عقله يُدين قَدَمَيْه قبل أن تخطو لئُساعداه على التقدم أكثر نحو الغرفة، لينظر لـ "عبد الرازق" الذي وقف ساكنًا في مَوْضِعِهِ منذ حديث "غريّر" لهما، لِيَلْتَفِت نحو "بيجاد" حينها وهو يَتَقَدَّم بِخُطَاهُ للداخل.

وقف "عبد الرازق" قليلًا بجوار عِظام القتل ثم افترش الأرض من جِوار عِظام القَدَم، لينظر نحو "بيجاد" بَعِيْثَيْنِ تُجْثَانِهِ لَكِي يَحْذُو حَذْوَهُ، قَدَلَفَ "بيجاد" حينها هو الآخر إلى داخل الغرفة بخطواتٍ مُتَأَنِيَةٍ، ليقف بجوار عِظام كَتِفِ القتل مُحدِّقًا بنظراتٍ مُتَرَدِّدة وهو يتأملُه من أمامِه، لِيُبْعِدَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ عَنِ مَوْطِئِهَا وقد طالتُها بعضُ من الدِّماء المُتَجَلِّطَةِ، ثم أغمض عَيْنَيْهِ كي تهدأ الأنفاس المُتصاعدة من صَدْرِهِ ليتحرك جانبًا ويجلس من جِوار منطقة الصَّدْر.

أخذ "غريّر" يُراقب في صَمْتٍ مِنْهُ نظراتِ الاثنتين المُتَرَدِّدَةِ إلى بعضِهما البعض، في انتظار أن يُشرعا في الاقتيات على الجسد الراقِد من أمامهما، وهنا بادَر "عبد الرازق" بالأمر لِيُمرر نظره نحو عِظام السَّاق بحثًا عن أي دُھون أو بقايا لَحْمٍ عالقة في إِحْدَى عِظَامِهَا، وهنا أمسك بِرُكْبَةِ القتل ليرفعها

قليلاً لِيُقَارِبَهَا مِنْ يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ لَطَخَتْهُمَا حُمْرَةُ الدِّمَاءِ، لِيُطَبِّقَ بِأَسْنَانِهِ عَلَى غَضَارِيفِهَا وَيَبْدَأَ فِي قَرْضِهَا عَلَى الْفُورِ فِي تَهَمٍ، دُونَ أَنْ يَعْتَرِيهِ شَأْنٌ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَقُومُ فِيهَا بِتَنَاوُلِ لَحْمٍ آدَمِيٍّ، فَنَظَرَ لَهُ "بِيَجَاد" وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَقْلِهِ شَتَاةً مَا هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ.

لَيَمْدُ يَدَيْهِ فِي تَقَرُّزٍ مِنْهُ، بَيْنَمَا تَكَادُ دُمُوعُهُ أَنْ تَتَهَمَّرَ مِنْ مُقْلَتَيْهِ، فَيُضْمِسُ بِقِصْبَةِ الذِّرَاعِ وَقَدْ التَّصَّقَ بِهَا بَعْضُ مِنْ بَقَايَا اللَّحْمِ الْمَنْحُولِ سَابِقًا، لِيَقْتَرِبَ بِرَأْسِهِ نَحْوَهَا بِبَطْءٍ لِيَفْتَحَ فَاهُ وَيَجِرَ بِأَسْنَانِهِ عَلَى قِصْبَةِ الذِّرَاعِ، وَمَا أَنْ لَامَسَتْ تِلْكَ الْقِطْعَةُ اللَّيْنَةَ أَسْنَانَهُ وَتَذَوَّقَهَا لِسَانَهُ حَتَّى عَجَزَ عَقْلُهُ عَنْ تَحْمُلِ هَؤُلَاءِ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَمْرٍ، لِيَرْمِيَ بِهَا عَلَى الْفُورِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَبْتَعدَ سَرِيعًا عَنِ الذِّرَاعِ وَيَنْكَفِئَ جَانِبًا لِيَتَّقِيَ مَا لَمْ تَفِضْ بِهِ مِعْدَتُهُ الْفَارِغَةُ، لَتَنْدَفِعَ أَمْعَاؤُهُ رُغْمًا عَنْهُ بَعْصَارَتِهَا لِلخَارِجِ وَتَتَسَاقَطَ عَلَى الْأَرْضِ.

لَقَدْ بَغَضَ عَقْلُهُ الْأَمْرَ وَتَقَرَّرَ مِنْهُ، وَلَكِنْ فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، لَقَدْ بَغَضَ نَفْسَهُ أَيْضًا لِمَا آلَ إِلَيْهِ مِنْ حَالٍ، مَجْرَدُ شَخْصٍ ضَعِيفٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى فِعْلَةٍ بَاتَتْ أَمْرًا مَعْتَادًا لَدَى الْكَثِيرِ، بَلْ أَصْبَحَتْ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُ وَلِرَفِيقِيهِ كَيْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ مُوَاصَلَةِ مَسْعَاهُمْ، وَهَذَا أَطْبَقَ "بِيَجَاد" عَيْنِيَّهِ بِشِدَّةٍ لِيُوقِفَ عَقْلُهُ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي فِطَاعَةِ الْأَمْرِ، لِيَنْدَفِعَ مَرَّةً أُخْرَى نَحْوَ الذِّرَاعِ مِنْ أَمَامِهِ وَيَقْبِضَ عَلَيْهَا بَيْنَ فَكِّهِ يَمْتَصُّ أَيَّ عُصَارَةٍ لَيِّنَةٍ يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا دُونَ تَوَقُّفٍ أَوْ تَفَكِيرٍ، فَامْتَلَأَ صَدْرُهُ حِينَهَا بِالْهَوَاءِ لِيَتَنَاصَرَ أَمْعَاؤُهُ فِي حَرَكَتِهَا مُعْلَنَةً عِصْيَانِهَا مُقَدِّمَةً عَلَى التَّقْيُوءِ مَرَّةً أُخْرَى، لَتَهْدَأَ بَعْدَ ذَلِكَ بِشَوَانٍ وَتَنْصَاعَ لِأَمْرِ صَاحِبِهَا وَتَقْبَلَ مُرَحَّبَةً بِمَا لَمْ تَذُوقْهُ يَوْمًا.

وَقَفَ "غَرِير" عِنْدَ مَدْخَلِ الْغُرْفَةِ يُرَاقِبُ مِنْ ثَنَائِيَا عِبَادَةِ رَأْسِهِ رَفِيقِيهِ وَهُمَا يَقْتَاتَانِ عَلَى مَا قَدْ عَلِقَ بِعِظَامِ ذَلِكَ الْقَتِيلِ الْغَارِقِ فِي دِمَائِهِ، لَتَنْقُضِي الدَّقَائِقُ

وقد استكملا ما شَرَعَ به أَحَدُهُم من قبلهما، لقد قاما بتخليص ذلك العَظْم من أي عالقة بَقِيَتْ به، ليرفع "بيجاد" رأسه بعد ذلك وهو يمسح بيده لزوجته الدِّماء المتجلطة التي لطخت فمه، لينهض من جَثْوَتِهِ مُنَكِّسَ النظر نحو مَوْطِيٍّ قَدَمَيْهِ في حزن، وقد رحل عنه ما قد تَبَقَّى من آدَمِيَّتِهِ، لينهض "عبد الرازق" هو الآخر بعد ذلك وهو يلعن الحظ الذي لم يُسَفِّر عن زادٍ كافٍ يُسْكِن آلامه، فما عَلَقَ في ذلك الجسد الميت لم يَسِدْ رَمَقَهُ أو يُشبع جوعَهُ، ليقف الاثنان ويتقربان ليجاورا مَوْضِعَ "غريّر"، حينها تحرك "غريّر" مُبتعدًا عنهما لخارج الغرفة قاصِدًا باب الدَّار ليرفع من مَوْصِدِهِ عاليًا وهو يحدثهما في هدوء:

- "لقد حان وقت ابتعادنا عن هذا المكان".

نظر له "بيجاد" في دهشةٍ من أمره وقد تقدم نحوه ليحدثه:

- "هل سوف ترحل فارغ الجَوْف؟".

أجابه "غريّر" حينها في سخريةٍ منه وهو يدفع الباب من أمامه مُعتزم الرحيل:

- "صدقني لقد وَدَدْتُ ذلك، ولكنكما لم تُخَلِّفا شيئًا لي لأتناوله".

ثم خرج من الدَّار وهو يرفع رأسه نحو سماء الصَّبَاح التي أَوْشَكَت على الوداع وهو يُكْمِل حديثه:

- "فليَتَّهِمَ بِمُعَاوَدَةِ التَّرحال سَريعًا".

تحرك الاثنان من خلفٍ منه ليتبعاه للخارج والحيرة تساورهما تجاه هذا
الأشيب، تُرى هل ما منعه حقًا من اللحاق بهما وتناول ذلك اللحم مثلما فَعَلَا،
هو شِدَّة جوعٍهما فترك لهما ما عَلَقَ بذلك الجسد لِيَقْتَاتَا عليه كي يستطيعا
مواصلة ترحالهما، أم تُرى أنه أراد فقط رؤيتهما على تلك الحالة وكَوْنهما قد
أصبحا مثل البَقِيَّة، تُرى هل أراد أن يُوقِع بـ "بيجاد" الذي كان دائم الرفض في
أن يقوم بتلك الفِعلَة، أم أنه لم يَسْتَطِع الاقتراب من ذلك اللحم وأبى أن يصير
مثلهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضة

كان ضِيقُ مَجْلِسِه يقبض على صَدْرِهِ ويصيبه بالخَوْف، فلم تَمُضْ دقائق قليلة
على دلوّفه إلى إحدى الجِرَار المَنصوبة على جانبِي الجَمَل، وقد عُطِيتْ قُوّه
الجَرَّة بقطعةٍ من القُماش الخفيف لُتخفي ظلال القمر من فوقها، ولكن على
الرغم من ذلك شعر الطُّفْل الصغير بالاختناق والضيق من الظلام الذي أحاط
به فلم يحتمل الأمر كثيرًا، لَتَهَيَّجَ نفسه ويجهش بالبكاء فَيَطول بيده قطعة
القُماش ويدفعها للخارج مُحاولًا الخروج هو الآخر.

أحاط حينئذٍ أحدهم بإبطي الطُّفْل لِيُخْرِجَه سريعًا ويقف من جواره، حينها
ابتسم الرَّجُل له وهو يسأله:

- "ما اسمك أيها الصغير؟".

فرك الطُّفْل أحد جفنيه وهو يُنهنه مُجيبًا:

- "عُدِّي"

ثم نظر مَلِيًّا للرجل الذي أَطَلَّ نحوه ليسأله:

- وما اسمك أنت؟".

فأجابه الرَّجُل وهو يُشير إلى صَدْرِهِ:

- "إنني شخصٌ سوف يحرص على أن تصل آمناً إلى وجهتك التالية".

ثم أكمل الرَّجُل ابتسامته نحو الطُّفْل النَّاجِب وهو يحدثه:

- "ما الذي يُبكيك؟".

- "إنني أخشى الجلوس في الظلام".

ثم عاد لِيُكْمِلَ سريعًا وقد ملأ السُّعال صَدْرَهُ:

- "كما أنني جائع".

ضحك الرَّجُل من حديث الطُّفْل له فاقْتَرَب من وجهه لِيُجِيبه، ولكن لاحظ حينها على وجهه علامات القلق فور إدراكه لما يُحِيط بِدَقْنِ الطُّفْل من تناثرٍ لبعض البثور⁶². وقد أكملت استيطانها لوجهه وصولاً لشفاه السُّفلى، والتي لم يكن انعكاس ضوء القمر يكفي لتبينها إلا عن قُرَابَةٍ منه وقد كان، فباعد الرَّجُل رأسه على الفور عن أنفاس الطُّفْل ليتحرك بخطى قليلة للوراء وهو يسأله في قَلَقٍ:

- "هل أنت مريض أيها الصغير؟".

فأجابه "عُدِّي" مُؤمئ الرأس له:

- لا أشعر أنني بخير".

حينها أطل الرَّجُل النظر نحو "عُدِّي" مُتملِّيًا في قراره، لتمر ثوانٍ بعد ذلك ويُنادي الرَّجُل على أحد الحراس فيَهْرَع للقدوم نحوه سريعًا.

- "فلتأتي ببعض الزاد على الفور".

تحرك الأخير نحو أحد الجمال ليعود سريعًا مُجيبًا لما طلبه منه، حينها أشار الرَّجُل نحو "عُدِّي" وهو يحدث الحارس:

- "فلتضع الطعام في جَرَّة هذا الصغير، ولا تُغلق قُوَّهَتَهَا إلا للضرورة كي يُبصر ضوء القمر وتهداً له نفسه".

ثم أطل بابتسامة نحو الطِّفْل لِيَلْتَفِت مجددًا نحو الحارس بينما يُكْمَل:

- " تذكر هذا الطِّفْل جيدًا... فإن "عُدِّي" مريض... فاحرص على أن يصل أولاً دون غيره إلى الأمان، وأن يتم الاعتناء به حتى لا يَتَمَلَّكهُ المرض".

أومأ الحارس له مُوافقًا، لِيَحِلَّ من عِمَامَةِ رأسه ويُفِجَ بها وجهه، لِيُمسِكَ بالطِّفْل بعد ذلك والذي هدا رَوْعُهُ من حديث الرَّجُل، لِيُعِيده داخل الجَرَّة مرة أخرى، لِيَجْلِس الطِّفْل بالداخل ويتنامى إلى مسامِعه حديث الرَّجُل له مرة أخيرة قبل أن تعاود القافلة الرحيل:

- "الوداع يا "عُدِّي".. آمل أن أراك عما قريب مرةً أخرى أيها الصغير".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأربعة عشر أصحاب النفير

بَاتَتْ (الفسطاط) مَرْتَعًا لِلْقَتْلَةِ وَالسَّفَاحِينَ، فَأَصْبَحَ الْجَمِيعُ يَسْتَبِيحُ لَحْمَ أَخِيهِ الْحَيِّ مِنْهُ وَالْمَيِّتِ، فَصَارَ طَوُّقُ النَّجَاةِ الْوَحِيدِ هُوَ الْقَتْلُ دُونَ خِيَارٍ آخَرَ، لَقَدْ رَحَلَ عَنِ الْحَيَاةِ الْمُتَعَقُّونَ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ، لِيَبْقَى تَهَشَّةُ لَحْمِ الْبَشَرِ وَمُسْتَبِيحِيهِ فَقَطْ لِيُعِثُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، لِيُحِيقَ الْخَطَرُ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ وَصَوَّبَ عَلَى الْعِبَادِ، فِيمَا أَنْ تُقْتَلَ أَوْ تُقْتَلَ، فَكَذَلِكَ كَانَتْ سُنَّةُ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْحَقَبَةِ الْبَائِرَةِ مِنَ الزَّمَنِ.

مَضَى يَوْمٌ آخَرَ بَيْنَمَا يَتَحَرَّكُ كُلُّ مَنْ الرَّفَاقِ الثَّلَاثَةِ إِلَى مَسْعَاهُمْ دُونَ هَوَادَةٍ مِنْهُمْ، لَتَمُرَّ سَاعَاتُهُ الْبَطِيئَةُ فِي مُحَاوَلَاتٍ عِدَّةٍ لِلنَّجَاةِ وَالْوُصُولِ إِلَى نِهَايَةِ رَحْلَتِهِمْ دُونَ تَوَقُّفٍ، مُتَخَطِّينَ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَوَارِيِّ وَالْأَزَقَّةِ الْخَاوِيَةِ الَّتِي تُبْنَى بِالْمَوْتِ فَيَعْزِفُونَ عَنْ اقْتِحَامِهَا، بَيْنَمَا يَمْرُونَ بِأُخْرَى فَيَسْتَشْعِرُونَ الْخَطَرَ الْكَائِنَ بِهَا فَيَزْخُلُونَ سَرِيعًا مُبْتَعِدِينَ عَنْهَا، حَتَّى لَاحَ لَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ فِي دَاخِلِ أَحَدِ الْأَزَقَّةِ بَيْنَمَا كَانُوا عَلَى وَشْكِ الدِّلُوفِ إِلَيْهَا، مَرُورَ بَعْضِ الرِّجَالِ الْمُدَجَّجِينَ بِالْأَسْلِحَةِ، يَبْدُو عَلَيْهِمْ حَالَةٌ شَدِيدَةٌ مِنَ الْوَهَنِ وَالْجُوعِ الْقَارِسِ الَّذِينَ تَمَلَّكَ مِنْهُمْ، يَنْتَشِرُونَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الرُّقَاقِ يَقْتَحِمُونَ أَبْوَابَهَا بَحْثًا عَنْ أَيِّ حَيَاةٍ بِدَاخِلِ تِلْكَ الدِّيارِ الْخَاوِيَةِ مِنْ أَهْلِهَا، لِيَجُورُوا عَلَيْهَا وَيَسْتَبِيحُوا دِمَاءَ أَصْحَابِهَا وَيَنْجُونَ بِأَرْوَاحِهِمُ الْهَالِكَةِ.

لَيَقِفُ "بِيَجَاد" سَاكِنًا دُونَ حَرَائِكِ بَجْوَارِ رَفِيقِيهِ يُرَاقِبُونَ مَسْعَى الرِّجَالِ فِي صَمْتٍ، كَانَ الرِّجَالُ يَلُوحُّ عَلَى وَجُوهِهِمْ حَيَبَةُ الْأَمَلِ وَالْيَأْسِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَفْشَلُ

مَسَعَاهُمْ فِي الْعَثُورِ عَلَى أَحَدٍ سَاكِنِي تِلْكَ الدِّيارِ، لِيَقِفَ الرِّجَالُ مُجْتَمِعِينَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ يَتَهَامِسُونَ فِي أَمْرِهِمْ، لَقَدْ كَانَتْ مَرَارَةُ الْجُوعِ تَظْهَرُ عَلَى بَنِيَّتِهِمُ الضَّعِيفَةِ وَقَدْ بَرَزَتْ عِظَامُهُمْ وَانْحَنَتْ طُهُورُهُمْ، وَجُوهُهُمْ هَزِيلَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ تَحِيلَةٌ تُنْذِرُ بِالْمَوْتِ الْقَرِيبِ إِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُهُمْ حَلًّا لِإِبْعَادِهِ عَنْ أَرْوَاحِهِمُ الْبَائِسَةِ.

وَبَعْدَ حَدِيثٍ مُطَوَّلٍ مَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ لِدَقَائِقٍ، كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى التَّرْحَالِ مَجْدِدًا لِلْبَحْثِ عَنْ ضَالَّتِهِمْ فِي مَكَانٍ آخَرَ، لِيَتَحَرَّكَ الْجَمْعُ بِضَعِ خَطَوَاتٍ فِي بَطْءٍ مِنْهُمْ، قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ أَحَدُهُمْ عَلَى قَرَارٍ مِنْ شَأْنِهِ إِغَاثَةِ الْجَمِيعِ.. الْجَمِيعِ عِدَا رَفِيقِهِمُ الَّذِي كَانَ يَتَحَرَّكُ مُتَقَدِّمًا إِيَّاهُمْ.

- "فَلْتَغْفِرْ لِي يَا صَدِيقِي".

أَتَتْ كَلِمَاتُ الرَّجُلِ بَيْنَمَا يَغْرِزُ سِكِّينَهُ فِي ظَهْرِ رَفِيقِهِ مِنْ أَمَامِهِ لِيَطْعَنَهُ طَعْنَتَيْنِ قَوْبَتَيْنِ مُتَتَالِيَتَيْنِ، لَتَجَحَّطَ عَيْنَا الْآخِرِ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ وَهَوْلِ الْمَفْاجَأَةِ، لِيَلْتَفِتَ نَحْوَهُمْ عَلَى الْفُورِ بِجَسَدٍ يَتَرَنِّجُ مِنَ الْأَلَمِ وَعَقْلٍ أَدْرَكَ مَرَارَةَ الْغَدْرِ لَتَوَهُ، لِيَقِفَ الْبَقِيَّةُ يَنْظُرُونَ نَحْوَ رَفِيقِهِمْ صَاحِبِ الطَّعْنَةِ الْآخِرَةِ، لِيَتَبَادَلُوا النُّظَرَاتِ سَرِيعًا فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَقَدْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنْ مَعَاتِبَةِ الْآخِرِ عَمَّا قَامَ بِهِ لَلتَوِ، لِيُذْفَنَ دَهْشَةُ عَقُولِهِمْ تَحْتَ رِكَامِ الْجُوعِ وَقَدْ حَانَتْ فُرْصَةُ آخِرُهُ لِإِسْكَاتِ صُرَاخِ مَطْلَبِهِ.

التَفَ الْبَقِيَّةُ لِيُحِيطُوا بِالرَّجُلِ الْجَرِيحِ الَّذِي يُنَازِعُ الْمَوْتَ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَقَدْ أَيْقَنُوا أَنَّهُ بَاتَ الْفُرْصَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أُتِيحتَ لَهُمْ الْآنَ لِلنَّجَاةِ، أَخَذَ الرَّجُلُ يَتَرَنِّجُ فِي حُطَّاهُ وَهُوَ يَجُولُ النَّظَرَ نَحْوَ رَفَاقِهِ وَقَدْ اعْتَرَاهُ الْخَوْفُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَدْرَكَ

نواياهم، فَشَرَعَ يُطِيح بِسِكِّينِهِ فِي وُجُوهِهِمْ أَمْلًا فِي الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَهَا تَكَالَبُوا عَلَيْهِ كَالصَّبَاحِ يَسْتُونُ طَعَنَاتِهِمْ فِي جَسَدِهِ الْمُرْتَعِدِ، حَتَّى حَرَّ سَاجِدًا غَارِقًا فِي دِمَائِهِ، لِيَجْتُوا رِفَاقَهُ نَحْوَهُ عَلَى الْفُورِ يَنْهَشُونَ بِنِصَالِهِمْ فِي جَسَدِهِ، يَقُومُونَ بِتَقْطِيعِ نَسَائِرٍ مِنْ لَحْمِهِ يَمْلَأُونَ بِهَا أَجْوَاهَهُمِ الْمَشْتَاقَةَ بَيْنَمَا مَا زَالَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ وَلَمْ يَفَارِقْهَا بَعْدَ، كَانَ رَأْسُ الْأَخِيرِ يَمِيلُ جَانِبًا فِي بَطْنِ مَفْتَرَشِ الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِهِ، وَعَيْنَاهُ تَشْرُدَانِ فِي مَوْتِهِ الْوَشِيكِ، ثُمَّ انْتَفَضَ صَدْرُهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ، لِيَلْفِظَ أَنْفَاسًا مُتَبَاعِدَةً تُودِعُهُ الْوَدَاعُ الْأَخِيرَ.

نَظَرَ الرَّفَاقُ الثَّلَاثَةَ مِنْ بَعِيدٍ نَحْوَ جَرِيْمَةِ الْقَتْلِ الْبَشِيعَةِ مِنْ أَمَامِهِمْ، لِيَسْتَفِيقُوا مِنْ سُرُودِهِمْ عَلَى صَوْتِ "غَرِيرٍ" وَهُوَ يَتَحَدَّثُ فِي صِرَاطٍ مِنْ أَمْرِهِ:

- " لِنَتَحَرَّكَ سَرِيعًا، فَقَدْ أَصَعْنَا الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ بِالْفَعْلِ".

عَاوَدَ الرَّفَاقُ التَّحَرَّكَ مَجْدِدًا لِبَعْضِ الْوَقْتِ، لِيَعْبُرُوا مِنْ أَحَدِ الْأَرْقَةِ فِي هَدْوٍ يَشُوْبُهُ الْقَلَقُ، ذَلِكَ الرَّفَاقُ الَّذِي يُطَلِّقُ عَلَيْهِ رُفَاقُ (البَاقِيلِ)، وَتَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ الْعَتَمِ عَادَ الشُّعُورُ بِالْجُوعِ لِيُهَاجِمَ "عَبْدَ الرَّازِقِ" ضَارِبًا بِخَوَاءٍ مَعْدَتَهُ مُصَاحِبًا لِأَلَمٍ ثَقِيلٍ، فَلَمْ تَكُنِ الْجُنَّةُ فِي تِلْكَ الدَّارِ تَكْفِي لِيَتَقَوَّتَ بِهَا وَتُعِينَهُ عَلَى مَشَقَّةِ رَحْلَتِهِمْ، فَشَرَدَ ذَهْنُ "عَبْدِ الرَّازِقِ" فِيمَا قَدْ رَأَاهُ مِنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ مِنْ غَدْرِ الرَّفَاقِ لَصَدِيقِهِمْ، أَمْلًا أَلَّا يُجِيرَ الْقَدَرُ رَفِيقِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ هُمَا الْآخِرَانِ لِيُكْتَبَ لَهُمَا النِّجَاةُ وَقَدْ تَسْتَدْعِي الْحَاجَةَ لِذَلِكَ، لِيَنْفِضَ الْفِكْرَ عَنْ شَاغِلِهِ وَيَنْظُرَ لِلطَّرِيقِ مِنْ أَمَامِهِ، لِيَجِدَ نَفْسَهُ حَيْنِئِذٍ فِي الْمَقْدَمَةِ وَمِنْ وَرَائِهِ "غَرِيرٌ" بَيْنَمَا يَتَّبِعُهُمَا "بِيَجَادٌ" فِي مُؤَخَّرَةِ سَيْرِهِمْ، لِيَمُرَّ وَقْتُ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ، عَلَى تَقْدَمِهِمْ، فَيَنْظُرُ "عَبْدَ الرَّازِقِ" لـ "غَرِيرٍ" مِنْ خَلْفِهِ فِي تَوَجُّسٍ، لِيَتَمَهَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَقْدَمِهِ حَتَّى تَسْتَحِ الْفُرْصَةُ لِيَتَخَطَّاهُ كُلُّ مِنْ "غَرِيرٍ، وَبِيَجَادٍ" وَيَصْبِحَ هُوَ فِي نَهَايَةِ

الرفقة وهم يكملون الطريق من أمامهم، حينها توجه "بيجاد" بِحَدِيثِهِ إِلَى "عبد الرازق" دون الالتفات إليه في سخرية منه:

- "هل تخشى على نفسك منا؟".

تَرَدَّد "عبد الرازق" في الإجابة حينها:

- "إن "غريز" أكثر دراية بالطريق ونحن أولى باتباعه.. كما أنني الحلقة الضعيفة بعَجْزِي هذا، لذلك فمن الأفضل أن أتبع نهاية الرِفْقَة".

لم يُبالِ الآخرون بتبريره لِفَعْلَتِهِ تِلْكَ، واستمروا في شَقِّ طريقهم في صَمْتٍ حَذِرٍ مما قد يواجهون من فِخَاخ فيقعون بها دون علمٍ منهم، فكان ذلك الرُّقَاق الذي يعبرون منه للتو يغمره الظلام الدامس، فلم يتمكن أحدهم أن يميز محتوى الأرض من أسفلهم، لتلتقط أذنا "عبد الرازق" أنينًا ينبعث من باطن الأرض حيثما تدق حُطَاه، لتتعرَّ قدمه في قطعة خشبية مُلقاة أرضًا دون أن ينتبه إليها، ليجد يدًا تخرج من أسفل الأرض وتَسَبَّثَ به لِتَسَحَبَهُ إِلَى جَوْفِهَا، وكأن الأرض قد انشقت لتبتلعه.

لم يكن لديهم أي فِكْرَة حينئذٍ عن وجود رجالٍ يسكنون ما يُشَبِّه الخنادق التي تم حفرها في باطن الأرض في ذلك الرُّقَاق، ووُضِعَ من فوقها ألواحٌ من خشبٍ رقيق مدفون تحت ترابها، يتربص ساكنوها ليلاً بداخلها مُتَنَظِّرين وقوع إحدى الفرائس ليسحبوها إلى حُفَرِ الهلاك التي يسكنوها ليزيقوها المَوْتُ ⁶³.

لِيَلْتَفِتِ الآخرون سريعًا لِمَوْضِعِ صُراخ "عبد الرازق" فور سقوطه بينما يحاول باستماتة أن يُباعد بيده الواهنة قبضة رجل يجثو فوقه مُحاولًا تمرير سِكِّينِهِ

لِيَنْقَذَ بَصْدَرَهُ، حِينَئِذٍ وَتَبَّ "بيجاد" سريَّعًا للأسفل نحو "عبد الرازق" لِيُجِدَّته فأخذ يضرب ظهر الرَّجُل بسيفه مراتٍ عدة، فَتَهَاوَى الرَّجُل جانبًا يُنَارِعُ الألم، بينما أطلال "غرير" يده نحو "عبد الرازق" لِيُعَاوِنَهُ "بيجاد" بِدَوْرِهِ مُحَاوَلًا رفعه للصعود للأعلى، لِيُعِينُوا الأخير بعد ذلك على الصعود هو الآخر في النهاية، لِيبدأ الجميع بالترُّكُض مرةً أخرى دون هَوَادَة من الخطر المُسْتَتِر في جوفِ الأرض.

وعلى مَرِّ طريقِ الهروب كان ساكني تلك الخنادق يُرْهِفُونَ السَّمْعَ لَوْعِ حُطَيِ الثلاثة من فوقهم، فَيُطِيحُوا على الفور بتلك الألواح الخشبية التي تغطي تلك الخنادق الصغيرة قَوْرَ مرورهم، لتظهر الأيادي المُمْتَدَّة إلى الأعلى تحاول الإمساك بهم كي يطولوا أقدامهم، لِيَتَفَادَى الرَّفَاقُ الثلاثة بعضًا منها، حتى خرج بغتَةً من إحدى تلك الحُفَرِ أحد أولئك الغُربَاء لِيُطِلَّ بجسده للخارج.

فطالت قبضته قدم "بيجاد" حينها لتتعرقل حُطَاه ويقع أرضًا على وجهه، فينتهز الرَّجُل الفرصة ويبدأ بِجَذْبِهِ نحوه بقوة وإصرارٍ منه، أخذت يدا "بيجاد" تَبْشِش الأرض من تحته وهو يحاول التَّشَبُّثُ بها مُقَاوِمًا عَزْمَ الرَّجُل في جَذْبِهِ نحوه، لِيَقْبِضَ "عبد الرازق" بيده على مِعْصَمِ "بيجاد" في محاولةٍ منه لِيُوقِفَ انجرافه نحو تلك الحُفَرَة، حينها تحرك "غرير" في عَجَالَةٍ منه ليتخطاهما لتتوالى طعناته نحو صدرِ الرَّجُل، فيصرخ أَلْمًا وَتَنْقِضَ يداه عن قدم رفيقهما، ليعاودوا التُّرْكُض بسرعةٍ أكبر حتى لاذوا بِالْفِرَارِ من ذلك الرُّفَاق اللعين في نهاية المَطَافِ.

مَرَّ يَوْمٌ آخر من مَسْعَاهُم بينما يُكْمِلُ الرَّفَاقُ ترحالهم في إِسْرَاعٍ منهم، وحين تَلَوَّتِ السَّمَاءُ بِصَوِّ نهار اليوم الجديد، شعروا بالتَّعب والإرهاق يَجْتَوِيَانِ فوق أجسادهم التي باتت بالكاد تَقْوِي على الحَرَكَ. فَتَحَتَّمْ عليهم أن يُذِيقُوا

أجسادهم قِسْطًا من الرَّاحَةِ والنوم، ليمر وقتٌ ليس بالقليل يبحثون به عن مَلَاذٍ آمِنٍ لِسَكِينَتِهِمْ، لِيُنْزِلُوا إِلَى إِحْدَى الْحَوَارِي الْمَهْجُورَةِ فَيَذَلُّوا سَرِيعًا نحو إِحْدَى ديارها، ولكن لَيْئْسَ ما وجدوه حينها بداخلها.

وجد الرَّفاق رجلاً يفترش الأرض في هَوَانٍ واضحٍ وقد بَدَتْ عليه أعراضُ المرضِ الشديدِ، كان وجهه مليئًا بِالْبَثُورِ الحمرَاءِ الْمُتَرَشِّحَةِ بِالصَّدِيدِ بينما تَلَطَّحَ جسده بتقرحاتٍ مُتَفَتِّحَةٍ قد نالت من غالبيته، بينما ترقد زوجته المُتَوَفَاةُ التي بدأت زُرْقَةُ التَّعَفُنِ تطول ما تبقى من جسدها على مقربةٍ منه، وقد تواجدت نسائر لحم مفقودة في أنحاءٍ متفرقة من ذراعيها وساقها، فيبدو أن الرَّجُلَ قد أَشْبَعَ أَلَمَ جُوعِهِ من لَحْمِهَا.

تَسَمَّرُ الثَّلَاثَةُ قَوْرَ رُؤُوسِهِمْ إِيَّاهُ، خاصة حينما نظر إليهم الرَّجُلُ الذي يُشَارِفُ عَلَى الْمَوْتِ فِي صَمْتٍ مُطَبَّقٍ وَهُوَ يُجَاهِدُ لِفَتْحِ جَفَتَيْهِ بَعِيْثَيْنِ تُوشِكُ أَنْ تَغِيْبَا عَنْ الْوَعْيِ دُونَ حَرَائِكٍ مِنْهُ، كَادَ "بِيْجَادُ" أَنْ يَتَرَاوَعَ فِي خُطَاةِ الْعُودَةِ إِلَى الْخَارِجِ لَوْلَا أَنْ وَجَدَ "غَرِيرَ" يَتَخَطَّى الرَّجُلَ الْمُلقَى مِنْ أَمَامِهِمْ وَيَتَابِعُ طَرِيقَهُ لِلدَّخْلِ، فَتَتَّبَعَهُ الْآخِرَانِ فِي حَذَرٍ مِنْهُمَا غَيْرِ مُدْرِكَيْنِ لِمَقْصِدِهِ، لِيَذِلَّ الثَّلَاثَةُ جَانِبًا لِإِحْدَى الْغُرَفِ.

جلس "غَرِيرُ" عَلَى الْأَرْضِ لِيَقْطَعَ بَعْضًا مِنْ ثَنَائَا عِبَادَتِهِ بِخَنْجَرِهِ، وَيَحْكُمُهَا جَيِّدًا حَوْلَ أَنْفِهِ وَفَمِهِ، فَاتَّبَعَا الْآخِرَانِ نَفْسَ الْفِعْلَةِ وَقَامَا بِتَمْزِيقِ بَعْضِ ثَنَائَا مَلَابِسِهِمَا لِيَحْكُمَا جَيِّدًا حَوْلَ أُنْفَيْهِمَا وَقَمَيْهِمَا عَلَى الْفُورِ، لِيَقْتَرِبَا الْاِثْنَانِ مِنْ مَجْلِسِ "غَرِيرِ" وَيَفْتَرِشَا الْأَرْضَ هُمَا الْآخِرَانِ بِدَوْرِهِمَا لِيَسْأَلَهُ "بِيْجَادُ" فِي تَعْجَبٍ:

- "لماذا لا تغادر هذا المكان على الفور بعيدًا عن صاحبه هذا؟".

فأجابه غريب وهو يُثَبِّت غطاء وجهه جيدًا:

- "إن هذا الرَّجُل المُبْتَلَى بِمَوْتٍ قَرِيبٍ بِمِثَابَةِ رَادِعٍ لَأَيِّ نَفْسٍ تُقَدِّمُ عَلَى الْإِثْيَانِ أَوْ التَّوْغَلِ أَكْثَرَ، فَوَبَاؤُهُ كَفِيلٌ بِعَدُولِ أَيِّ نَفْسٍ عَنِ الدِّلُوفِ إِلَى هُنَا حَوْقًا مِنْ الْإِصَابَةِ بِالْمَرَضِ".

نظر "عبد الرازق" نحوه ثم سَارَعَ بِقِطْعِ الْمَزِيدِ مِنْ جِلْبَابِهِ بِسِكِّينِهِ لِيَحْكُمَ غِطَاءَ وَجْهِهِ وَهُوَ يُكْمِلُ فِي غَضَبٍ:

- "رَادِعُ لَأَيِّ نَفْسٍ عَنِ الدِّلُوفِ إِلَّا الْحَمَقَى أَمْثَالُنَا".

حينئذٍ لم يجد كُلٌّ مِنْ "بيجاد" و"عبد الرازق" بُدًّا سِوَى الْإِنْصِياعِ لِقَرَارِهِ، فَافْتَرَشَ الرَّفَاقُ الْأَرْضَ وَأَرَاخُوا جُنُوبَهُمْ لِيَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ حَتَّى يَتِمَكَّنُوا مِنْ اسْتِكْمَالِ مَسْعَاهُمْ.. أَمَلًا فِي جَدْوَى خِطَّةٍ رَفِيقِهِمْ.

وبمرور يومٍ آخَرَ، وَبِحُلُولِ مُنْتَصَفِ الظَّهِيرَةِ اسْتَطَاعَ الرَّفَاقُ الْوُصُولَ إِلَى شِمَالِ (الْفُسْطَاطِ)، وَعَلَى مَرَأَى الْبَصْرِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَقَبْلَ الدِّلُوفِ إِلَى إِحْدَى الْحَوَارِي تَسَمَّرَتْ أَقْدَامُهُمْ وَقَدْ خَطَفَ أَبْصَارَهُمْ مَشْهَدٌ لَمْ يَعْتَادُوا رُؤْيَاهُ مِنْ قَبْلِ، فَوَقَفُوا لِيَتَأَمَّلُوا تِلْكَ الْبُيُوتَ شَاهِقَةَ الِارْتِفَاعِ مِنْهَا، وَالَّتِي تَعَدَّدَتْ بِهَا الطَّوَابِقُ لِيَسْكُنَ الْبَعْضُ فِي بُيُوتٍ تَتَكُونُ مِنْ سَبْعَةِ طَوَابِقٍ ⁶⁴.

كَانَتْ تِلْكَ الْبُيُوتُ مُتْرَاصَةً جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ فِي مَشْهَدٍ جَلِيلٍ، وَلَكِنْ لَا يُذَاعُ لِسَاكِنِيهَا سِرًّا أَوْ يُرَى لَهُمْ أَثَرٌ، لَقَدْ كَانَ الْمَكَانُ خَالِيًا مِنْ أَيِّ بَرِيقٍ لِلْحَيَاةِ،

فتحرك الثلاثة بخطواتٍ مُتأنيةٍ بينما يتناقلون النظرات بين تلك البيوت هائلة الحجم التي يعمُّها الصَّمْت المهيِّب، دون أن يعلموا ما هو قادم.

ليَجْزَع الجميع مُتتَفِضِينَ إثرَ صَوْتٍ تَغِيرُ قُوِي صَدَحَ عَالِيًّا لِيُصِيبَ كَبِدَ السَّمَاءِ، استمر التَّغِيرُ لِقُرَابَةِ الخمسِ ثوانٍ وقد ارتفع صَوُّهُ لِيَعْلُو المكانَ بضوضائه، فَعَلَّتْ معه ضربات قلوبهم قَرَعًا بينما يترقبون مَوْضِعَ الصَّوْتِ دون أن يُدركوا كُنْهَهُ، ليتلاشى الصَّوْتُ تدريجيًّا ويعود الصَّمْتُ لِيَعْمَ المكانَ مجددًا لثوانٍ، ثم عاد التَّغِيرُ لِيَعْلُو المكانَ بقوةٍ مرةً أخرى.

رَكَضَ الثَّلَاثَةُ سَرِيعًا لِيَتَوَارَوْا بعيدًا بينما يراقبون ما يحدث، وحينها بدأ دَوِيُّ التَّغِيرِ يقترب من مَوْضِعِ تلك البيوت مُتَبَيِّنِينَ قدومَ صَوْتِ التَّغِيرِ يسار الطريق المؤدي للمكان، لِيَلْتَفِتَ الثَّلَاثَةُ نحو طوابق البيوت ليرَوْا ما لم يشهدوا مثله يومًا، بدأ الناس بالخروج من شُرَفَاتِهِمْ حَامِلِينَ جِثْثَ موتاهم ليلقوها خارجًا، لِيَنْهَالَ الجِثْثُ للأسفل بينما تتساقط من السَّمَاءِ كالمياه المُنْهَمِرَةِ من السُّحُبِ، تَهْوِي الواحدة تلو الأخرى لِيَتَهَشَّمَ الجِثْثُ وَيُسْحَقَ عظامها إثرَ شِدَّةِ السَّقُوطِ، بينما تتساقط تاليًا بعض الجِثْثِ للتراكم فوق أخريات، وأخرى تَسْحَقُ عظام من سَبَقَتْها فتنفجر الدِّمَاءُ من وجهها وتَسِيلُ أرضًا، بينما يسقط البعض فوق تلك الكُتْلِ التي تَكَدَّسَتْ من الجِثْثِ الأخرى لِيَتَدَخَّرَ من فوقها وتنزاح أرضًا.

ليزداد الأمرُ غرابةً بعد ذلك، فإذ بالسَّمَاءِ من فوق الجِثْثِ الهاوية تتلأأ ببريق الدراهم والنحاسيات، لِثُصَاجِبِ موقع سقوط الجِثْثِ المُلْقَاةِ، ليأتي صَوْتُ هُذُورٍ صَليْلِ الدراهم من أعلى الطوابق، يَصْحَبُهُمَا صَوْتُ طنين القطع

النحاسية لُحِثَتْ صَوًّا مُدَوِّيًا إِثْرَ تَرَاقُصِهَا عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَهْدَأَ مِنْ
انْتِفَاضَاتِهَا لِتُجَاوِرَ جِثَّتَ مَنْ كَانُوا يَوْمًا يَمْتَلِكُونَهَا.

وَحِينَ عَمَّ الْهَدْوُ لَثْوَانٍ بِالْمَكَانِ فُوجِيَّ الرَّفَاقِ الثَّلَاثَةِ بَعْضِ أَبْوَابِ الْبُيُوتِ
تُفْتَحُ بَعْتَةً عَلَى مَصْرَاعِيهَا وَيَهْرَعُ مِنْهَا الْبَعْضُ يَرْكُضُونَ نَحْوَ تِلْكَ الْجِثَّتِ
الْمُلْقَاةِ، لِيَتَخَاطَفُوا مَا تَطْوُلُهُ أَيْدِيهِمْ مِنْهَا دُونَ أَدْنَى اكْتِرَاثٍ بِالنَّقُودِ وَالتُّحَاسِ
الرَّاقِدَيْنِ بِجَوَارِهَا، لَقَدْ شَغَلَ الْجُوعُ بَطُونَهُمْ وَأَلْهَى عَقُولَهُمْ، فَأَخَذَ الرِّجَالُ
وَالنِّسَاءُ يَتَصَارِعُونَ فِي تَشْرِيحِ تِلْكَ الْجِثَّتِ فِي لَهْفَةٍ وَعِجَالَةٍ مِنْهُمْ، يُسَارِعُونَ
الْوَقْتَ لَانْتِشَالِ مَا يُمْكِنُهُمُ الْحَصُولُ عَلَيْهِ، وَسَطَ غُلُوِّ وَاقْتِرَابِ ذَلِكَ التَّفْفِيرِ
الْمُقْبِضِ، فَانْكَبَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ عَلَى قِطْعِ آذَانٍ وَشَفَاهِ الْمَوْتَى لِيَقُومُوا بِجَمْعِهِمْ
فِي جَلَالِيهِمْ، بَيْنَمَا انْشَغَلَ الْآخَرُونَ فِي جَرِّ وَبِترِ أَطْرَافِ الْمَوْتَى لِلظَّفَرِ بِأَكْبَرِ
قِطْعٍ مِنَ اللَّحْمِ يَسْتَطِيعُونَ الْحَصُولَ عَلَيْهَا، وَمَنْ اسْتِفَاضَتْ مَلَابِسُهُ بِمَا أَرَادَ
جَمْعَهُ، سَعَى فِي قِطْعِ نَسَائِرِ اللَّحْمِ لِيُسَارِعَ بِحَشْوِهَا فِي فَمِهِ لِيَمْلَأَ جَوْفَهُ بِمَا
يَجُودُ مِنْ أَمَامِهِ.

وَهُنَا تَصَاعَدَ صَوْتُ التَّفْفِيرِ فِي الْغُلُوِّ مُغْلَنًا عَنْ قَدُومِ أَصْحَابِهِ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ
مِنْهُمْ، لِيَتَعَلَّوْا الرُّؤُوسَ وَالْأَجْسَادَ الْمُتَكَبِّةَ بِالنَّهْوضِ سَرِيعًا وَهُمْ يُحَدِّقُونَ النَّظَرَ
فِي تَرَقُّبٍ مِمَّا هُوَ قَادِمٌ، لِيُسَارِعَ الْجَمِيعُ عَلَى الْفُورِ فِي الْعُودَةِ إِلَى جُحُورِهِمْ
كَالْفئْرَانِ، لَتَمُرَّ ثَوَانٍ قَلِيلَةٌ لِيَخْتَفِيَ الْحَشْدُ الْجَائِعُ وَيَبْصُرَ الرَّفَاقَ الثَّلَاثَةَ مِنْهُمْ
أَصْحَابَ ذَلِكَ التَّفْفِيرِ.

لَا حَ لَهُمْ حِينَ ذَاكَ ظُهُورُ ثَلَاثِ عَرَبَاتٍ خَشَبِيَّةٍ يَصْحَبُهَا عُصْبَةٌ مِنَ الرِّجَالِ مُلْثَمِي
الْأُجُوهِ مُدَجَّجِينَ بِالْأَسْلِحَةِ، تَتَوَعَّتْ مَا بَيْنَ السِّيفِ وَالرَّمْحِ وَالنِّشَابِ، عُتَاهِ الْبَنِيَةِ
ضِخَامِ الْجَسَدِ تَبْدُو عَلَيْهِمُ الْغِلْظَةُ وَتَكْسُوهُمْ الْهَيْبَةُ، يَسِيرُونَ بِخَطَى ثَابِتَةٍ نَحْوَ

المكان، يتألفون مما يَقْرُب من عشرين رجلاً، يمسك أحدهم بوقٍ كبيرٍ لا يتوقف عن التَّفير به إلا لالتقاط أنفاسه، بينما يتبعه الباقيون بأعينٍ راسخة نحو هدفهم.

وفور اقتراب أولئك الرجال صَوْب المكان، تحرك جمعٌ منهم نحو الجثث المُلْقاة على الأرض ليقوموا بفحصها، ليفحصوا المَوْتى بحثًا عن أي عِلَّة أو مرض، لِيُبَاعِدوا بينهم وبين الجثث السليمة وَيُزِيحونها لِتَتَكَوَّم جانبًا لِيُكْمِلُوا فِعْلَتَهُم، بينما شرع آخرون في جمع المال المُتَنَائِر والزَّخَارِف في الجَوَّالات القُماشية، لِيبدأ البَقِيَّة في سحب الجثث السليمة نحو العربات الخشبية وإلقائها فوقًا منها، لِتَتَكَدَّس الجثث السليمة منها أعلى ظهر عَرَبَتَيْنِ من الثلاث، بينما جمعوا الجثث الموبوءة أعلى ظهر العربة الأخيرة، لِيبدأ أولئك الرجال بالرجوع من حيث أتوا مرةً أخرى بعدما أَنَّهُوا مُهِمَّتَهُم.

لم يكن ذلك الحدث واضحًا أو مفهومًا سوى لقاطني تلك الطوابق، فكانت تلك العائلات المَنكوبة التي يموت أفرادها كل يوم جَرَاء التَّصَوُّر جوعًا لا يتصرفون بالجثث، فمنهم من يقتات على موتاهم، ومنهم من لم يُطِيقوا لذلك أمرًا ولكن لا يجدون أرضًا لدفن أحبائهم، بينما كان منهم من آثروا إلقاء مرضاهم من الشُّرَفات على فقدان حياتهم واللاحق بهم، فكانت تلك العائلات تنتظر قدوم كَفَنَةِ المَوْتى كل يومين، فتُلقي بموتاهها لهؤلاء القَوْم فور سماعهم لذلك التَّفير مُعلِّيًا إتيانهم لجمع تلك الجثث ودفن أولئك المَوْتى بعيدًا عن أيدي تَسَّالي اللحم، مُلقين بمقتنياتهم وأموالهم ثمنًا لدفنهم، ليتم أخذ جميع الجثث بعيدًا بعد ذلك لمثواهم الأخير، تلك كانت مُهِمَّتَهُم وقتئذٍ.

حينئذٍ تذكر "غريز" فور رؤيته لأولئك الرجال وفِعَلَتَهُم أنه قد وصل إلى مسامِعِهِ من قبل خبرٍ عن وجود قومٍ يُدْعَوْنَ بـ (كَفَّةِ المَوْتَى)، يطوفون بعض الحواري والأزقة التي يَسْكُنُهَا الأثرياء، يتولون مهمة دفن موتاهم بطريقةٍ لائقةٍ مقابل ما تجود به عائلاتهم.. إنهم (بنو قِرَافَة).

كان أولئك القوم يسكنون في شمال (الفسطاط) والتي تطل بدورها على (القطائع) مباشرةً، والأسوأ من ذلك وما تغفل عنه تلك العائلات أن هؤلاء القوم هم من أشهر تجار لحوم البشر، فإنهم لا يقومون بدفن المَوْتَى بل يقومون ببيعها لِرَاقِبِيهَا.

ولذلك كان من المؤكد أنهم يعلمون شيئاً عن قافلة (المصامدة) التي مرّت من هنا منذ أيام، ولربما يعلمون أمراً عن طَبَّاح (القطائع) أيضاً، فحتماً تتلاقى تجارة اللحم في مَصَبٍ أخير، لِيَتَّخِذُوا أمرهم في نهاية الأمر باتباع أولئك الرجال أملاً في الوصول إلى مسعاهم الأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل قبل الأخير

كَفَنَةُ الْمَوْتِ

(بنو قِرَافَة) ⁶⁵.. بات حَرَسَةُ الْمَوْتِ هم من يتاجرون بهم، أولئك من يَسْكُنُون شمال (الفسطاط)، حيث تقع ديارهم حائلٌ بين آخر الطرق المؤدِّيَة لمدينة (القطائع)، وقد مَرَّ عليهم حَتَمًا (المصامدة)، ولهذا فكان الأولى إيتابهم فوق كل شيء.

قام الرَّفاق الثلاثة باتباع الطريق الذي سلكه (بنو قِرَافَة)، مُقْتَفِينَ أثرهم في حَرَصٍ منهم، حتَّى لا يكتشف أحد هؤلاء القوم أمرهم فَيَلْقُون نهايتهم، سَلَكُوا طريقًا طويلًا وَعَسِر، بينما يمرون بالعديد من الحواري والأَزِقَّة التي يقف بها (كَفَنَةُ الْمَوْتِ) ليجمعوا العديد من الجثث الأخرى كما فعلوا سابقًا، ليقوم ساكني تلك الحواري والأَزِقَّة بنفس الفِعْلَة التي قام بها من سبقوهم.

كانوا يجتازون العديد من الطرق بينما يضطرون إلى التواري من حينٍ إلى آخر حتَّى ينتهي هؤلاء القوم من عَمَلِهِم، ظل الحال كذلك طيلة يوم حتَّى انتهوا من مسعاهم، فاتخذوا طريق العودة حتَّى وصلوا إلى ديارهم.

لَجِدَ الرَّفاق أنفسهم يقفون على أعتاب مدينة كبيرة مُحاطَة بأسوارٍ شاهقة، يَبِيْثُ اجتيازها أو تخطيها أمرًا صعب المنال، لِيُذَرِّكُوا عدم استطاعتهم القيام بمحاولتهم في وَصَح النهار خَشِيَّة فَصَح أمرهم، لِيُقَرَّرُوا فيما بينهم أن يَتَوَازُوا لبعض الوقت وَيُسَدِّل اللَّيْل ستاره، فيتمكنوا من البحث عن طريقة لاجتياز تلك الأسوار والدِّلُوف إلى المدينة.

لُثِّلَ الشَّمْسُ عَنِ الْمَغِيبِ، وَبَدَأَ الظَّلَامُ بِابْتِلَاعِ بِالْمَكَانِ، حِينَهَا غَادَرَ الرَّفَاقَ مَخْبَأَهُمْ وَبَدَأُوا فِي اسْتِطْلَاعِ الْمَكَانِ بَحْثًا عَنْ طَرِيقَةٍ لِيَدْلفُوا بِهَا إِلَى الدَّخْلِ، وَلَكِنْ كَلَّمَا التَّفَوْا حَوْلَ الْأَسْوَارِ وَجَدُوا حِرَاسَةً مُشَدَّدَةً تُحِيطُ بِكَافَةِ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، لِيَرَوْا رِجَالَ (بَنِي قِرَافَةَ) يَقِفُونَ فِي يَقْظَةٍ مِنْهُمْ مُدَجَّجِينَ بِالْأَسْلِحَةِ، لَا تَخْتَلِفُ هَيْئَاتُهُمْ كَثِيرًا عَنِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ رَأَوْهُمْ سَابِقًا مِنْ حَيْثُ الْقُوَّةُ وَضَخَامَةُ الْبَنِيَانِ، لِيَسْتَمِرُّوا فِي الْبَحْثِ مُلْتَفِّينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ يَمِينًا وَيَسَارًا حَتَّى أَوْشَكَ الْيَأْسَ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَسْعَاهُمْ.

وَأَثَاءَ قُرَابَةِ انْتِهَاءِ سَعْيِهِمْ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَدْخَلٍ مُنَاسِبٍ لَاحَ لَهُمْ أَمْلٌ خَافَتْ حَيْثُ وَجَدُوا نَقْطَةً تَطُلُ مَبَاشِرَةً عَلَى بَعْضِ الْمَقَابِرِ، وَالتَّتِي بَدَأَ لَهُمْ بِأَنْهَا دُونَ حِرَاسَةٍ، لِيَهْرَعُوا عَلَى الْفُورِ مِنْهُمْ لِيَتَجَهَّزُوا نَحْوَ تِلْكَ النَّقْطَةِ لِيَسْتَطْلَعُوا أَمْرَهَا، حِينَئِذٍ تَبَيَّنُوا مَقَابِرَ قَدِيمَةً وَقَدْ تُوفِي أَصْحَابُهَا مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ قَبْلَ أَنْ يَنْتَشِرَ الْوَبَاءُ أَوْ تَخْتَدَّ الشَّدَّةُ الَّتِي حَاقَتْ بِالْبِلَادِ، لِتَحْتَلَّ تِلْكَ الْمَنْطِقَةُ مَسَاحَةً شَاسِعَةً أَمَامَ أَحَدِ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ تَمْتَدُّ لِمِائَاتِ الْأَمْتَارِ، كَانَتْ تِلْكَ الْأَسْوَارُ هِيَ الْأَقْلَى حِرَاسَةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَسْوَارِهَا الَّتِي عُلِقَتْ بِحِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ وَصَوْبٍ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى مَقَابِرِ تِلْكَ الْجَنَّةِ الْمُتَعَفِّتَةِ وَالْمُهْمَلَةِ وَالتَّتِي تَمَّ دَفْنُهَا مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، وَالتَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى حِرَاسَةٍ كِي يَبْقَوْهَا بَعِيدًا عَنْ أَيْدِي تَهَشَّةِ اللَّحْمِ، فَتَرْكُوهَا كَوْسِيلَةً لِإِبْعَادِ أَوْلَئِكَ الْجَوْعَى لِيَجِدُوا بِهَا مُبْتَغَاهُمْ، لِيَقْتَاتُوا عَلَى تِلْكَ الْجَنَّةِ الْعَفِيفَةِ، فَلَمْ تَكُنْ لَدَى أَوْلَئِكَ الْجَوْعَى مِنَ الْجُرْأَةِ مَا يَسْمَحُ لَهُمْ بِأَنْ يَعْزُزُوا عَلَى بَقِيَّةِ مَقَابِرِ (بَنِي قِرَافَةَ) حَدِيثَةَ الْعَهْدِ لِقُوتِهِمْ وَشِدَّةَ بِأَسِيهِمْ، لِذَلِكَ كَانُوا يَكْتَفُونَ بِنَبْشِ تِلْكَ الْقُبُورِ وَيَقْتَاتُونَ عَلَى مَا تَطُولُهُ أَيْدِيهِمْ.

لِيَقَرَّ الرَّفَاقُ الثَّلَاثَةَ التَّوَعَّلُ دَاخِلَ تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ كَنَقْطَةِ دُلُوفِهِمُ الْوَحِيدَةِ إِلَى الدَّخْلِ، فَشَرَعُوا يَتَوَعَّلُونَ أَكْثَرَ إِلَى دَاخِلِ الْمَقَابِرِ لَيَرَوْا مِنَ الْأَمْرِ أَعْرَبَهُ.

كَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْمُكَفِّةِ رُؤُوسِهِمْ، يَنْبَشُونَ فِي الْمَقَابِرِ لِيَسْتَخْرِجُوا الْجَثثَ مِنْ ثُرَابِهَا وَسَطَ حِرَاسَةٍ مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ يَقِفُونَ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُمْ لِحِمَايَتِهِمْ وَمِرَاقَبَةِ الطَّرِيقِ، لِيَتَجَاوَزُوهُمْ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مَوْقِعِهِمْ فِي الْحَالِ، لِيَسِيرُوا بِضَعِ خَطَوَاتٍ أُخْرَى لِيُنْصِرُوا مِنْ أَمَامِهِمْ سَيِّدَةَ عَجُوزٍ تَفْتَرِشُ الْأَرْضَ بِجِوَارِ أَحَدِ الْقُبُورِ، وَقَدْ قَامَتْ يَنْبَشُ جُزْءٍ مِنْهُ لِتُظْهِرَ إِحْدَى ذِرَاعِي الْجُثَّةِ، وَلَكِنْ لَمْ تُطِقِ السَيِّدَةُ الْعَجُوزُ صَبْرًا حَتَّى تَنْبَشَهُ عَنْ آخِرِهِ وَتُخْرِجَ بَقِيَّةَ الْجُثَّةِ، فَأَخَذَتْ تَنْهَشُ ذِرَاعَ الْجُثَّةِ لِنَتْنِهِمْ بِمَا تَبْقَى مِنْ لَحْمٍ بِهَا وَقَدْ تَعَفَّرَ وَجْهَهَا بِالتُّرَابِ الْمُلتَصِقِ بِاللَّحْمِ دُونَ أَنْ تَسْتَرَعِيَ لَهُ أَمْرًا.

وَلَمْ يَكَادُوا لِيَكْمُلُوا مَسِيرَتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى تَرَأَى لَهُمْ رَجُلٌ يَقِفُ مُمَسِكًا سِكِّينَهُ، بَيْنَمَا يَقُومُ رَفِيقُهُ مِنْ خَلْفِهِ يَنْبَشُ أَحَدَ الْقُبُورِ الْأُخْرَى، لِيُشِيرَ سِكِّينَهُ تَجَاهَهُمْ وَيَقْتَرِبَ بِخَطَوَاتٍ نَحْوَهُمْ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ هُمْ قَدْ جَاؤُوا لِيُغَيِّرُوا عَلَى مَوْضِعِ غَنِيمَتِهِمْ، وَلَكِنْ بِمُرُورِهِمْ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مَوْقِعِهِ أَرَا حَاضِرًا سِكِّينَهُ وَخَبَا حَذْرُهُ وَعَادَ إِلَى صَاحِبِهِ تَارِكًا إِيَّاهُمْ لِيُكْمِلُوا الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرَى.

لِيَتَابَعُوا سَيْرَهُمْ فِي حَذْرِ مِنْهُمْ بَيْنَمَا يَلْتَفِتُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ لَيَرَوْا مِنَ الْأَهْوَالِ أَفْظَعَهَا، فَعَلَى الْيَمِينِ مِنْهُمْ كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ عَجُوزٌ وَبِضُحْيَتِهِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَقَدْ قَامَا يَنْبَشُ قَبْرٍ آخَرَ وَاسْتَخْرِجَا الْجُثَّةَ الَّتِي غَزَاهَا دُودُ الْقَبْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، لِيُخْرِجَ الرَّجُلُ سِكِّينًا مِنْ طَيَاتِ مَلَابِسِهِ وَيَبْدَأَ فِي تَقْطِيعِ مَا تَبْقَى مِنْ لَحْمٍ بِسَاقِ الْجُثَّةِ، بَيْنَمَا تَتَقَافَزُ الدِّيدَانُ عَلَى يَدَيْهِ وَوَجْهِهِ، لِيَقُومَ الرَّجُلُ بِإِطْعَامِ الصَّغِيرِ تِلْكَ الْقِطْعَ الْمُتَحَلِّلَةَ الْمُتَسَبِّعَةَ بِالدِّيدَانِ وَيَقْتَاتُ عَلَيْهَا هُوَ الْآخَرُ،

ليكملوا سَيْرَهُمْ فِي عُجَالَةٍ وَقَدْ بَاتَتْ نَفُوسُهُمْ لَا تَطِيقُ مَا تُبْصِرُهُ مِنْ بَشَاعَةٍ،
لِيَنْظُرُوا مِنْ أَمَامِهِمْ حَتَّى تَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ شَارَفُوا عَلَى الْوَصُولِ لِلدَّخْلِ.

مَرَّ وَقْتُ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ حِينَ ذَاكَ حَتَّى دَلَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخَذُوا يَتَجَوَّلُونَ بَيْنَ
دِيَارِهَا فِي تَرَوٍّ وَخَدَرٍ، لَتَقَعَ أَعْيُنُهُمْ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ دِيَارٍ (بَنِي قِرَافَةَ) كَانَ بَابُهَا
مَفْتُوحًا عَلَى مَصْرَاعِيهِ، فِي حِينَ تَنْبَعَثُ مِنَ الدِّيَارِ رَائِحَةُ الدَّمَاءِ الرَّفِرَةِ
الْمُتَجَلِّلَةِ الْمُخْتَلِطَةِ بِرَائِحَةِ تَعْفُنِ الْمَوْتَى، قَرَأُوا حِينَهَا غُرْفَةً تَتَوَسَّطُهَا طَاوِلَةٌ
خَشَبِيَّةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مُشْتَبَعَةٌ بِالدَّمَاءِ، يَقِفُ مِنْ أَمَامِهَا رَجُلٌ فَارِهِ الطَّوْلِ يُمَسِّكُ
بِيَدِهِ سَاطُورًا ضَخْمًا، بَيْنَمَا تَرْقُدُ جُنَّةٌ تَعُودُ لِرَجُلٍ عَلَى الطَّاوِلَةِ مِنْ أَمَامِهِ، لِيَرْفَعِ
السَّاطُورَ عَالِيًّا وَيَهْوِي بِهِ عَلَى مُنْتَصَفِ الْجَسَدِ الرَّاقِدِ مِنْ أَمَامِهِ لِيَشْطُرَّهُ إِلَى
نِصْفَيْنِ لَا يُؤْصِلُهُمَا سِوَى الْعَمُودِ الْفَقْرِيِّ، فَأَخَذَ يَنْهَالُ عَلَيْهِ مَرَاتٍ مُتَوَالِيَةً حَتَّى
قَسَمَهُ هُوَ الْآخِرُ، لِيَنْزَاحَ بَعْضُ مِنْ أَمْعَائِهِ وَتَسْقُطَ مِنَ الطَّاوِلَةِ مَعَ الدَّمَاءِ
وَيَهْوِي فَوْقَ قَدَمَيِّ الرَّجُلِ دُونَ أَنْ يُبَالِيَ لَهَا شَأْنًا، لِيَهْوِيَ بِسَاطُورِهِ مُجَدَّدًا
بِعَنْفٍ مَرَاتٍ مُتَتَالِيَةٍ، لِيَقْسِمَ كُلَّ نِصْفٍ إِلَى شِطْرَيْنِ آخَرَيْنِ، وَهَكَذَا الْحَالُ حَتَّى
تَجْزَأَ الْجَسَدُ مِنْ أَمَامِهِ إِلَى قِطْعٍ كَبِيرَةٍ الْحَجْمِ، لِيَسْتَرْقُوا النَّظَرَ سَرِيعًا فِي
أَرْجَاءِ الْغُرْفَةِ مِنْ حَوْلِهِ لِيَرَوْا أَكْوَامًا مُتَكَدِّسَةً مِنَ الْأَطْرَافِ فِي أَحَدِ الْجَوَانِبِ
بَيْنَمَا يُعْطِيهَا الذَّبَابُ وَالْحَشَرَاتُ، فَبَدَتْ الدَّارُ لَهُمْ وَكَأَنَّهَا مَقَرًّا لَتَقْطِيعِ وَتَعْبِئَةِ
الْجَثثِ.

لِيَتَحَدَّثَ لَهَا "غَرِيرٌ" هَامِسًا بَعْدَ ذَلِكَ:

- " فَلْيُنْكِمِلْ مَسْعَانَا، قَبْلَ أَنْ يَنْتَبِهَ أَحَدُهُمْ إِلَى مَوْضِعِنَا".

لِيُؤْمِيَّ لَهُ كُلُّ مَنْ "بِجَادٍ، وَعَبْدُ الرَّازِقِ" بِالمُوافَقَةِ دُونَ أَنْ يُنْيسَا يَنْتِ شَقَّةَ
لِيَتَحَرَّكَ الثَّلَاثَةُ لِيُكْمِلُوا مَسْعَاهُمْ، وَبَيْنَمَا يَسِيرُونَ فِي الْمَدِينَةِ دَلَفُوا إِلَى إِحْدَى
الطَّرِيقَاتِ لِيَبْصُرُوا مِنْ أَمَامِهِمْ طِفْلاً صَغِيراً يُنَاهِزُ التَّسْعَةَ أَعْوَامٍ يَقِفُ فِي
الْجَوَارِ مُمَسِّكاً بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ، لِيَقِفَ يُحَمِّقُ بِهِمْ فِي صَمْتٍ لَثَوَانٍ، وَالَّذِي
سُرَّعَانَ مَا أَدْرَكَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ غُرَبَاءُ لَا يَدْرِكُ كُنْيَتَهُمْ، لِيَنْبَعِثَ الْخَوْفُ فِي صَدْرِهِ
لِيَعْلُو صَوْتُهُ بِالصُّرَاخِ، لِيَتَّبِعَ "غَرِيرٌ" نَحْوَهُ وَيُسَارِعَ بِأَحْكَامِ قَبْضَتِهِ عَلَى فِيهِ
الصَّغِيرِ لِيُتَبِّرَ صُرَاخَهُ، لِيَحَاوِلَ الطِّفْلُ التَّمَلُّصَ مِنْ يَدَيْهِ فِي قُوَّةٍ أَجْبَرَتْ
الْآخَرَيْنَ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ فِي سَلِّ حَرَكَةِ الطِّفْلِ الْقَزَعِ، لِيَهْرَعُوا بِهِ إِلَى دَاخِلِ
إِحْدَى الدِّيَارِ الَّتِي لَمْ تُغْلَقْ أَبْوَابُهَا وَبَدَأَ أَنَّهَا فَارِغَةٌ مِنْ أَهْلِهَا.

دَخَلَ الثَّلَاثَةُ يَحْمِلُونَ الْفَتَى الصَّغِيرَ مُقَيِّدِينَ حَرَكَتَهُ وَتَمَلُّصَهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ،
لِيَنْظُرَ "عَبْدُ الرَّازِقِ" نَحْوَ رَفِيقَيْهِ لِيُحَدِّثَهُمَا فِي قَلْقٍ بِالْغ:

- "مَا الْعَمَلُ الْآنَ؟".

فَأَجَابَهُ "بِجَادٌ" بِنَبْرَةٍ مُتَوَتِّرَةٍ:

- "لَرُبَّمَا نَتِمَكَّنُ مِنْ تَقْيِيدِهِ وَإِخْفَائِهِ حَتَّى...".

بَاعَتْ حَدِيثَهُ صُرَاخُ عَالٍ لَامْرَأَةٍ مِنْ خَلْفِهِمْ؛ لِيَلْتَفِتُوا نَحْوَهَا فِي قَزَعٍ، لَمْ يَكُونُوا
يَعْلَمُونَ حِينَ ذَاكَ أَنَّ وَالِدَةَ الْفَتَى قَدْ تَنَامَتْ إِلَى مَسَامِعِهَا صَوْتُ صُرَاخِ
صَغِيرِهَا الْوَجِيزِ قَبْلَ قَلِيلٍ، فَهَرَعَتْ بِقَلْبٍ قَزَعٍ لِلْبَحْثِ عَنْهُ فِي الْأَرْجَاءِ حَتَّى
وَجَدَتْهُ فِي قَبْضَتِهِمْ، لِيُطْلِقَ صُرَاخًا عَالِيًا وَتَنْتَحِبَ صَائِحَةً بِاسْمِ طِفْلِهَا لِيَمْلَأَ

أرجاء المكان، لتمر ثوانٍ قليلة من صُراخها حتى تَكْدَسَتْ عتبة الدَّار بالرجال المُدَجَّجِينَ بالأسلحة من خلفها.

قَارَب "غريب" خِنْجَرَهُ من عُتْق الطُّفْلِ لِيَرْدَعَ الرِّجَال على اقتحام المكان أكثر وقتلهم، لِيُلْقِي بكلماته صائِحًا:

- "لا تقتربوا وإلا قتلته على الفور".

تَسَمَّر الرِّجَال في مَوْضِعِهِم لثوانٍ ليتراجع بعضهم في الخلف حينها لِيُفْسِحُوا المجال في خضوعٍ لِدُلُوف أحد الرِّجَال، لِيَقِف من جِوار والدة الطُّفْلِ التي أجهشت بالبكاء نحو صغيرها، ليقف الرَّجُل الذي بَلَغ من العمر أكثره ينظر نحو صغيره في قلقٍ جَلِيٍّ سُرْعَان ما تحول إلى غضبٍ عارِم وهو يصيح بهم:

- "هل تجرؤون على حَطْف ولدي؟".

فأجابه "بيجاد":

- "نحنُ لا نَتَتَوِي أذِيَّةً أحد.. لقد جئنا للبحث عن إجابة لأسئلتنا ليسَ أكثر".

ليجيبه الرَّجُل في سُخْرِيَّةٍ منه:

- "لن تتمكنوا من الخروج من المدينة أحياء، فإنكم في عِدَاد المَوْتَى في كل الأحوال، فاترك الطُّفْل على الفور وإلا سَتَنالون عَصَبِي".

لِيَحْدِثه "غريب" على الفور بِتَبَرَّةٍ حَدَرٍ يشوبها الرجاء:

- "سنترك الطُّفْل وشأنه، ولكن لنا عندكم مَطْلَبٌ".

ثم أفلت "غريز" يده عن الفتى لِيَتَّبِعَ الآخَرانَ فِعْلَهُ، فَهَرَعَ الطُّفْل ليرتمي في أحضان أمه الْمُتَنَحِّبَةِ، لِيُفْسِحَ بَقِيَّةُ الرجال الطريق لها لتسارع بأخذ فتاها ومغادرة المكان على الفور، ليحتشد المكان بالرجال ليقفوا من وراء زعيمهم، وقد ناوله أحدهم من خلفه سيقًا ليحكم قبضته عليه وهو ينظر لهم في غضب.

انزوى الرَّفاق الثلاثة في أحد أركان الدَّارِ شاهري أسلحتهم نحو الآخرين والخَوْف يملأ قلوبهم، ليصبح "غريز" بهم:

- "لقد أَقَلَّتْنا صغيرك وهو بأمانٍ الآن.. فَلْيُلَيِّ تسأَلاتنا قبل أن تُبيح دماءنا".

ليجيبه زعيمهم في سخريةٍ منه:

- "حسنًا إذن، لكم ما تريدون رُغم أنكم لن تغادروا المكان أحياء".

لِيَصِيح "بيجاد" نحوه:

- "ماذا حدثَ لكم؟ لقد اَعْتَدْتُمْ فيما مضى دفن المَوْتى وإكرام مِثْواهم، لماذا تَغَيَّرَ الحال بكم الآن؟".

لِيُجِيبَهُ الرَّجُلُ:

- "لقد تَبَدَّلَتِ الأحوال، وصارت تلك هي وظيفتنا من أجل البقاء، نحن نقتات على ذلك اللحم كي نشبع جُوع أجوافنا، ونبيع ما يفيض عن حاجتنا قبل أن

يفسد، فيأتينا من الخير أوفره كل يومين، فَلِما نحتفظ إذن بتلك اللحوم ونعرضها للفساد؟ في حين نستطيع القيام ببيعها لِعَلِيَّةِ القومِ بأموالٍ طائلة".

لِيعَاود "بيجاد" الحديث مُتَسَائِلًا في حيرةٍ منه:

- "وما شأنكم بجثث المَوْتَى المُبْتَلِيَةِ بِعِلَّةٍ؟".

ليستمر الزعيم في مجاراتهم ليجيبه عن سؤاله بنبرةٍ مُستهزئة:

- "إن هنالك من أفلس من عِلِيَّةِ القوم أولئك، ولم تعد لديهم القدرة على الدفع مقابل اللحم، لذلك نرسل هديتنا الأخيرة إليهم من ذلك اللحم المريض، ليقتاتوا عليه ويملؤون أجوافهم به، فَيَلْقَوْنَ حتفهم وقد أَيْقَنَّا أنه لا مال لديهم ليجودوا لنا به بعد الآن".

لِيَلْفِظ لسان "بيجاد" بأهم سؤالٍ لديه حين ذاك:

- "ماذا تعلمون عن طَبَّاحِ القطائع؟".

التفت الرَّجُلُ لِلْمَيِّمَةِ ناحية رجاله وهو يتسم في سخريةٍ منه ثم عاد ليجيبه:

- "لدينا من تجارة اللحم ما يكفينا ويملاً جيوبنا من أموال مُرِيدِيهَا، فما يزيد عن حاجتنا نخزنه لطَبَّاحِ القطائع ومن يحمونه، فيرسل لنا معاونوه من حَرَسِ الشُّرْطَةِ العُلُويَّةِ كل يومين نجمع بهما جثث المَوْتَى، لنبيع ما يكفي عن حاجتنا له".

لِيُكْمِل "غريز" على الفور:

- "هل رأيتم للـ (مصامدة) من أثرٍ في الأيام المُنصرمة؟".

ليجيبه الزعيم:

- "لقد مروا بالفعل من هنا قبل بضعة أيام، فهم أيضًا يتعاملون مع طَبَّاح القطائع".

ليعلو صَوْتُ "غريـر" مقاطعًا:

- "نريدك أن تصلنا بطَّبَّاح القطائع هذا".

فأجابه الزعيم بابتسامة سخرية ارتسمت على محياه:

- "إن رجاله آتون اليوم لاستلامهم حصتهم من المَوْتى، ولكن لدي سؤال لكم الآن".

ثم اقترب بخُطاه ناحيتهم بينما اتَّبَعَه الرجال من خلفه وهو يُكْمِل:

- " ما الذي يجعلك تعتقد بأنني سوف أقدم إليكم المساعدة بينما يمكنني قتلكم في الحال؟".

ليقاطع "بيجاد" تقدمهم بحديثه على الفور:

- "سوف أعطيك مقابلًا سخياً إذا ساعدتنا، فيمكنني أن أصلك بضكوك بعض الديار في رُقَاق (أترجة)، كما أنني أملك ضكوك ديار أخرى في الحواري والأزقة المجاورة.. وسوف تصبح في حوزتك إن لبيت ما لنا من مطلب".

ليتفاجأ "غريز" بحديث "بيجاد" ويَرمُقُه بنظرةٍ غضبٍ ارتسمت على وجهه فور سماعه لما قال للتو، ليجد "بيجاد" يقوم بإظهار تلك الصُكوك من بين طيات جلبابه ليُحكِمَها شاهراً إياها في وجه زعيم (بني قِرافة).. ليُذِرَكَ "غريز" أن "بيجاد" كان يَحُورُها معه طيلة ترحالهم وأنه لم يَقُمْ بإخفائها كما حَدَّثَه سابقاً لكي يجبره على الترحال معهما.

تقدم "بيجاد" حينها مُمسكاً بالصُكوك ليعطيها للرجل، وحينها أمسك الرَّجُل بالصُكوك وهو يتفحصها في صمتٍ منه حتى ارتسمت ابتسامة على وجهه فور انتهائه من إحصائها، ليعطيها لأحد الرجال من جانبه ويتوجه بالحديث لـ "بيجاد" مُكَمِّلاً ابتسامته:

- "ديارُ عدة في مقابل خدمةٍ بسيطة.. إن لك ما شئت".

لينظر إليه "بيجاد" بنظرةٍ جادة ويحدثه قائلاً:

- "هل تعاهدني على ذلك؟".

فأجابه الرَّجُل وهو يهز كَتِفَيه ساخراً:

- "أُعَاهِدُكَ".

ليعاود زعيم (بني قِرافة) حَدِيثَه:

- "سوف يأتي رجال الطَّبَّاخ عند حلول منتصف اللَّيْلِ، وسوف تتوارون بين جثث المَوْتَى الذين يتم تسليمهم إليهم".

ليرمقه "بيجاد" بنظرةٍ مُتَشَكِّكةٍ تُؤمِّن عن عدم الثقة في حديثه، ليردِّف مُتَسَائلاً:

- "وما الذي يضمن صِدْقَ حديثك لنا؟ وأنتَ لن تقوم بإزهاق أرواحنا على الفور وقت خروجنا ناقصاً عهدك معنا".

ليعلو وجهه ابتسامة مَكْرٍ وَخُبْتٍ وهو يجيبه:

- "لا طائل من قتلكم على أيدينا الآن، ولكن بمجرد وصولكم إلى طَبَّاحِ (القطائع) سوف تُقْتَلُونَ على يد الحرس العُلُوي وأنتم على مشارف الوصول إلى مسعاكم دون أن تطولوا مُبْتَغَاً لكم، فأنتم موتى لا محالة ولا طاقة لكم بهم.. وبهذا سيكون الانتقام أكثر نَشْوَةَ جَرَاءٍ قيامكم بِفِعْلَتِكُمْ وَخُطْفٍ ولدي في عُقْرِ ديارنا".

لتمر الساعات على عَهْدِ الرَّجُلِ لهم وأراوحهم تتهافت على الرحيل، وحين قارب منتصف اللَّيْلِ على الإتيان ذهب ثلاثتهم مع زعيم (بني قِرافة) وبعضٍ من رجاله نحو أحد مخارج أسوارهم التي تُطِلُّ على الطريق المؤدي للـ (قطائع)، ليروا كَوْمَةً من الجثث المُلْقاة جانب أحد العربات الخشبية، وقد كانت تلك الجثث سليمة لم يتم تقطيعها أو المساس بها".

ليبدأ زعيم (بني قِرافة) بالحديث للرفاق الثلاثة بينما شرع رجاله في جذب بعض الجثث لرفعها فوق العربة.

- "كنا ننتوي تسليم عشرة جثث أفاضوا عن حاجتنا إلى الحرس العُلُوي اللَّيْلَةَ".

ثم تقدم ليمسك بمقبض العجلة الخشبية من جواره وهو يُكمل حديثه نحو "بيجاد":

- "لكنهم الآن صاروا ثلاث عشرة جُثة بما فيهم أنت ورَفِيقُكَ".

لم يفهم أحدُهم المغزى من مَقْصِدِهِ ليعاود الحديث سريعًا:

- "سوف تتوارون تحت كَوْمَةِ الجثث تلك، تتخفون كأجسادٍ هادمةٍ مُحمَّلةٍ مع بَقِيَّةِ الجثامين".

ثم تحرك الرَّجُل غير عابئ بهم للعودة إلى الداخل بينما ترك الثلاثة مُقَدِّمِينَ على ما لم يتوقعوه يومًا، ليصعد ثلاثتهم فوق ظهر العربة ليرقدوا بين الجثث التي تفوح منها رائحة رَقَرَةِ الدِّمَاءِ، بينما يشرع الرجال في تعبئة العربة بالمَوْتَى، ليجد "عبد الرازق" نفسه مُحْتَضِنًا الجُثَّةَ التي تعلو منه لتنساب من جرحٍ غائر بجبينها بعضٌ من دمائها وتغزو وجهه وعينيهِ، وتَطْبِيقُ على صَدْرِهِ فلا يمكنه التنفس في حين يلاصق وجهها وجهه، يجثو من فوقها العديد من الجثث الأخريات تزيد من ثقلها على صدره، بينما رقد "بيجاد" ومن فوقه ثلاث جثث ليواجه قطع مُتَجَلِّطَةً من الدِّمَاءِ تُلَطِّخُ وجهه وجسده تلتصق بوجهه وجسده، لَتَدْلِفَ بعضها رَغَمًا عنه إلى فمه، أما عن "غرير" فكان يرقد في منتصف الجثث لِتُحَاوِطَهُ أذرعها وسيقانها فَتُقَيِّدُ حركته من كل جانب فلا يستطيع الحَرَكَ، بينما كان ذِرَاعُ ضَخْمٍ لِلجُثَّةِ من فوقه يحتضن رقبته فيكاد يشعر بالاختناق وَيَلْحَقُ بمن يحيطون به في القريب.

ليؤول الأمر في النهاية إلى تَحَقِّيهم وسط المَوْتى، يعانون من تلك الجثث المُتَكَدِّسة فوقهم لِيُشَكِّلُوا تلة صغيرة من الأجساد العَفِئَة، بينما تختنق أنفاسهم جَرَّاء ذلك الخليط الممزوج من رائحة العَقَن والمَوْت، مُتَّطِرِينَ إتيان الحرس العُلُوي، ولكن بالرغم من كل تلك المشاعر المُقَرَّزة كانت رغبتهم في الوصول أخيرًا إلى مسعاهم هي كل ما يسيطر عليهم في تلك اللحظة، فلم يبالوا من أمرهم كثيرًا، حتى أن ثلاثتهم تَقَبَّلُوا مُصاحبة تلك الجثث في رحلتهم الأخيرة بصدرٍ رَجَب.

ليأتي بعد ذلك في وقتٍ ليس بالقليل مُعاوني الطَّبَّاح من الحرس العُلُوي، يَجَرُّون من ورائهم عربةً خشبية خالية، ليقف رجال (بني قِرافة) في مواجهتهم لتسليم العربة المُحَمَّلة بالمَوْتى وبيادلونها بالأخرى فور استلام حصتهم من المال، ليعاود الحرس العلوي الحَرَاك بالعربة نحو وجهتهم في (القطائع) دون أن يعلموا بشأن الأجساد الثلاثة التي تنبض بهم أنفاسهم، ودون أن يعلم أصحاب تلك الأجساد مصائر نفوسهم فيما هو أَم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأخير

التَّذِير

تحركت العربۃ الخشبية دون هَوادة على الطريق، تَئِن مفاصل عجلاتها الصدئة من تَعَثُّرها في حصى الأرض، يهتز معهم كَوَمَةُ الجثث وتهتز معهم قلوب الأحياء منهم، طال الطريق وطالت مَشَقُّهُمْ وعناؤهم في الدفن أحياءً تحت رِكام المَوْتى، لِيَمُرَّ وقتٌ مضى كالدهر لهم مُتَحَمِّلِينَ ما هم فيه من عناء، حتى بدأت العجلة الخشبية في التباطؤ مُعْلِنَةً وصولها لِمُسْتَقَرِّها.

لِتَتَوَقَّف العربۃ مباشرةً عند أعتاب ذلك المَحْفَر الذي يَتَّخِذه الطَّبَّاخ كَمَرَّعٍ له لمزاولة مَهَامِهِ، لِيَهْرَعَ ستة من حراس الشُّرْطَةِ المُدَجَّجِينَ بالأسلحة والذين يتخذون مواضعهم من أمام المَحْفَر لحراسته، ليجاهد حَرَس العربۃ يَدْفَع مقابضها للأعلى لِيَمِيل ثِقْلُها إلى أسفل منها، لتتساقط الجثث من فوق منها وتَتَدَخَّرَ أرضًا، بينما تَحَرَّكَ حرس العربۃ لإكمال تحركهم نحو وجهة أخرى قاصِدِينَ مَسْعَى لا يعلم الرِّفاق عنه أمر، ليتقدم حرس المَحْفَر ويبدأون في رَكْل الجثث بأقدامهم وزحزحتها للتفرق جانبًا، ليقوموا بعد ذلك بسحبها إلى داخل المَحْفَر واحدة تلو الأخرى، لِيَذِلَّف مُدَّعُو المَوْت إلى مقصدهم بمساعدة الحَرَس العُلوي دون إِرَايَةٍ منهم.

وحين باتت الجثث كافة داخل المَحْفَر، اسْتَرَق ثلاثتهم النظر بطرف أعينهم، ليجدوا أن المَحْفَر قد صار مذبج للبشر، لقد تَعَبَّق المكان بالرائحة الزفيرة والصدئة، فكان هنالك أكوام من الجثث المُنْكَفِئَة فوق بعضها في كافة أرجاء المكان، بينما عُلِّق البعض الآخر على حُطَّافَات كما لو كانوا كالذبائح، يتناثر

الكثير من عظام وبقايا الجثث هنا وهناك، بينما تَلَطَّحَت الجدران والأرضية كافة بأثارِ الدِّماء، لِيُبْصِرُوا من أمامهم ثلاثة من القَصَّابين مُشْمِري الأكمام مُنْهَمِكِينَ في القيام بعملهم الدُّووب في تقطيع المَوْتَى.

لِتُلَمَحْ أعينهم حينئذٍ من جوارهم أحد أولئك القَصَّابين الذي لم يَعْرِفِ الهزل لهم طريقًا يومًا، وقد أغرقت الدِّماء صَدْرَهُ وَكَتِفَيْهِ دون أن يسترعي لها أمرًا، كان ذلك القَصَّاب أكثرهم مَقَرَبَةً من مَوْضِعِهِم، ليصل صَوْتُهُ الأَجَش إلى مسامعهم بينما يتغنى بترنيمَةٍ ما أثناء تقطيعه بالساطور الذي يُمَسِكُهُ لِلجُنَّةِ التي تَسْكُنُ فوق طاولةٍ من أمامه، لِيَلْتَهُم بين الحين والآخر بيديه المُلَطَّحَتَيْنِ بالدِّماء نسائر لحم تلو الأخرى من الجُنَّةِ أثناء انهماكه في تقطيعها، حتى مَرَّ بعض الوقت وقد قَرَعَ من تشريحها من اللحم عن آخره وَبَرَزَتْ كهيكَلٍ عظمي من قُبَالَتِهِ، ليتحرك جانبًا بِخُطَاهِ الثقيلة لِيَمِدَّ يده إلى كَوْمَةِ الجثث التي أحضرها الحراس للتو بينما يكمل هممته لِلخِئَةِ المفضل، فطالت يده "عبد الرازق" الذي ما زال يتظاهر بالمَوْتِ لِيَجْذِبَهُ من قدميه فيحمل جسده ليعتلي الطاولة، وحين سَرَعَ القَصَّاب في رفع ساطوره لِيبدأ تقطيعه، غَاقَلَهُ "عبد الرازق" بِصَرِيَةٍ من سِكِّينِهِ الذي كان مُحْتَفِظًا به بين طِيَاتِ ملابسه لِيَتَغَرَّزَ في رقبته، فلم يتمالك القَصَّاب نَفْسَهُ لِيُسْقِطَ ساطوره أرضًا وبرفع يده لِيَقْبِضَ بها على جرحه الغائر الذي تَفَجَّرَتْ منه الدِّماء، لِيَسْقُطَ على الأرض ينتفض جسده من غزارة الدِّماء التي تُلْقِظُ من طعنة رقبته.

لِيَلْتَفِتِ القَصَّابان الآخران مُتَبَهِّئِينَ على الفور لما حدث، فسارعا بالهجوم على "عبد الرازق"، لينتفض كلٌّ من "بيجاد، وغرير" من ادعائهما الكاذب في عُجَالَةٍ لمساعدة رفيقهما، لِيبدأ القَصَّابان في الصياح ومُتَادَاة الحرس بالخارج، لِيَثْب

"بيجاد" مُسرَّعًا في لمح البصر لِيُعْلِقَ الباب ويُوَصِّد مِزَاجه بِشِقِّ الأنفُس في وجه الحرس قبل أن يَدْلِفُوا لِلْمَحْفَر، فأخذ الحراس الستة بالخارج يُكَيِّلُون الركلات للباب بأقدامهم ويدفعونه بأكتافهم، في محاولاتٍ مُسْتَمِيتة للفتك بمن بالداخل دون جَدْوَى، لِيَنْشُب شِجَارٌ غَاشِمٌ بين الرِّفاق والقَصَّابين، فأمسك "بيجاد" أحد السكاكين المُلقاة جانبًا ليدافع بها عن نفسه في مواجهة كُتْلَة الشحوم من أمامه، والتي كانت على هيئة أحد القَصَّابين، قَبَطَش بِسِكِّينِهِ في ذراع القَصَّاب ليأتي بجرحٍ سطحيٍّ له، والذي لم يَزِدْ الرَّجُل عن توجيه ضربته نحو "بيجاد" الذي تراجع في عِجَالَةٍ منه بخطواتٍ للخلف لِيَتَقَدَّمَ القَصَّاب نحوه مُكْمِلًا هجماته، ليواجه الآخِران الرَّجُل الآخر في تشابكٍ بينهم، ليندم "عبد الرازق" على إقدامه في معاونه "غريز" في هذا النزال على الفور، فقد نالت أحد بطشات تَصُلُّ القَصَّاب أحد جانبيه لينغرز به في جرحٍ غائرٍ منه، ليشعر بآلامٍ رهيبة تجتاح جانبه، لينزوي بعيدًا عن الشِجار مُتَأَثِّرًا بجرحه ويترك رفيقه في مواجهة القَصَّاب وحده.

لم يكن "غريز" يحتاج مساعدة أحد له في ذلك التَّزال بالفعل، فكان يتراجع بخطواتٍ رشيقة للخلف مع كل إطاحة لِتَصُلُّ الرَّجُل من أمامه، لينتهز الأخير إطاعات القَصَّاب العَبَثِيَّة المتتالية بساطوره في الهواء، ليتقدم سريعًا قبل أن يُعيد القَصَّاب إطاحة إحداها ويلصق جسده بجسد الأخير لِيَدْفَع بِخَنْجَرِهِ في مَوْضِع القلب مباشرةً، لتتلاشى أي أوامر لأي فِعْلَةٍ تالية تأتي من عقل الأخير، وقد ألزم القلب المُمَرَّق الجسد بالخضوع له والمَوْتُ الفوري، ليتهاوى جسد القَصَّاب للوراء على الفور، وتهتز الأرض من أسفله إثر سقوطه الغاشم.

كانت قَوْرَة الدِّماء تشتعل في جسد "غرير" وتُحِثُّ عقله نحو تَشَوُّة القتل مرة أخرى، ليستدير على الفور للوراء ناحية القَصَّاب الأخير، وقد كاد أن يَفْتِكَ بـ "بيجاد" والذي شارف على إلصاق جسده بالجدار من خلفه جَرَّاء هجمات القَصَّاب الغاشمة، ليركض "غرير" على الفور وَيَثِب فوق ظهر القَصَّاب لِجَحِيط بذراعه حول رقبة الأخير لتتوالى ضربات يده الأخرى الممسكة بالخَنْجَر مُخترقة ظهره، فَعَلَا صُراخ الرَّجُل من الألم وهو يحاول إطاحة "غرير" بعيدًا عن ظهره، لتأتي محاولته بالاستدارة حول نفسه محاولًا إفلات من يعتليه دون جَدْوَى، لتستمر طعنات "غرير" له حينئذ دون هَوادة، ولكن لا زال ذلك الدُّب الضخم يقف على قدميه رغم كل ذلك، ليستجمع "بيجاد" شِتات أمره ويَهْرَع نحو القَصَّاب هو الآخر ويطعن بسِكِّينِه في بَطْنِه بجرحٍ عرضي، أبى أن يشق طريقة من ثنايا تلك الشحوم المتراكمة فوق معدته، ليحاول "بيجاد" إحكام سِكِّينِه بقبضتي يَدَيْه جاذبًا إياها جانبًا، لِتَشَق تلك الشحوم مُنْصاعة لِعَزْم سِكِّينِه في نهاية الأمر، وتَلْفُظ بأمعائه الغليظة خارجها لتتساقط كُتْلُها بين قَدَمَيْه نحو الأرض، وهنا أعلن جسد القَصَّاب عن استسلامه لمرارة المَوْت، لِيَخِر على ركبتيه بينما لا زال "غرير" يُكْمِل طعناته من فوقه بلا تَوَقُّف، لِيَهْوِي جسد القَصَّاب الأخير على الأرض دون حَرَكَ.

قام "غرير" من اعتلائه لظهر الرَّجُل المُلقَى على وجهه ليقف بصدرٍ تتقطع الأنفاس به، وهو ينظر نحو "بيجاد" الذي ارتسمت ملامح الحُزن على وجهه، فلقد قُتل جميع القَصَّابين دون أدنى فرصة لمعرفة أمر من جاءوا لنجدتهم، ليتحرك الاثنان نحو "عبد الرازق" الذي كان مفترشًا الأرض غارقًا في الدِّماء المناسبة من جرحه الغائر، لِيُعِيناه على النهوض مجددًا في مَشَقَّةٍ منه، لينظر الجميع من حولهم بأعينٍ طليقةٍ في المكان بحثًا عن أي أملٍ في إيجاد

صغيريهما، فوجدوا من الزنازين ما قد امتلأ بالأطراف الآدمية في عنايةٍ مُجَهَّزَةٍ لرحلتها الطويلة نحو (القاهرة) لِتَسْكُنَ بطون أثريائها، لينظروا بعد ذلك نحو أحد الزنازين الخاوية من البشر إلا ما جادت به أجسادهم من ملابس.

عشرات الملابس المُتَكَدِّسَة والدامية لأصحابٍ جُرِّدوا منها قبل أن يُجَرِّدوا من لحومهم هي الأخرى، وقبل أن تكتفي أعينهم من تفحص المكان وفُقدان أملهم الأخير، تنامى إلى مسامعهم صَوْتٌ عَلِقَ أحد الأبواب في الطابق العلوي، لينظروا نحو السُّلْمِ المؤدي إليه من جانبهم وقد أيقنوا أن مسعاهم لم يُكَلَّلْ بالفشل بعد، ليسارع "بيجاد" بصعود درجات السلم ليتبعه "غريز" ومن ورائهما "عبد الرازق"، لينتبهوا بغتةً لصَوْتِ باب المَحْفَرِ من خلفهم، ذلك الباب الذي لا تزال تُرج أركانه وقد أوشك أن يُقتلع من مكانه.

وقد بدأ مزلاجه في الانتفاض ومغادرة مَوْضِعِهِ، مُغْلَتًا قُرْبَ استسلامه لِطُشَاتِ حَرَسِ الشُّرْطَةِ العُلْوِيَّةِ، نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض في قلقٍ من أمرهم، ليبدأ الجميع بالنزول مرةً أخرى لمواجهة الخطر المُؤَشِّكِ على الإتيان.. الجميع قد تحرك عدا "عبد الرازق"، الذي وقف في مَوْضِعِهِ حائلاً إكمال نزول رفيقيه، لِيَصِيحَ به "غريز" محاولاً دَفْعَهُ من أمامه.

- "فلتتحرك جانباً أيها الجبان، ودعنا نتولى الأمر".

اهتز جسد "عبد الرزازق" المُتَسَمِّرُ في مَوْضِعِهِ إثرَ دَفْعِ "غريز" له، ولكن استمر وقوفه دون حَرَكَ رَغْمَ ذلك، لِيَلْتَفِتَ لرفيقه بعد ذلك وهو يتسم لما قد سمعه للتو، لينظر لهما مُكَمَّلًا:

- "لن يواجههم أحدٌ سواي يا رَفِيقَيَّ الدرب".

لم يفهم الاثنان ما يَصْبُو إليه "عبد الرازق" بحديثه، لَتَنَزَّاعٍ أَعَيْنَهُم حينئذٍ نحو صَوْتِ الباب الْمُتَصَدَّعِ، لِيُكْمِلَ "عبد الرازق" حديثه وهو يطيل يده نحو "غريب":

- "أعطني جَرَّتَيْنِ من جِلِّ النفطِ خاصتك".

فصاح به "بيجاد" على الفور في غضب:

- "عن أي هُرَاءٍ تتحدث؟ أنت لن تقدر على مواجهتهم بمفردك وسوف يطولك المَوْتُ إن لم نسا...".

بَرَّ "عبد الرازق" حديث "بيجاد" على الفور في جِدِّيَّةٍ تامةٍ من أمره:

- "لَتُكْمَلَا سَعْيَكُمَا وَلَتَتْرُكَانِي هُنا وَلَا تَعْبَأُ لِي هَمًّا".

لِيَجِلَ الحُزْنُ على نبرة صَوْتِهِ بينما يمسك بيده جانبه الدامي وقد أطالت الدِّمَاءُ نَزيفَهَا لَتُغْرِقَ أسفله وهو يُكْمِلُ:

- "سوف أكون خط دفاعكما الأخير.. فإني للحياة مفارقًا في القريب".

ثم عاد ليبتسم:

- "فلتكن تلك صيحتي الأخيرة في وجه أولئك اللعناء".

كان الجميع بما فيهم "عبد الرازق" يُدركون أن ما قد أصابه لا رَجْعَة فيه،
وقريبًا لن يَقْوَى على الحَرَكَ أو حَوْضِ طريق العودة في أي حال، فالمَوْتُ
يحصي الدقائق التي تفارقه عن لقائه في القريب، فكادت الدموع أن تَتَرَفَّقَ
من عينيه وهو ينظر نحو "بيجاد".. بينما ظل "غريز" مُلتزمًا الصمت لثوانٍ قبل
أن يخرج من جعبته جِلَّتَيْن من النفط ويناولهما إياه.

ترك "عبد الرازق" يده من جانبه ليحاول إحكام قبضة يده الوحيدة بهما،
فعجزت يده عن القبض عليهما، لِيُحِيط بهما بِقَصَبَة يده وهو يبتسم في مرارةٍ
لما آل الزمن به من عَجْزِه، فتحرك "غريز" ليجذب "بيجاد" من جِلْبَاهِ لِيُكْمَلَا
صعودهما نحو الطابق العلوي.

- "سامحني يا صديقي".

قالها "بيجاد" في أَسَى وهو يلتفت نحو رفيقه بالأسفل.. لِيُعَاود الصعود
فيتوقف بغتَةً قبل أن تطأ حُطَاه درجتين من السُّلْمِ إثر نداء "عبد الرازق" له،
حينها عاد لِيَلْتَفِتَ له مجددًا ليرى عينيه اللتين قد انساب الدمع منهما وهو
يتحدث بنفسٍ تكاد تجهش بالبكاء:

- "أحرص على أن تعيد ولدي سالمًا إن كان على قيد الحياة، وإن لم يكن..
فأحرص على الانتقام له وليّ".

لم يستطع "بيجاد" لَجْم الدمع عن عينيه مما سمعه للتو من حديث، لِيُؤْمِئَ له
بعهدٍ تَطَلَّه وجهه دون الحاجة لينطق به لسانه، قبل أن يُسارع الحُطَى مُكْمَلًا
للحاق بـ "غريز" نحو الطابق العلوي.

تابع وقتها "عبد الرازق" بنظره خطوات "بيجاد" المبتعدة لثوانٍ.. قبل أن يلتفت بعد ذلك مُتحرِّكًا بخطى هادئة نحو هدفه، لا يعتريه قلق انتفاضات الباب من أمامه، والذي قد لَقَطَ بأحد مفاصله من قُرْبِهِ للثو، ليقف قُرابة الباب ويضع بِقَصَبَةِ يده جِلَّتِي النفط نحو الأرض في حِرْص، ثم تحرك نحو أحد المشاعل المتوهجة نيرانها ليضعها على الأرض من جانبيهما، فلا يُباعِد بينهما سوى لفائح النيران التي تَتَوَقَّ لَتَطْوِلُهُمَا، لِيُعَاوِدَ إِحْكَامَ قَبْضَتِهِ عَلَى إِحْدَاهُمَا وَيَقِفَ مُنْتَصِبًا الْقَامَةَ مُشْخَصَ الْأَنْظَارِ نَحْوَ الْحَرَسِ الْمُشْرِفِينَ عَلَى الْوَصُولِ.

صعد الآخران إلى الطابق العلوي للثو، ينظران نحو جدرانهِ الْمُتَوَجَّعَةِ بِالمشاعل على جانبيها، تلك المشاعل التي لاحت لفائح إطفائها وقد أَحْمَدَ نيرانها أَحَدَهُمْ قبل قليل، ليتوجها بنظرهما نحو الباب الوحيد الذي تُؤَدِي الجدران إليه ولا يُسْمَعُ لِمَنْ بداخله من صَوْتٍ، لِيُدْرِكَا أَنَّ مَنْ يجلس خلف ذلك الباب هو شخصٌ أَمَلَّ أَنَّ يُسْتَرَّ أَمْرُهُ وَلَا يُفْتَضَحَ لهما.

توجه الاثنان نحو الباب، لِيَتَحَسَّسَ "غريز" الباب بيديه لثوانٍ قبل أن يُلاقِي كَتْفَهُ جَوْفَ الباب، ليتحرك "بيجاد" ليجاور مَوْضِعَهُ وتتوالى دفعات أكتافهم نحو الباب الشامخ من أمامهما عدة مرات، حتى آلمتهما أكتافهما من هول ملاقاته، لِيَجِدَا الباب عازِمًا عَلَى أَلَا يَرُدَّ لاختباء صاحبه من خلفه مَطْلَبًا.

أَمْسَكَ "غريز" حينها بِكَتِفِ "بيجاد" لِيُبَاعِدَ بينهما وبين الباب قرابة المترين، لِيُعِيدَ إحياء لهب إحدى المشاعل وَيُخْرِجَ بِجِلَّةٍ تَقُطُّ مِنْ عِبَائَتِهِ وَيُلَاقِي قُماشَ قُوَّهِتِهَا بِهِ لِيشتعل على الفور، فتراجعا بضع خطواتٍ إضافية لِيَقْذِفَ "غريز" بها في صدر الباب، لِيَلْتَصِقَ النفط المشتعل به ويبدأ في تَهْشِ حَشَبَتِهِ الذي

تَلَوْنَ يَحْمَرَّةَ الْجَمْرِ وأخذ في التآكل لثوانٍ قليلة حتى تَبَدَّلَ لُحْطَامٍ مشتعلة، لينهار الباب من أمامهما بعد ذلك.

لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى بدأت نيران الخشب المشتعلة في الخفوت بعد تَيْلٍ مُرَادَهَا، لِيَعْبُرَ الاثنان من فوق حُطَامِ الباب ويدلفا لداخل الغرفة في النهاية، لِيُبْصِرَا من قد انزوى في أحد أركانها في صمتٍ منه.

نظر الرَّجُلَانِ من حولهما للغرفة التي إِكْتِنَزَتْ بزكائبٍ من الدراهم المُلقاة، والتي أُلْقِيَ بعضها بجانب طاولة تَكَدَّسَتْ أوراقٌ عدة من فوقها، بينما يقف رجلٌ نحيل الجسد في أحد جوانب الغرفة.. أَلْجَمَتِ الرهبة قَمَه عن الحديث، يطالعهما بَبَصَرِهِ في تَرَقُّبٍ.

وقف "غريز" على مَدخل الغرفة يراقب الأخير، بينما تحرك "بيجاد" بِخُطَاه نحو الطاولة لِيَجْذِبَ أُولَى الأوراق من فوقها ويبدأ في قراءة ما تحويه سطورها لثوانٍ، لِيَجِدَ سطورًا مَخْطُوط بها أسماء عائلات ثَرِيَّة تسكن مُدن عدة، يقابلها عدد من الأموال وتنتهي بِخَصَرِ عدد الزاد المُرسَل إليهم.

- "لَيْسَ تجارتك أيها اللعين".

همهم "بيجاد" بكلماته في غضبٍ منه وهو مُنكب النظر مُكْمَلًا مطالعتها، لِيُقَاجَأَ بِالرَّجُلِ وهو يَهْرَع نحو "غريز" شاهراً سِكِّينَهُ نحوه، ليلاقى قبضة الأخير في وجهه. فيتراجع خطواتٍ للخلف مُتَعَثِّراً بالأرض بينما يمسك بأنفه الدامي مُغمض العينين في ألمٍ جَلِيٍّ.

- "أين طباخ القطائع؟ ماذا فعلتم بحصيلة سُجَّانِ المصامدة؟".

صاح "بيجاد" بكلماته بينما اقترب بخطاه الغاضبة نحو الرَّجُل، ليتراجع الرَّجُل
ويزحف للخلف دون أن يُجِيبه.

أسرع "بيجاد" حينئذٍ بالتحرك نحو "غريز" ليجذب خِنَجَرَ الأخير من عَمْدِهِ،
ويلتفت عائدًا ليجثو على الأرض هو الآخر وبغرز الخِنَجَر لِيَشُقَّ طريقة في
فخذ الرَّجُل بقوة، فيصرخ الأخير بصيحة ألم تناجي السَّمَاء.

- "أين سُجَّان المصامدة؟".

أعاد "بيجاد" سؤاله في ثورة غضبٍ منه بينما دفع بالخِنَجَر لِيَلْوِي تَصْلَه الساكن
في اللحم، فَجَزَّ الرَّجُل أَلَمًا، وهو يعلم أنه لا طائل من أي حديثٍ يجيب به،
فالتزم الصمت بينما كان يغمض عينيه.

- "فلتجيبني أيها الكلب الغادر عما حَلَّ بهم.. فلعلك بكلماتك تُقَصِّر وقت
معاناتك قبل أن أذيقك المَوْتَ".

قارب "بيجاد" وجهه ناحية الرَّجُل في حديثه الأخير، لِيَقَهِّقَه الرَّجُل ضاحكًا في
سخريةٍ امتزجت بتعابير وجهه المتألم، ليفتح الأخير جفنيه المُعْلَقَيْن من ألمِ
مُعاناتِه وهو ينظر نحو "بيجاد"، لِيُذِيقَه مرارةً أشد قسوة مما يعانيه، لينظر له
في تحدٍ منه وهو يُجِيبه أخيرًا:

- "لقد باتوا على قائمة الطعام تلك للتو".

نظر "بيجاد" نحو يد الرَّجُل بينما يشير نحو الورقة الأخيرة التي كان يطالعها
منذ ثوانٍ.. والتي أهملها على الأرض من جِوار الطاولة، لتَجَحَّظ عيناه في

حزنٍ منه وقد أدرك أن قراءته السابقة كانت تحتوي على جسد أخيه، لتُشرد عيناه بصدمة الحُزن لثوانٍ قبل أن ينهض سريعًا وهو يجذب الخنجر من فخذ الرّجل، ويُسارع بالركض من جوار "غريز"، والذي نظر نحوه في تعجبٍ من رحيله مُبهم السبب.

ركض "بيجاد" من جوار رفيقه ليُسرع الخطى نحو درجات السلم المؤدية للطابق السفلي وقلبه يتضبط بأملٍ زائفٍ طالما صاحَب روحه وعقله، ليُقابل عقله صدمة عينيه مما أبصره فور وصوله للأسفل، ليجد عند عتبة باب المَحْفَر بضع الجثث المحترقة تفوح منها نساءم رائحة اللحم المشوي، لم يستطع حينئذ تمييز أصحابها من بعيد، ليتحرك بخطى مترددة لم تُردِّ لعقله أن يُدرك ما قد حلَّ بصديقه.

بضع دقائق قد مرت على الحدث الأخير الذي لم يكن يُدرك الرفيقان في الأعلى حدوثه، فقد كان "عبد الرازق" يقف حينها قُبالة باب المَحْفَر، والذي لم يُخلف بوَعده في الانصياع لحرس الشُّرطة بالدِلوف، ليَهْوِيَ الباب ويتدافع ثلاثة منهم للعبور نحو "عبد الرازق"، والذي قد انكفأ على الفور ليُلامس قُوَّهه جِلَّة النفط بنيران المِشْعَل ويُقيد نيرانها ويُطيح بها في وجوههم، لتتَحَطَّم على الفور ويلتصق نَفْطها المشتعل بهم لِيَلْتَهُمُهم، فيصرخون من ألم نيرانها وهم يُوقِدون أحياءً، فتتهاوى جثثهم عند عتبة الباب قبل أن تخطو أقدامهم للداخل، ليقفز أحد الحرس في شجاعةٍ منه فوق جثث رفاقه المُحترقة أملًا في أن يُباغت "عبد الرازق" بسيفه، لِيَجْتُوا الأخير سريعًا لِيُشْعِل جِلَّة النفط المتبقيَّة على الفور وَيَنْصُب من قامته ليرفعها عاليًا بينما يعزم من قبضة يده للإطاحة بها، لِيُباغت النَّصْلُ يد "عبد الرازق" فَيُلامِس النَّصْلُ جِلَّة النَّفْط ويتحطم الفُخَّار

الذي يقبض على سائلها بداخله، ويشتعل على الفور ليُغرق "عبد الرازق" في نيرانٍ مُستعرة دون أن يطول لهيبها العدو من أمامه.

لا زالت روح "عبد الرازق" تطالب بمطلبٍ أخير وسط الألم الذي يصرخ به جسده وعقله، مطلب تنفيذ وَعْدِهِ لهما بأن يكون مَوْتُهُ هو صيحته الأخيرة في مواجهة الظلم، ليُنصاع جفناه لغضبه فيرفض عقله غلقهما مرة أخرى بعد أن أجبره الألم على ذلك، ليُشخص النظر نحو الرَّجُل ويُلقى بجسده المشتعل نحو الأخير ويحتضنه ليلتصق به دافعًا إياه للخارج، ليجتو فوق الحارس ويذيقه التصاق السائل المشتعل به، فيصرخ الرَّجُل من ألم ملاقة جسد "عبد الرازق" المحترق بينما أوفى الأخير بصيحته الأخيرة في النهاية.

ليبصر الحارسان المتبقيان في الخارج الأمر، واللذان قد تراجعا في خوفٍ منهما فور رؤيتهما لاشتعال جِلَلِ النفط بأجساد رفاقهما، ليشاهدا جسد رفيقهما الأخير الذي انتفض من الداخل مُلتصقًا بنيرانٍ تشتعل في جسد الشخص المجهول دون عِلْمِهما بعدد بَقِيَّةِ رفاق الرَّجُل الغامض، خاشيئين أن يكون في حوزتهم ما يكفي من جِلَلِ النفط ليُحقيق بهما المَوْت هما الآخرين، لتمر ثوانٍ من وقت تَسْمُرهما دون حَرَائِكٍ فور رؤيتهما للمشهد الأخير، فيقررا أن يؤثرَا نجاة أرواحهما على أية حماقة يُقَدِّمان عليها تاليًا، لِيُؤْذِ أقدامهما بالفرار على الفور من المكان، مُتَقَبِّلِينَ أي مصيرٍ آخر دون ما قد حل برفاقهما للتو.

أكمل "بيجاد" حُطَاه المُتوجسة قابضًا على خِنَجَرٍ "غريز" بيده، متأملًا الجثتين المُتَفَحِمَتَيْنِ عند عتبة الباب، بينما حَبَّت النيران بأجسادهما فلا يُرى لها سوى البصيص، لِيَعْبُرَ من فوقهما نحو الخارج لِيُبْصِرَ الجثتين الآخرين، واللتين

ألصقتهما ببعضهما النيران التي لا زالت لم تُغادرهما بعد، لِيَتَبَيَّنَ الْجُثَّةُ المشتعلة صاحبة اليد الواحدة الجاثية فوق الأخرى، لِيُعْتَصِرَ قلبه حزناً على المصير الذي لاقاه "عبد الرازق" في النهاية.

التفت "بيجاد" حينها لِيَدْلِفَ للداخل مجدداً، ليستكمل مسعاه الذي أجبره على ترك الآخَرَيْنِ في الأعلى قبل أن يباغته هَوْلُ ما حدث بالأسفل منذ قليل، لِيُسْرِعَ بِخُطَاهُ نحو الزنزانة التي تحتوي على ملابس ضحايا سُعار الجُوع بالنفوس، لِيَدْلِفَ للداخل يبحث عن أَمَلِهِ الرَّائِفِ مرة أخرى.

لا أحد يعلم سبب الأمل الرَّائِفِ الذي لا يُبارحه، فلطالما أجبره عقله على التصديق بأن المَوْتَ لم يَطُلْ أخويه مهما حَدَّثَتْهُ الوقائع بغير ذلك، فأخذت المبررات الرَّائِفة والواهية تَجُولُ بعقله مجدداً، فلربما كان يُحَدِّثُهُ الرَّجُلُ بالكذب نكاية به لِيُذِيقَهُ المرار قبل موته، ولربما لم يُطِيقَ قَصَّابُ أن يطول تَصْلُهُ جسد طفلٍ بريء فخبئه بعيداً وأعتقه من المَوْتَ، ولربما قَرَّرَ الطَّبَّاخُ عدم جَدْوَى قتل صغيرٍ لا يُسمن أو يُغني عن جوع، مقارنةً بِكَوْمَةِ الأجساد البالغة بالداخل، فأطال وقت موته حتى يحتاج إليه.

فَكَّرَ لا يصبو للواقع في شيء، مُغْلَفٌ بنظرياتٍ واهية وافتراسياتٍ عَبَثِيَّةٍ بات ينسجها له دَوَّماً عقله المريض بالأمل، ولكنها لطالما كانت هي الحائل بين عقل "بيجاد" والجنون طيلة الفترة الأخيرة.

دَلَفَ حينئذٍ إلى داخل الزنزانة سريعاً ليتفحص كَوْمَةَ الملابسِ المُهْتَرئة والغارقة في الدِّماء، مُنتظراً غياب ملابس أخيه عنها، لِيُبْعَثِرَها يميناً ويساراً حتى فرض الواقع المرير نفسه أخيراً، لِيَجْذِبَ أحد القطع المُلطخة ببقع

الدِّماء والتي كان يرتديها شقيقه آخر مرة رآه بها، ليقبض بيده عليها بينما تنساب دموعه بغزارة وهو يقاربها نحو أنفه ليشتمها، فيجْهَش بالبكاء حسرةً ومرارة على فقدان أخيه، لتجتاحه مَوْجَةٌ عارمةٌ من الجنون والغضب، ليتَّحرك للخارج وهو يقبض على مَلَبَسِ أخيه مُمَسِكًا بِخِنَجَرٍ "غريِر" بالأخرى مُعاوِدًا الصعود للطابق العلوي.

دَلَفَ "بيجاد" نحو الغرفة بالأعلى لِيَلْتَفِتَ "غريِر" ناحيته فيبصر يده المُمسكة بملبس أخيه، فأدرك على الفور ما قد حَلَّ به، لِيَلْزَمَ الصمت وهو لا يعلم ما سوف يَحِلُّ الآن من أمر.

وقف "بيجاد" بجوار رفيقه مُشخص النظر نحو الرَّجُل المُلْقَى في الأرض، والذي قد بادله بنظراته الساخرة، ليقف "بيجاد" مُتَسَمِّرًا في مكانه في صمتٍ لثوانٍ قبل أن يُفلت من يديه خِنَجَرٍ "غريِر" ومَلَبَسِ أخيه ليقعا على الأرض من جواره، ليمد يده نحو "غريِر" في صمتٍ بينما لم يبتعد ببصره عن الرَّجُل من أمامه، لِيَنْظُرَ "غريِر" نحو يد رفيقه لِيَعْلَمَ مبتغاه، لِيَلْتَفِتَ عائدًا للخارج ويُسارع بالقدوم بالمِشْعَل الذي قد أَوْقَدَ نيرانه منذ قليل..

ليقف بجانب "بيجاد" ويخرج بِجِلَّةٍ نَفْطٍ من عباءته ويشعل فتيلها ويناولها إياه، حينها أمسكها "بيجاد" بيده ليقبض بيده الأخرى على قُماشها المشتعل فيخنق نيرانها بين أصابعه ويطفئها، ليباعد يده للوراء في عزمٍ منه ويقذف بِجِلَّةِ النَّفْطِ نحو الرَّجُل راجِمًا إياه بها بقوة لتتحطم إثر اصطدامها بِقَكِهِ السُّفْلِي، وتغرق وجهه وصدره، حينها تراجع الأخير ليلتصق في الجدار من خلفه بينما يمسح النَّفْطُ من جَفَتَي عَيْنِهِ في خوف، وقد ظهر في النهاية معدنه الحقيقي.

ليمد "بيجاد" يده مرة ثانية نحو رفيقه، ليأتي له بجِلَّة تَقُط أخرى ويوقدها ويعطيه إياها، فأتت أصابع "بيجاد" مجدداً لتَقْبِض على قُماشها المُشْتَعل الذي أَلْهَبَ أصابعه دون أن يعتري للألم من أمر، لِيَقْذِفها بكل قوة لتَتَحَطَّم فور مُلاقاتها لِصَدر الرَّجُل وتنهال على صَدْرِهِ وَبَقِيَّة جِسمه، لَتُعِيد يد "بيجاد" مَطْلِبها مرةً أخرى قَيْلَبِّي "غرير" أَمْرها مُجدداً ويُوْقِد بجِلَّة النَّفْط الثالثة، ولكن قبل أن تُسارع أصابع "بيجاد" في إطفاء قَتِيلِها، بَتَر "غرير" فِعْلَتِهِ وهو يُحَدِّثه:

- "تلك هي الجِلَّة الأخيرة".

فالتفت "بيجاد" نحو رفيقه لينظر له بقسوةٍ وكأنه قد حَرَمَه من لَدَّة الانتقام للتو، لَتُعِيد النظر نحو الرَّجُل الذي أخذ ينظر نحوهما في صمت، وبصدرٍ ازداد خفوقه قَرَعًا مما هو آتٍ.

حينها أطال "بيجاد" النظر نحوه متمعنا به لثوان، قبل أن يُرجع من يده وَيُطِيعُهَا للأمام بقوة نحو مَوْضِع جلوس الرَّجُل، فتنال عيناه نَشْوَة التَّشَقِّي مما قد حَلَّ به.

بحرّ من اللهب قد اسْتَعِر بِالرَّجُل لِيَعْرِق في نيرانه المشتعلة، عَوَى الرَّجُل بصرخاتٍ تُرج لها أركان الغرفة، يَتَمَرَّغ بالأرض من أسفلِهِ وهو يُشَوِي حَيًّا، يحاول بيديه إطاحة النَّفْط المُشْتَعل بوجهه في يأس، فينسلخ اللحم من وجهه فور ملامسته إياه، يحاول صدره أن يشهق للصُّراخ مجدداً فيبتلع من السائل المُشْتَعل أَوْجُهه، يكاد يُرى عظام ذراعيه وقد أذابت النيران لحمها وهو يطيحها في الهواء أَلَمًا، بينما يَرْفُص بِقدميه في الأرض من الألم، فلا تتهاون النيران في التهامها.

تراجع "غريـر" للوراء قليلاً لِيُؤَارِبَ عَيْنِيهِ مِنْ صَهْدِ اللَّهَبِ الْمُشْتَعْلِ بِالرَّجُلِ،
بينما وقف "بيجاد" جاحظَ الْعَيْنَيْنِ مُسْتَمْتِعًا بِكُلِّ لَفْحَةٍ صَهْدِ تُصِيبُ وَجْهَهُ، كانت
صرخات الرَّجُلِ بِمِثَابَةِ لَحْنٍ يُشَفِّفُ أَذَانَهُ وَيَسْتَمْتَعُ بِكُلِّ تَفْصِيلَةٍ بِهِ، لتخبو
صرخات الرَّجُلِ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَخْبُو مَعَهَا سَعَادَةُ "بيجاد" الَّتِي مَلَأَتْ قَلْبَهُ وَأَشْفَتْ
غَلِيلَ نَفْسِهِ، وَقَدْ تَحَوَّلَ الرَّجُلُ لَكُتْلَةٍ مُتَفَحِّمَةٍ تَأْبِي النِّيرانَ تَرْكُهَا لِلْحِظَةِ
وَاحِدَةٍ.

- "لقد انتهى الأمر.. لنرحل عن هذا المكان اللعين".

أَقْبَضَ "غريـر" عَلَى كَتِفِ "بيجاد" لِيُفِيقَهُ مِنْ جُنُونِ عَقْلِهِ، لِيَتَحَرَّكَ لِمُرَافَقَتِهِ
لِلخَارِجِ وَقَدْ انْتَهَى الْأَمْرُ فِي النِّهَايَةِ، تَحَرَّكَ الْاِثْنَانِ عَلَى دَرَجَاتِ السُّلْمِ لِيُشَارِفَا
نِهَايَتَهُ، لَتَتَسَمَّرَ قَدَمَا "بيجاد" عَلَى الْفُورِ فَوْقَ إِحْدَاهَا وَقَدْ التَّقَطَّتْ أَذَانُهُمَا
صَوْتُ سُعَالٍ أَحَدَهُمْ، لِيَتَبَادَلَا النِّظَرَاتِ سَرِيعًا وَيُبْحَثَانِ عَنْ صَاحِبِ ذَلِكَ
الصَّوْتِ.

زَنْزَانَةٌ صَغِيرَةٌ تَقْبِعُ خَلْفَ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ، وَالَّتِي لَمْ يَبْصُرَاهَا مِنْذُ قَلِيلٍ أَثْنَاءَ
بَحْثِهِمَا فِي الْجَوَارِ قَبْلَ أَنْ يَلْتَهِيَا فِي أَمْرِ الرَّجُلِ بِالْأَعْلَى وَيَغْفِلَانِ عَنْ مَوْقِعِ
تَوَاجُدِهَا، لِيَلْتَفِ الْاِثْنَانِ إِلَيْهَا وَيَرْتَبَّانِ بِهَا عِشْرَاتِ الْأَطْفَالِ الْمَرْضَى بِالْوَبَاءِ مِنْ
مُخْتَلَفِ الْأَعْمَارِ، يَنْزُؤُونَ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا فِي خَوْفٍ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ أُفْضِيَحَ أَمْرُهُمْ
مِنَ الرَّجُلَيْنِ، وَالَّذِينَ حَاولُوا التِّزَامَ الصَّمْتِ وَالتَّوَارِي طِيلَةً ذَلِكَ الْوَقْتِ عَنْهُمْ،
خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُمَا شَأْنًا مِنْ يَحْتَجِزُونَهُمْ.

نَظَرَ "بيجاد" نَحْوَ "غريـر" لِيَحْدِثَهُ سَرِيعًا فِي أَمَلٍ أَطْلَ مِنْ عَيْنِيهِ الْحَزْبَتَيْنِ.

- "قد يكون صغير عبد الرازق بالداخل".

ثم تحرك سريعًا نحو مِقْبَضِ الزنزانة ليعبد موصده قبل أن يُوقِّعه "غريز" بحديثه الجاد:

- "إن كان صغيره بهم فهم موتى جميعًا في كل الأحوال، وإن دَلَقْنَا للداخل فسينالنا المرض ونلحق بهم أيضًا".

لم يُبَالِ "بيجاد" بحديث الأخير لئُسَارِعَ في تمزيق قطعٍ من قُماشِ جلبابه ووضعها حول وجهه، ليحكم من إحاطتها لأنفه وفمه دون عينيهِ، لِيَزَقِرَ "غريز" في حَتَقٍ منه ويُسَارِعَ بالأمر هو الآخر.

أطاح "بيجاد" بِمَوْصِدِ الباب بعيدًا في عُجَالَةٍ من أمره لِيَدْلِفَ للداخل سريعًا، ليتربص النظر ويتناقله بين الأطفال من أمامه، والذي أخذ بعضهم بالبكاء في خوف فور اقتراب الاثنان منهم، بينما تخلى البعض الآخر عن خفوت سعاله ليعلو به ويُرِيح صدره من معاناته.

تخافت الأمل في صدر "بيجاد" تدريجيًا بعد أن أدرك عدم وجود صغير "عبد الرازق" بينهم، ليوثق بأنه قد لحق بمصير أخيه هو الآخر.

- "فلتخرجوا من هنا على الفور، اهربوا أيها الأغبياء".

صاح "بيجاد" بهم في قسوةٍ مصطنعة وهو يقترب منهم، لينفزع الأطفال وتتعالى صرخاتهم الخائفة، لتتوالى الأقدام بالهرب من جوارهما مندفعة نحو

الخارج، تقدم "غريز" بخطاه نحوه ليحدثه وسط هرب الأطفال من جانبهما وهو يُدرك المقصد من فعلته:

- "إنهم موتى لا محالة في كل الأحوال".

فأجابه "بيجاد" بنبرة حزينة:

- "أيًا كان المصير الذي ينتظرهم فسوف يكون أفضل من أي مصير يلاقونه في هذا المكان اللعين".

استدار "غريز" نحو بوابة الزنزانة ليتقدم ببطء من وراء آخر طفل يَهْرَع للخارج، ليجد "بيجاد" ينادي إياه لِيَلْتَفِتْ له مجددًا لينظر نحوه فيجده يقترب من جسد طفلٍ مُلقًى على الأرض بجانب أحد الجدران.. وقد تَبَيَّن وجوده فور انتفاض بَقِيَّة الأطفال عن المكان.

تحرك الاثنان نحو الطُّفْل وقد أصابه الإعياء الشديد من مرضه الذي بدا أنه يسكن جسده منذ وقتٍ طويل، لِيُشارِفَ أعتاب مُنازعة المَوْت في أي وقتٍ من الآن، فاقترب "بيجاد" لِيَجْثُو نحوه، ولكن ما أن أبصر "غريز" الطُّفْل حتى توقف في مكانه بغتَةً، لِيَلْتَفِتْ "بيجاد" برأسيه ناحيته ينهره بنظراته، ليتحرك بخطواتٍ مُسْتَحِيَّة حتى جاوره، لِيَجْثُوا الاثنان مُلْتَمِي الوجه من جِوار الطُّفْل المريض.

كان الطُّفْل ذو السبعة أعوام من عمره يتمدد على الأرض مُغلق العينين بِجَبِينٍ يَتَصَبَّب عرقًا وبشور مُتَقَيِّحَة ملأت وجهه ورقبته، بينما تلاحقت أنفاسه ذهابًا وإيابًا داخل صدره، فأمسك "بيجاد" بجانب جِلْبَاهِ ليمسح بِقُمَاشِهِ جَبِينِ

الصغير، فانتفض جسد الأخير خوفًا دون قدرةٍ على الحَرَكَ، حينها نظر "بيجاد" نحوه في حنوٍ وهو يُحدثه:

- "لا تقلق أيها الصغير.. فأنت بأمانٍ الآن".

ثم التفت نحو "غريز" بينما يُثقل الأسى روحه، قبل أن يتحدث الصغير في إعياءٍ منه بنفسٍ أَجْهَشَتْ بالبكاء:

- "أريد أمي".

لِيُرَبَّت "بيجاد" على صدره وهو يُجِيبُهُ بما يشتاقي لسماعه:

- "لقد أرسلنا في طلبها بالفعل، وقريبًا سوف تأتي إليك.. فلتَسْتَرِح حتى وقت مجيئها".

عَالَب الطُّفْلُ البكاء لِيُكْمِل نَحِيْبَهُ دون توقف، فسارع "بيجاد" بمحاولة إلهائه عن البكاء لِيَقْوَذَ ذَهْنَهُ في حديثٍ لغوٍ منه وهو يُكْمِل:

- "أنا أَدْعِي بيجاد.. وبرفقتي صديقي غريز".

ثم عاد ليحدثه:

- "ما اسمك أيها الصغير؟".

هدأ بكاء الصغير قليلًا وهو يجيبه:

- "عُدِّي".

ابتسم "بيجاد" لما أحرزه من تقدمٍ في مَسْعَاهُ لِإِلْهَاءِ الطُّفْلِ عَنْ بَكَائِهِ لِيُكْمِلَ:

- "كيف أتيت إلى هنا أيها الصغير؟".

ليجيبه الصغير بأنفاسٍ مُتَبَاطِئَةٍ:

- "لقد أتيت من (الفسطاط) في إحدى الجِرارِ إلى هنا".

استرعى انتباه "بيجاد" على الفور حديث الصغير، لِيُسَارِعَ بِسؤاله دون ترددٍ منه:

- "عن أي جِرارٍ تتحدث؟".

- "لقد أتيت داخل أحد الجِرارِ المُحَمَّلَةِ على ظهورِ جِمالٍ ترتحل مع أحد القوافل".

استدار "بيجاد" بوجهه نحو رفيقه، ليجد "غريز" مُنْصَبَ النظر في اهتمامٍ للحديث الأخير، فعاد لِيُحَدِّثَ الصغير في استجوابٍ منه دون رَأْفَةٍ بِحَالِهِ، لِيَسْأَلَهُ في اهتمامٍ جَلِيٍّ:

- "فَلْيَتَصِفْ لي حال تلك القافلة.. من هم رجالها وما هو مسعاهم".

ليجيبه الصغير مكملًا:

- "كانت قافلة كبيرة يُصاحبها رجالٌ كُثُرٌ مُسلَّحون، أتوا من جَوْفِ الصحراء ليُوصِلُونَا إلى هذا المكان".

ثم عاد للحديث وهو يتلع ريقه بصعوبةٍ ليُكْمَل في مرارة:

- "لقد بكيت قَور دلو في إلى إحدى تلك الجِرار ولم أَطِقْ المكوث بها، ليأتي لي رجلٌ يختلف عن أولئك الرجال المسلحين، ليُعيدني إليها في النهاية بأكاذيبه".

توقف الطُّفْل لثوانٍ عن الحديث، ليُجِبره "بيجاد" على البَوح بالمزيد:

- "فلتُخبرني أيها الصغير.. ما اسم هذا الرَّجُل؟ هل تعرف أي أمرٍ عنه؟".

- "لم يَفْصَح لي عن اسمه".

صمت الطُّفْل لثوانٍ ليَبُوءَ مطلب "بيجاد" بالفشل، بينما ارتسمت علامات حَيَبَةِ الرجاء على وجهه، ليُعِيد الصغير الحديث بغتةً وهو يُكْمَل:

- "ولكنني رأيت به ما لم أره يومًا بأحدٍ من قبل".

ثم صمت لثوانٍ وهو يتذكر قائلاً:

- "لقد أخرجني من الجَرَّة ذلك الرَّجُل الذي طَنَّت في هيئته العجز، ولكن ما أن اقترب بوجهه مني حتى أبصرت صغر السن به".

تسمر "بيجاد" في مَوْضِعِهِ وقد جحظت عيناه وقد أدرك مرارة ألم الغدر، لينساب ألم عقله نحو جسده على الفور، لِيَتَكَسَّ رأسه للأسفل نحو جانبه ليجد حَنْجَرَ "غريـر" ينساب نحو كَبِدِهِ حتَّى وصل إلى مَنَبَتٍ مِقْبَضِهِ، ليرفع رأسه نحو الأخير في ألمٍ منه.. ويتراجع بظهره للوراء ليفترش الأرض من جواره بعقلٍ لا يعي صدمة ما قد أدرك جسده للتو.

تأمل "غريـر" جسد "بيجاد" المُلْقَى أرضًا لثوانٍ في صمتٍ منه، ثم التفت نحو الطُّفْل ليحدثه قائلاً:

- "عُدِّي.. لم أتوقع رؤياك مرة أخرى أيها الصغير".

تَبَيَّن الصغير صَوْت "غريـر" والذي سبق وأن خدعه ذلك الصَّوْت ليأتي به إلى هنا، فارتعد الطُّفْل في خوفٍ أحاق بمثاته لتنفجر بمائها وتُغْرِق ملابسه، ليتأمل "غريـر" حاله لثوانٍ ويقترب نحو جسد صديقه المُتَمَدِّد في ألم، بينما بدأت عيناه بالانزياح قليلاً، ليتوجه "غريـر" بحديثه نحوه في نبرةٍ أحكمها الجمود:

- "لم أرد لك المَوْت على يدي يومًا.. ولكن لن يُذاع لي سرٌّ مهما كلف الأمر".

شارف عقل "بيجاد" على مغادرة الوعي وهو ينظر نحو السقف من فوقه، وبجسدٍ يقوى بالكاد على الصمود ليكمل من أنفاسه المتباطئة، ليستطرد "غريـر" الحديث له في سخريةٍ منه:

- "لعن الله ذلك الصغير الذي جعلك تدرك حقيقة الأمر.. فقد انْطَلَيْت جميع حُدُعي عليكم جميعًا، حتَّى والداي اللذان لم يَظُنَّا السوء بي يومًا، لقد صَدَّقَا

ما قد أخبرتهما به يوم أن رأيتموني برفقة أحدهم وبصُحْبَتِهِ الطُّفْلُ الذي سَلَّمَهُ والداه ليّ، بعد أن أشاع رفاق اللَّيْل في الجِوار خِداَعَهُم بترحالي للصغار إلى بَرِّ الأمان".

ثم عاد لِيَذْلُو يَدْلُوهُ مُكْمَلًا:

- "كنت أُتاجر بلحوم أطفال سَاكِنِي الرُّقَاق ومجاوريه، أولئك الحَمَقَى الذين يُؤْفُون بِصُكُوك ديارهم مُؤَدِّعِينَ صغارهم نحو مثواهم الأخير، ولكن لم يكن ما نتحصل عليه من توصيلهم للأفواه الجائعة في المدينة يكفي، لِيَبْتَسِمَ الحظ ليّ ويجد "الحكم بن أبي الصَّلَت" طريقه إليّ، كان ذلك الرَّجُل يحكم تجارة بيع اللحم الآدمي في (الفسطاط) ومجاوريها بقوافله الكبيرة، يُقاد بالأموال الغزيرة التي يَبْذِلُهَا الأثرياء لِمَلء بطونهم الجائعة ليعيشوا من العُمُرِ أَمَدَّهُ، قَصِرْتُ يده اليمنى في تجارة (القطائع) بمعاونة رفاقي من أشقياء اللَّيْل، وحين تدبرتم أمر هربي من السجن لاح لي فرصة جديدة حين علمت بأمر صاحب دار (ابن مرزبان) ولقائه بالرَّجُل الغامض، فعزمت على الاتفاق معه على أن يوصلني بهذا الأخير، لقد تَطَلَّب الأمر كَيْلَ بعض اللكمات له لخداعكم وقت رحيلكم، لَأَصْبُوَ لمرادي بعد ذلك وتتسع تجارتي لأصل إليه بضائعه هو الآخر".

ثم توقف عن الحديث في ثوان وهو يتذكر أمرًا قبل أن يعاود الحديث في سخرية:

- "لقد أَسْقَرَ سَعْيِي في قتل ذلك الصَّبَّع بتصديق "عبد الرازق" لي وائتماني لإيصال صغيره نحو حَنَفِهِ دون أن يعلم بالأمر، لِيَبْتَسِمَ الحظ ليّ ويتعهد الشَّيْخ

الغبى بإيصال المزيد من أطفال الأزقة والحواري لقبضة يدي".

ثم شَرِدَ قليلاً وهو يُكمل:

- "ولكن لبُئسَ تجارتي التي حُكِمَتْ بِـ (الفسطاط) دون غيرها، فقد عُلِّتَ مَسَاعِيَّ في توسيع تجارتي مع "أبي الصلت" إلى أبعد من ذلك، فقد كان له مساعدٌ آخر يحكم قبضته على غالبية تجارة المُدن المجاورة، والذي اشتهر بِمَوْضِعِهِ في (القطائع) لِيَحْوَزَ شهرته كطَبَّاخِهَا".

لِيَحْدِثَ نَفْسَهُ في سخرية:

- "لم أكن أعلم أنه مجرد مُصْطَلَح أُطْلِقَ على شخصٍ شاذٍ الفكر، عَرَقَتْ يداه في الدِّماء دون أن تطأ لها مَوْضِعًا، يجمع تحت إِمْرَتِهِ من يعاونوه على تنفيذ تجارته واستحقاق مكانته كأهم أعوان "أبي الصلت" في البلاد.. لَكَمْ تَمَيَّيْتُ المَوْتَ لهذا الغريم الغامض دون أن أجرؤ على ذلك الأمر، لِيَسْتَمِرَّ حُسْنُ حظي وتَلَوِّي بذراعي مُكْرِهًا إياي نحو مسعاك شاهراً في وجهي راية الإفلاس في كل ما جَمَعْتُ طيلة تلك الفترة والبدء من جديد".

ثم نظر نحو وجه "بيجاد" بينما ينهض من جَثْوَتِهِ وهو يُهْمِّهِمُ قائلاً:

- "لربما عليّ أن أشكرك في نهاية الأمر، فلولا حماقتك ما أقدمت على الإتيان إلى هنا ما حَيِّثُ.. والآن بموت طَبَّاخِ (القطائع) أستطيع إقناع "أبا الصلت" ببسط نفوذي إلى هنا أيضاً لأتولى شؤون تجارته وأستحق مكانة غريمي السابق".

تأمل "غريـر" ملامح الجمود التي أصابت وجه "بيجاد" لتتَجَرَّ عيناه نحو السَّماء مُطبَّعًا فاه في صمت، وقد تراخت يداه جانبه، لِيَنْظُرَ "غريـر" نحو صدره فلا يجد له من حَرَاك، حينها أدرك بأن روح "بيجاد" قد فارقت الحياة، دون عِلْمٍ منه إن كان الأخير قد سمع بَقِيَّةَ حديثه له أم أنه تُوفِّيَ دون أن يعلم بواطن الأمور، لِيُغادر على الفور تاركًا جُثَّةَ "بيجاد" تفترش الأرض ومن جواره الطُّفل "عُدَيَّ"، غير آبه بما قد يحل به، لِيبدأ في شق طريق العودة المحفوف بالمخاطر مجددًا قاصدًا العودة نحو داره في رُقَاق (أترجة).

أصابت طرقات خافتة باب الشَّيْخ "صالح" لِيَتَوَارَبَ بابه حينئذٍ كاشفًا من الخارج، ليفتح الأخير الباب بينما ينظر بسعادةٍ نحو "غريـر" بينما يقف على عتبة داره، لِيَتَلَقَّ نحو جانبه فلا يجد أحدًا سواه، فأطبق الحُزن على صدره وأطل من عينيه بعد أن ظنَّ بهم العودة منذ أن رحل ثلاثتهم عن الرُّقَاق قبل ذلك في رِجَم اللَّيْلِ.

لِيُنْكَسَ عينا "غريـر" أرضًا وتعتلي ملامحه الحسرة وهو يحدثه:

- "لقد واجهنا من الأهوال ما لا طاقة لنا بها، لقد قُتِلَ رفيقاي دون أن نعلم للمصامدةٍ من طريق".

لِيَتَنَحَّبَ الشَّيْخ "صالح" في حُرْقَةٍ منه، وقد أدرك عقله مرارة فراق رؤياهما إلى الأبد، ليضع "غريـر" يده على كتفه مُرَبِّيًا عليه بحنوٍ بينما يُكْمِلُ:

- "لا تبك يا شَيْخ "صالح"، فمن الآن فصاعدًا وتخليدًا لذكرى "بيجاد، وعبد الرازق" وكل شخصٍ في هذا الرُّقَاق فَقَدَ عزيزًا عليه، وكل أمٍ فقدت وليدها،

وكل أبٍ حُطِقتْ عائلته على يدِ الطغاة.. سوف أقوم بتهريب الأطفال جميعهم دون مُقابل، وكل ما أطلبه منك أن تقوم بنشر الخبر في جميع الأرجاء وإلى أبعد ما يُمكنك الوصول إليه، وإني أعاهدك أمام الله بأنني سأكون ذلك الشخص المُخَلَّص لهم الذين طالما تَمَنُّوه ما دمت حيًّا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أطبقت (السَّدَّة المُسْتَصْرِية) ببراثنها على البلاد طيلة السبع سنوات حتى أواخر عام 465 هجريًا⁶⁶. وقد انتهت الأزمة بطلب الخليفة المستنصر العون من "بدر بن عبد الله الجمالي"⁶⁷ أمير الجيوش الفاطمية في الشام للقدوم لنجدة البلاد، والذي استطاع أن يأتي برجاله، وأن يفرض سلطته ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح مرة أخرى⁶⁸.

- سعى "بدر بن عبد الله الجمالي" على القضاء على تجارة اللحم الآدمي بعد ذلك، ليتم الإغارة على جميع أوكار بيع اللحم والقبض على تُجارها وقتلهم، ويُقال بأنه تم القبض على "غريب بن مالك الكردي" بالجرم المشهود بعد تَبَيُّن قيامه بالمُتاجرة بما يزيد عن الخمسة آلاف طفل أثناء أعوام تلك الأزمة، لِيُنْفَذَ به حُكم الإعدام عام 467 هجريًا، ويُسجل في التاريخ كأحد أشهر سفاحي هذا العصر.

- يُروى أن امرأة تُدعى "شُعيبه بنت زهير" قد خرجت من دارها قاصدة قصر الخليفة فور علمها بجرم "غريب بن مالك"، وكانت قد أوكلت له سابقًا مهام توصيل ثلاثة من صغارها إلى الشام، ليعلو صُراخها أمام باب القصر ويستمر مكوثرها أمامه لطيلة يومين دون انقطاع، بينما تصيح بجملةٍ واحدة، "لقد كان حامينا هو سارقنا".. وهي الجملة التي تلونت مع مرور الزمن حتى وقتنا هذا

لتصبح بالعامية "حاميها حراميها"، وهي تُطلق على من يَأْتَمَنُه الناس على أمرٍ
ويغدر بهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



النهاية

لم يُجد التاريخ بالكثير من الأحداث والوقائع التي تم معاصرتها في تلك الآونة، وقد يرمي أحدهم بخياله بعيدًا، فيتم التلاعب بك عبر قلمه، ولذلك.. تذكر دائمًا أن الحقائق والوقائع التاريخية تُؤكَّد فقط بالمراجع والمصادر، وعدا ذلك فما يُقال أو يُروى قد يكون من نسيج خيال أحدهم ليس أكثر.

هيثم موسى



كواليس الرواية

• لقد انتويت في بادئ الأمر أن أطلق على تلك الرواية اسم (زقاق أُتُرْجَة الشاهد)، وذلك لحدوث غالبية أحداثها داخل ذلك الرُّقَّاق، ولكن أثناء بحثي في مراجع ذلك العصر والأحداث المريبة التي وردت به، أثار فضولي مصطلح أكل البشر للحم بني جنسهم، وهو ما يدعى بـ (الانثروبوقاجيا)، فقررت في اللحظات الأخيرة تسمية الرواية بالاسم الذي تراه الآن، ولهذا.. فأعترف لكم بأنني قد أدركت أن ما يثير فضولي دَوْمًا أكثر من غيره وأشغفه هو تلك الأسماء الغير تقليدية.

• حاولت تقديم غُلاف للرواية يواكب ذلك العصر وينبئ بما حدث به من أهوال، ليأتي تصميم الطرف البشري المقطوع كدلالة على الأجساد الآدمية التي تم إهدار أرواح أصحابها حين ذاك، ليتم الاستقرار على طرف "اليد المقطوعة" كإسقاطٍ على أحد أحداثها وهو بتر يد "عبد الرازق" وفُقدانه لها، بينما تم اختيار اللون الذهبي ليُغطي اليد والدِّماء التي سالت منها، كناية عن حُرمة إراقة الدِّماء الثمينة للإنسان والتي هي غالية كغلو الذهب.

• لقد حرصت على عدم وضع أي صورة توضيحية في الفصل الأخير، فلم أرد أن أعنّون أي من المشاهد داخل ذلك الفصل بالتحديد بصورة تخيلية مُعينة قد تُفرض على عقل القارئ، ولذلك تركت الفصل الأخير دون أي صورًا توضيحية ليطلق القارئ العنان لمُخيلته في كل حدث أو مشهد يقرأه داخل ذلك الفصل.

• خطّت الكثير من الأقلام أحداث تلك الحُقبَة المُظلمَة من تاريخ مصر في رواياتها، ومن أصحاب تلك الأقلام من يفوقني في الكتابة جمالًا وإبداعًا في الفكر، فكان همي الشاغل هو حرصي على تقديم فكرة تناول البشر للحم البعض من شِدَّة الجُوع في تلك الآونة بأكثر طريقة منطقية يتمكن منها قلمي، محاولًا توصيل تلك الفكرة الغير تقليدية والغريب استيعابها واستساغتها على العقل البشري، متمنيًا أن أكون قد حققت مسعاي في نهاية الأمر.

• كل الشكر للأستاذة "منى القاضي"، الجندي الخفي وراء صفحات رواية (انْتِرُوبًا جَيًّا).

• وفي النهاية أتمنى أن أكون قد استطعت تقديم ما قد أمتع عقولكم، ولنا لقاء في القريب مع رواية جديدة في توجه أدبي مختلف... وإلى اللقاء قريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

عن الرواية..

المقدمة

ومضة

الفصل الأول..

أحوال العباد

الفصل الثاني..

وَلَيَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ..

الفصل الثالث

الخصاصة

الفصل الرابع

المخمصة

الفصل الخامس

المسغبة

الفصل السادس

البريء

الفصل السابع

الخطيئة الأولى..

الفصل الثامن

كذب المنجمون.. ولو صدقوا..

الفصل التاسع

رائحة الموت

الفصل العاشر

الغريبان..

الفصل الحادي عشر

المصامدة

الفصل الثاني عشر
الطَّاغُوتُ.

الفصل الثالث عشر
ما بعد المَوْتِ

الفصل الأربعة عشر.
أصحاب النفير.

الفصل قبل الأخير.
كَفَنَةُ المَوْتِ

الفصل الأخير.
التَّذِيرُ.

النهاية

كواليس الرواية

الفهرس ..

Notes

[[-1](#)]

الانتروبوفاجيا أو اللّحّدية، هو مصطلح يُطلق على وصف أكل اللحم البشري.

[2-]

الاقتباس للكاتب "بلقاسم الطباي" من كتاب (الموت في مصر والشام -
الجزء الأول).

[3-]

كانت الضواري الجوعى أثناء نكبة (السَّدَّة المُسْتَصْرِية) تدخل الديار، فتأكل الطفل في المهد، وأبواه يبصرانه دون استطاعتهما الدِّفاع عنه من شِدَّة الوهن والجَّوع. المرجع: كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" للمؤرخ "ابن إياس الحنفي".

[4-]

يُسمى هذا الصَّوْتُ بالقشاع: وهو الصَّوْتُ الذي تصدره الصِّبَاع عند الانفعال أو الحماس. المصدر: (المُعْجَم اللُّغَوِي).

[5-]

كانت طبقة العامة أثناء العصر الفاطمي تتركز أغلبها في مدينة (الفسطاط) لعدم استطاعتهم دخول (القاهرة) أو المبيت بها إلا بتصريح بذلك.

المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[6-]

كانت (مصر) وقتها أخلاط من الناس، من قبط، وروم، وبربر، وأكراد، وعرب، وديلم، وحبشان، وغيرهم من الأجناس.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية"
من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[7-]

ملحوظة: كان الخليفة في ذلك الوقت يُدعى "المستنصر بالله الفاطمي"
ولذلك سُميت (السَّدَّةُ الْمُسْتَنْصِرِيَّة) بذاك لحدوثها في عهده.

[8-]

من العوامل التي ساهمت في اشتعال فتيل (السَّدَّةُ الْمُسْتَنْصِرِيَّة) هي النزاعات التي نشبت بين فصائل الجيش الفاطمي. المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

[9-]

القَصَّاب: كلمة تُطلق قديمًا على وظيفة الجِزارة. المرجع: المُعجم اللغوي.

[10-]

العبيد الخُصيان هم العبيد الذين يتم استئصال أعضائهم التناسلية وما يسكن أسفلها، وكان يتم استخدامهم في البيوت لإمكانية أتمانهم على نساء البيت من الفحشاء، وكان الغالب من العبيد يموت اثناء عملية الإخصاء ولذلك كان من يبقى منهم على قيد الحياة غالي الثمن. المصدر: مقال بعنوان: "أنواع الرقيق" للباحث/ أحمد صبحي منصور.

[11-]

تشبه الكثير من العامة في (العصر الفاطمي) بالطبقة الخاصة في امتلاكهم للرقيق.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[12-]

زُقَاق (أُثْرَجَة الشاهد) هو زُقَاق تواجد بالفعل بمدينة (الفسطاط) إِبَّان (العصر الفاطمي)، وجميع الأزقة والحواري التي سوف يتم ذكرها تَأَلَّفًا، كانت هي الأخرى تتواجد بالفعل في ذلك العصر.
المرجع: كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار - القسم الأول" من تأليف أ/ إبراهيم بن محمد بن أيدير الشهير بابن دقماق.

[13-]

دار (ابن مرزبان المُقامر) هي أحد دور القمار التي ورد تواجدها في ذلك العصر.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية"
من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[14 -]

من العوامل التي ساهمت في اشتعال فتيل (السَّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة) هو التخبط السياسي للدولة، فقد تولت أم الخليفة المستنصر غالبية شؤون البلاد اثناء حكم ولدها، صار لها الكلمة الأولى في تعيين الوزراء والإشراف على تصرفاتهم، وأصبحت الدولة في يد أعوانها وتلقبت في ذلك الوقت بالسيدة الملكة.
المرجع: كتاب "تاريخ الدولة الفاطمية" من تأليف د/ إيناس محمد البهيجي.

[15 -]

كان اللعب بفصيّ بالنرد هو وسيلة المقامرة في ذاك العصر.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية"
من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[16-]

تأتي الكلمة على وزن فعيل من كلمة غَرَّ وهي تعني: الشاب اليافع.
المرجع: "المُعجم اللغوي".

[17-]

ملحوظة: كان زُقَّاق (أترجة الشاهد) هو الملاصق لمسجد ابن عمرو
من غربه، وحبس ابن أترجة المذكور في الأحباس.
المرجع: كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار - القسم الأول" من تأليف
أ/ إبراهيم بن محمد بن أيدير الشهير بابن دقماق.

[18-]

ملحوظة: كان المذهب الشيعي منتشرًا بين عِلية القوم بينما كان غالبية الطبقة الفقيرة يدينون بالمذهب السني.
المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

[19 -]

من العوامل التي عجلت بقدوم (الشَّدة المُستَصرِّية) هو تخریب الأراضي الزراعية للدولة فبات الحرث زهيد وثمان سِعره. المرجع: كتاب "الازمات الاقتصادية التي اصابَت مصر في خلافة المُستنصر" من تأليف أ.م. د/ نضال حميد سعيد وم. د/ هيفاء عاصم محمد.

كان يُشاع لدى بعض ممن أهملوا تبين تفاسير القرآن الكريم مفاهيم مغلوطة لبعض الآيات، ومن أكثرها شيوعًا هو المفهوم المغلوط لقوله تعالى: يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا. فقد كان يُظن بعض الناس أن خروج طفل إلى الحياة من رحم أمه وقد شاب شعره، هو من علامات اقتراب يوم القيامة، بينما المفهوم الصحيح لتلك الآية هو يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام.

المرجع: كتاب "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.

[21-]

المصدر: مقال بعنوان: أنواع الرقيق للباحث/ أحمد صبحي منصور.

[22-]

الخاصة هي ثاني درجات الجوع التي تم ذكرها في القرآن الكريم، وهو الجوع الذي يستمر لأسابيع. وأنت في قوله تعالى "وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ". المرجع: كتاب "فقه اللغة" للثعالبي.

[23-]

كان انخفاض نهر النيل من أهم عوامل حدوث (الشَّدة المُستَصرِية).
المرجع: كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة" من تأليف/ تقي الدين أحمد بن
على المقرئ.

[24 -]

الشُّرْطَة السُّفْلِيَّة: كانت تُقسِم الشُّرْطَة في (العصر الفاطمي) إلى قسمين جغرافيين، فكانت الشُّرْطَة العُلْيَا هي المسئولة عن (القاهرة)، بينما الشُّرْطَة السُّفْلَى هي المسئولة عن (الفسطاط) وبعض المُدُن الأخرى.
المرجع: كتاب "الشُّرْطَة في مصر" من تأليف أ/ محمد الأشقر.

[25 -]

المخمصة هي ثالث درجات الجُوع التي تم ذكرها في القرآن الكريم، وهو جوع يتسبب في ضمور المعدة يصاحبه الإعياء والهزال وتغير في الملامح. وأنت في قوله تعالى "فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ". المرجع: كتاب "فقه اللغة" للثعالبي.

[26-]

أثناء (السَّدَّةِ الْمُسْتَصْرِیَّةِ) كان لحم الكلاب يُباع في السُّوق بخمسة دنانیر، ولحم القطط بثلاثة دنانیر.
المرجع: كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقریزية - الجزء الثاني" من تألیف/ تقي الدين أحمد بن علی المقریزي.

[27-]

إِبَّان (العصر الفاطمي)، كان من التَّبَرُّك والمُفَاخَرَة للشخص أن يلبس
ثوبًا من الملابس التي كان قد لبسها الخليفة، والتي كانت تُباع في
المزادات العامة والخيرية.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية"
من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[28-]

مرجع الواقعة: كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" من تأليف/ يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي.

[29 -]

(المسغبة) هي آخر درجات الجُوع وتم ذكرها في القرآن الكريم، وهو جوع يتسبب في الإغماء والإفاقة ويُقارب فيه الموت. وأنت في قوله تعالى "أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ". المرجع: كتاب "فقه اللغة" للثعالبي.

[30-]

المرجع: كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" من تأليف/
يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي.

[31-]

في تلك الآونة تم القبض على أحد الرجال الذي كان يقتل النساء والصبية وبيع لحومهم، بينما يدفن أطرافهم ورؤوسهم في جوف الأرض حتى لا يتم اكتشاف جرائمه.
المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

[32-]

المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

[33-]

ملحوظة: يفيد غالبية الناس الذين أُزيل طرف خاص بهم حديثًا، أنهم في بادئ الأمر يشعرون أن الطرف المبتور ما زال موجودًا. وهذه الظاهرة معروفة باسم "الإحساس بالأطراف الوهمية".
المرجع: موسوعة اللغة العربية "MIMIR" – القسم الطبي.

[34-]

سُمِّيَتْ تلك الحارة فيما بعد بحارة (الطبق)، كناية عما حدث حينها من بيعها بأكملها مقابل طبق من الخبز.
المرجع: كتاب "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء مخطط المقرئ - الجزء الثاني" من تأليف/ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ.

[35-]

كان لدى المصريين طريقة لعمل خبز يابس مجفف والمنشور في الشمس، يمكن تخزينه لأشهر طويلة تمتد لعام أو أكثر، فبات هذا النوع الذي نُدّر تواجده هو المتاح في تلك الآونة.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[36-]

المرجع: كتاب "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء مخطط
المقريري - الجزء الثاني" من تأليف تقي الدين أحمد بن علي
المقريري.

[37-]

ملحوظة: كانت (القطائع) مدينة من مدن مصر قديمًا، شأنها شأن مدينتي (الفسطاط والعسكر).
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[38-]

كان العصر الفاطمي هو عصر التنجيم في مصر، حيث كان المصريون في ذاك الوقت أكثر الناس استعماً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها.

المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[39-]

هرب الكثير من أصحاب السلطة العليا من مصر خوفًا على ارواحهم من القتل أو الموت جوعًا وكان على رأسهم السيدة "رصد" والده الخليفة وحفيداتها.
المرجع: كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" تأليف يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي.

[40 -]

كانت هناك امرأة تُدعى "الشريفة بنت صاحب السبيل" تبعث إلى الخليفة بطبق فُتات من الحين للآخر من ضمن ما كان لها من بر وصدقات في تلك الشَّدة. المرجع: كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" من تأليف/ تقي الدين احمد بن علي المقرئزي.

[41-]

في تلك الآونة من (الشَّدة المُستَصرِّية) كان أهلُ فساد قد سكنوا بيوتًا قصيرة الأسقف قريبة ممن يسعى في الطُّرقات، فأعدوا سلبًا وخطاطيف فإذا مر بهم أحد انتشلوه في أقرب وقت وشرحوا من لحمه وأكلوه.
المرجع: كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" من تأليف/ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ.

[42-]

كان يتم دفن المَوتى في تلك الآونة داخل المنازل حيث تعذر الدفن
كالسابق بسبب نبش القبور وأكل الجُوعى لجيف المَوتى.
المرجع: كتاب "الإفادة والاعتذار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر" للمؤلف/ موفق عبد اللطيف البغدادي.

[43-]

المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

ذكر في تاريخ تلك الأزمة عن تواجد إحدى الأزقة، وقد سُمي بزقاق (العكامين)، حيث كان أناس يعكمون المارة بإكر في أفواههم ثم يحملونهم إلى زقاق مجاور يقتلوهم فيه، فسُمي ذلك الأخير بعد ذلك بزقاق (القتلى).
المرجع: كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار - القسم الأول" من تأليف أ/ إبراهيم بن محمد بن أيدير الشهير بابن دقماق.

[45 -]

جَلَل النفط أو قوارير النفط: هي قدور خزفية تتشابه في هيئة ثمرة
الرمّان أو الكمثرى تُملأ بالنفط والمواد الملتهبة، كان يُجرى تزويد
الجيش الفاطمي بفرقة تُدعى النفاطين، وهم الذين يقومون بإعداد جَلَل
النفط وقذفها على الأعداء لتغرقهم بنيرانها المشتعلة.
المرجع: كتاب "الدولة الفاطمية في مصر: تاريخها وحضارتها" للكاتب/
أحمد السورجي.

[46-]

البيسار: يُعد من أشهر وجبات الأطعمة في العصر الفاطمي، وقد كان يتكون من الفول الذي يطبخ بالسمن واللبن.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

يُروى عن أحد مؤرخي العصر الفاطمي أن "غريز بن مالك الكردي" كان يعاني مما سُمي في الطب النفسي الحديث بـ (الرهاب الاجتماعي)، وتكون حالة الرهاب الاجتماعي مكتسبة جراء التعرض لموقف سيء أو مسبب للحرَج الكبير، وهو يصيب بعض الأشخاص حينما يكونون محل مراقبة أو حكم سلبي من الآخرين مما يؤدي إلى الشعور بالقلق والانعزال، وقد يؤثر الضغط المفرط على العلاقات أو الأنشطة الروتينية اليومية للمريض.

المرجع العلمي للمرض: كتاب "الرهاب الاجتماعي" للمؤلف د/ عبد الله الحريري.

[48-]

جاء الوباء ليفني المرض بعدد كبير من سكان قُرى مصر وصعيدها،
لِيَهْلِكَ غالبية ساكنيها وينزح البقية نحو مدن (الفسطاط والقطائع
والعسكر).
المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال
بدوي.

(المصامدة): هم قوم من طائفة مغربية سكنت الدولة في ذلك العصر، وبنات أبنائها من طوائف الجيش الفاطمي، ولم يكن لك (مصامدة) حارة خاصة بهم في أوائل العصر الفاطمي، حيث أنهم كانوا منتشرين في الحارات والأزقة المختلفة، واستمر حالهم على ذلك حتى عام 515هـ. المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[50-]

كان (المصامدة) قوم سود قُبّاح الصورة، كبار العظم غليظي الملامح،
أقوياء البنية يحاربون بالسيف مترجلين.
المصدر: كتاب (سفرنامه) للرحالة والفيلسوف الفارسي/ ناصر خسرو.

[51-]

الطَّاعُونَ لِعَهَّة: هُوَ الْمَرَضُ الْعَامُّ وَالْوَبَاءُ الَّذِي يَفْسُدُ لَهُ الْهَوَاءُ فَتَفْسُدُ لَهُ
الْأَمْرِجَةُ وَالْأَبْدَانُ. المرجع: كتاب "لسان العرب" للكاتب/ ابنُ مَنْظُورٍ.

[52-]

كان سبب ظهور الأوبئة في تلك الآونة، أكل الجيف والميتات وتقيحات المَوْتَى وتلوث المياه بدماء الجثث الموبوءة التي تلقى بداخلها، بينما رجح البعض الآخر خروج القوارض من تشققات الأراضي بعد جفائها وتعرض البشر للعدوى بسببها. المرجع: كتاب "مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج" من تأليف/ أحمد السيد الصاوي.

[53-]

المرجع: كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" من تأليف أ/ جمال بدوي.

[54-]

المرجع: كتاب "مجااعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج" من تأليف د/
أحمد السيد الصاوي.

[55-]

كان المصريون يلقون بجثث موتاهم الموبوءة في مجرى نهر النيل خوفاً من انتقال العدوى لهم إن قاموا بدفنهم قرايتهم.
المرجع: كتاب "مجاغات مصر الفاطمية أسباب ونتائج" من تأليف د/
أحمد السيد الصاوي.

[56-]

اشتهر وجود بعض الطهارة في تلك الشدة يبيعون لحوم الآدميين لعلية
القوم بعد أن يذبحوا ضحاياهم من الصبية والنساء.
المرجع: كتاب "الموت في مصر والشام - الجزء الأول" للكاتب بلقاسم
الطبابي.

[57-]

عُرف للأكراد في تلك الآونة ثلاث أنواع فقط من الخناجر هي: خنجر (دبان)، خنجر (قزيني)، وخنجر (تيخ).
المصدر: مقال بعنوان "قصة الخنجر الكردي" للصحفي والكاتب محمد زكي أوسي.

[58-]

كان (الأكراد) في مصر إبان (العصر الفاطمي) قليلي العدد، وقد سكنوا حارة (البستان) بمدينة (القاهرة) وقت ذاك.
المرجع: كتاب "الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية" من تأليف أ/ رمضان محمد رمضان.

[59-]

تفشى بين الأطفال وباء "الجدرى" في تلك الآونة، فيذكر حتى أنه قد أفنى حينئذ واحد وعشرين ألف طفل في شهر واحد.
المرجع: كتاب "تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة - الجزء الثالث - المجلد الثاني" للكاتب/ ساويرس بن المقفع.

[60-]

لم تُعرف في الأحاديث المروية عن "غريز بن مالك" عن كيفية حوزته
لجلل النفط، ولكن يروي البعض أنه قد بادل أحد (النفاطين) بها ثمناً
لتهريب غلامه الوحيد عوضاً عن صك داره.

[61-]

كان يُشتهر في ذلك العصر الفاطمي ظهور العديد من أشكال التنكر بقصد القتل والسرقة، وقد سجل التاريخ حينئذٍ أغرب حالات التنكر والتواري عن الأعين.
المصدر: دراسة تاريخية بعنوان (التنكر في العصر الفاطمي) للدكتور/ وسيم عبود عطية.

[62-]

كان مرض الجُدري والذي تَنقل عدواه بالهواء، يذيق الآلاف المَوْت على يديه في وقتٍ ليس بالطويل لتظهر على المريض بقع حمراء على الوجه أو اليدين أو الساعدين، ثمَّ على جذع الجسم. وخلال أيام، يمكن أن تتحول تلك الآفات إلى بثور صغيرة تمتلئ بسائل شفاف ثم تتحول إلى صديد وتتحول سريعًا إلى قُرَح لتتمزق وتنفث، فلا يمر أسبوعان أو ثلاثة من انتقال المرض إلا ويصل المُصاب لمراحله الأخيرة ويُلاقي المَوْت في نهاية الأمر.

المرجع: كتاب "الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية" للكاتب محمد بركات.

[63 -]

كان يتوجد في تلك الآونة زُقَّاق يُدعي بزقاق (البواقيل)، حيث كان جماعة من ساكنيه أثناء (الشِّدَّة المُسْتَصْرِية) يسكنون تحت القبو هناك، فمن مر بهم ندفوه ونزعوا ما عليه، فعُرف حينئذٍ بزقاق (الندافين).
المرجع: كتاب "المَوْتُ في مصر والشام - الجزء الأول" للكاتب بلقاسم الطباي.

[64-]

كانت تتواجد في (الفسطاط) بيوت شاهقة الارتفاع وقت ذلك تختلف
عن الديار الأخرى، ليصل ارتفاعها لمسافة السبعة طوابق، فيسكن في
كل طابق عدة عائلات.
المرجع: كتاب "مجاعات مصر الفاطمية -أسباب ونتائج" للكاتب/ أحمد
السيد الصاوي.

كان (بنو قِرَافَة) هم قبيلة (المعافر) الآتين من (اليمن) إلى (الفسطاط)، كانوا قوم يُفَضِّلُون العُزلة والانفراد على الاختلاط بالمجتمع المصري، فبنوا أسوارًا حولًا منهم وامتهنوا دفن وإكرام المَوْتَى في مثواهم الأخير، قَسَمِي مكان سكنهم بالقِرَافَة نسبة لعيش (بَنِي قِرَافَة) بها، فبات يُطلق على المكان الذي يحوي مقابر المَوْتَى بالقِرَافَة نسبةً إليهم بعد ذلك. المرجع: كتاب "مغاني الأخبار في شرح أسامي رجال معاني الآثار" للكاتب/ أبو محمد محمود بن الغيتابى .

[66-]

مرجع تاريخ انتهاء الأزمة: كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرية - الجزء الثاني" من تأليف/ تقي الدين احمد بن على المقرى.

[67-]

ملحوظة: ترجع تسمية (حي الجمالية) بمصر القديمة، نسبة إلى "بدر بن عبد الله الجمالي"، احتفاءً وتقديرًا لما قدمه من خدمات للدولة المصرية إبان ذلك العصر.
المرجع: كتاب "حي الجمالية" للكاتب/ حسن الرزاز.

[68-]

المرجع: كتاب "تاريخ الدولة الفاطمية" من تأليف د/ إيناس محمد
البهيجي.